الطبعة العربية الأصلية

پاولو كويلو

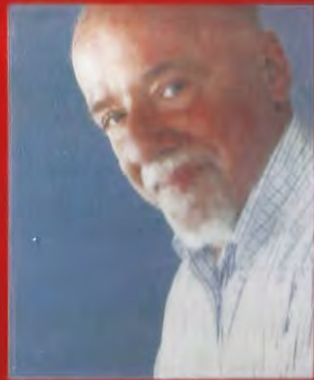
مؤلّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

الزانية





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



باولو كويلو

قبل أن يصبح باولو كويلو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، كاتباً شعبيّاً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيبياً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم، ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومبوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧. وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»، فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قرّاءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر، وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة. وتوالت، من ثمّ، سلسلة مؤلفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار؛ منها: الفالكيريز، على نهر بييدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، فيرونيكا تقرّر أن تموت، الشيطان والآنسة بريم، إحدى عشرة دقيقة، الزهير، ساحرة بورتوبيللو، الرابح يبقى وحيداً، بريدا، مكتوب، أوراق محارب الضوء، ألف، مخطوطة وجدت في عكرا.

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٦٨ دولة، وترجمت إلى ٧٤ لغة، وبيع منها أكثر من ١٤٥ مليون نسخة. نال العديد من الأوسمة والتقديرات وجوائز عالمية مرموقة، منها شهادة غينيس كون أعماله ترجمت إلى أكبر عدد من اللغات بين جميع كتّاب العالم. باولو كويلو عضو في الأكاديمية البرازيلية للآداب منذ عام ٢٠٠٢، يكتب عموداً أسبوعياً يتم نشره في الصحف والمجلات في جميع أنحاء العالم. وقد عُيّن سفير التنوّع الثقافي أمام الأونيسكو ومستشاراً خاصاً للحوار بين الثقافات والتقارب الروحي. وفي العام ٢٠٠٧ سُمي مبعوث الأمم المتحدة للسلام.

الزانية

پاولو كويلو

مؤلّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

الزانية

رواية

ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: روحي طعمة ـ وفيق زيتون



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Adultério
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة،
إسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت: http://www.paulocoelho.com
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.
الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥
ISBN: 978-9953-88-839-2

تصميم الغلاف: © Compañía
صورة الغلاف: © Ingram Publishing
صورة الكاتب: © Marvin Zilm
الإخراج الفني: تركيه التالى

مقدمة الكاتب لسلسلة
رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام يُحتضَر، وسوف ندعوه هنا حسن، عندما سأله تلميذ من تلامذته:

«من كان معلّمك أيها المعلّم؟».

أجاب: «بل قُلْ المئات من المعلّمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عدة، وربما سنوات، وينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

«لكن، ألم يكن لبعضهم تأثير فيك أكبر من تأثير الآخرين؟».

استغرق حسن في التفكير دقيقةً كاملةً، ثم قال:

«ثلاثة، في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية:

«أوّلهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلاّ في ساعةٍ متأخّرةٍ جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت مساعدته، ففتح لي قِفل الباب بلمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك، فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلةٍ، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عمّا إذا كان قد غنم شيئاً. فكان جوابه على الدوام، واحداً لا يتغيّر: «لم أوفَّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنّني، إن شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد».

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، خلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمّل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: «لم أوفَّق بشيء هذا المساء، لكنّني، إن شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد». كان ذلك يمنحني القوةَ على المتابعة».

«ومن كان المعلّم الثاني؟».

«كان كلباً، فقد حدث أن كنتُ متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عَطِشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافّة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غيرَ انعكاسٍ لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما في وسعه ليُبعد الكلبَ الآخر، لكنّ شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّفَ حسن قليلاً، ثم تابع:

«أخيراً كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير في اتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يُقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح، اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مُطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تُشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبياً. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظاتٍ مُعيّنة، لكنّه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين أُسِرّ بمشاعري وأفكاري إلى كل ما يحيط بي: إلى السُّحُب والأشجار والأنهار والغابات، إلى الرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنتُ تلميذَ الحياة، وما زلتُ تلميذها. لقد استقيتُ المعرفةَ وتعلّمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تُبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن إحدى أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلّق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تُبيّنُ لي أموراً

لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقده معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرُمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مُخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماسةٍ لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية من خلال ترجمتها ترجمةً اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله منّي، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجّه بالشكر إلى الوكيلة – المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماستها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

يا مريمُ البريئةُ من الخطيئة الأصليّة، صلّي لأجلنا نحن الذين نلتجئ إليكِ.

آمين

«ابْتَعِدْ إِلَى حَيْثُ الْعُمْقِ، وَاطْرَحُوا شِبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ»

لوقا ٥:٤

كلّ صباح، عندما أفتحُ عينيّ على «اليوم الجديد» المزعوم، أرغبُ في أن أغمضهما مجدّدًا، أن ألازم السرير وألاّ أنهض. لكن لا يسعني ذلك.

زوجي رائع، متيّمٌ بي، وهو صاحب مؤسسة استثمارية ضخمة. كلّ سنة- ورغم امتعاضه الكبير- يظهر في مجلّة «بيلان Bilan» على قائمة الأشخاص الثلاثمئة الأثرى في سويسرا.

لي ولدان، وهما «سبب عيشي» (على حدّ قول صديقتي). أنهضُ باكرًا لأُعدّ لهما الفطور ولأصطحبهما مشيًا إلى المدرسة على بعد خمس دقائق حيث يقضيان النهار كلّه، ممّا يُتيح لي أن أعمل وأملأ وقتي. بعد المدرسة، ترعاهما مُربّية فيليبينيّة إلى أن أصل وزوجي إلى المنزل.

أستمتعُ بعملي. أنا صحافيّة عالية الشأن في صحيفة مرموقة تُباع في معظم الأكشاك الجديدة في جنيف حيث أقطن.

مرّة في السنة، أذهب في عطلة مع كلّ أفراد عائلتي، وتكون في العادة رحلةً إلى جنّةٍ نائيةٍ ذات شطآن ساحرة، حيث ننزل في مدن غريبة يسكنها شعب فقير يجعلنا نشعر بأنّنا أثرى، وأكثر امتيازًا، وأشدّ امتنانًا على النِعَم التي أغدقتها علينا الحياة.

آه، نسيت أن أعرّف بنفسي. شرفتني معرفتك. اسمي ليندا. أنا في العقد الثالث، طولي مئة وثلاثة وسبعون سنتمترًا، ووزني ثمانية

وستون كيلوغرامًا، وأرتدي أفضل ما يُمكن شراؤه من ملابس (بفضل سخاء زوجي اللامحدود)، وأُثير رغبة الرجال وحسد النساء الأخريات.

ومع ذلك، كلّ صباح، عندما أفتحُ عينيّ على هذه الحياة المثاليّة التي يحلم الجميع بها، لكن قلّة تحقّقها، أعرف أنّ يومي سيكون كارثيًا. لم أكن أسأل نفسي شيئاً إلى أن حلّت بداية هذه السنة. كنت ببساطة أمضي في حياتي، مع أنّ الشعور بالذنب كان ينتابني بين الحين والحين لامتلاكي أكثر ممّا أستحقّ. لكنْ، ذات يوم، فيما كنت أُعدّ الفطور للجميع (كان الربيع حسبما أذكر والزهر يبرعم في الحديقة)، سألت نفسي: «أهذه هي الحياة؟».

ما كان عليّ أن أطرح ذلك السؤال. كان الذنب كلّه ذنب كاتبٍ أجريتُ معه مقابلةً، أمس، إذْ قال في لحظةٍ من لحظات المقابلة:

«لا أبالي ولو مقدار ذرّة، بأن أكون سعيدًا. أفضّل أن أعيش حياتي بشغف، وهذا خَطير لأنّكِ لا تعلمين البتّة ما قد يحدث تاليًا».

حينها فكّرت: «رجلٌ مسكين. لن يرتضي يومًا. سيموت حزينًا ومريرًا».

في اليوم التالي، أدركتُ أنّني لا أخاطر مطلقًا.

أعرف سير الأمور: يومٌ آخر يُشبه يوم أمس تمامًا. والشغف؟ أحبّ زوجي، وهذا يعني أن لا سبب يدعوني إلى الاكتئاب من العيش مع شخص من أجل ماله فحسب، ومن أجل الأولاد، أو من أجل الحفاظ على المظاهر.

أعيش في أكثر البلدان أمانًا، ليس لديّ مشكلات أتحدّث عنها،

وأنا زوجة وأمّ صالحة. نشأتُ إنجيليّةً متحفّظة وأنوي أن أربّي ولديّ هذه التربية. لا أخطئ في أي خطوة أخطوها لأنّني أعرف كم يسهل تدمير كلّ شيء. أفعل ما عليّ فعله على نحو فعّال مقتصرة فيه على الحدود الدنيا. عندما كنت أصغر سنًا، اختبرتُ الحبّ من طرف واحد، شأني شأن أيّ شخص طبيعي.

لكن، منذ أن تزوّجت، توقّف الزمن.

إلى أنْ كان ذاك الكاتب الرهيب، وكانت إجابته عن سؤالي. أعني: ما ضير الرتابة والملل؟

بصريح العبارة، لا شيء البتّة. إنّه...إنّه الخوف السرّي من أنّ كلّ شيء قد يتغيّر من لحظة إلى لحظة، ويأخذني تمامًا على غفلة.

منذ لحظة جريان تلك الفكرة في خاطري ذاك الصباح المشرق الجميل، بدأ خوفي: هل سأتمكن من مواجهة العالم وحيدة إن مات زوجي؟ «نعم»، أسررتُ إلى نفسي، لأنّ تَرِكَتَه من المال تكفي لإعالة أجيال عدّة. وإن مُتّ، فمن سيرعى ولديّ؟ زوجي الحبيب. لكنّه بالتأكيد سيتزوّج من جديد، لأنّه غني وبهي الطلعة وذكي. هل سيكون ولداي في أيدٍ أمينة؟

أوّل ما فعلته كانت محاولتي الإجابة عن كلّ تساؤلاتي. وكلّما أكثرت من إجاباتي عن أسئلة، طاف منها مزيد. هل سيتّخذ عشيقة عندما أتقدّم في السنّ؟ فنحن لم نعد نمارس الجنس بالوتيرة التي تعوّدناها. هل لديه واحدة، منذ الآن؟ هل يخالني مرتبطة برجل آخر لأنّ اهتمامي بالجنس قلّ على مدى السنوات الثلاث الفائتة؟

لا نتشاجر أبدًا بداعي الغيرة. كنتُ أعتقد أنّه أمر رائع، لكن بعد ذاك الصباح الربيعي، أخذت أشكّ في أنّ غياب الغيرة ربّما عنى افتقارنا إلى الحب.

فعلتُ ما بوسعي للكفّ عن التفكير في ذلك.

على مدى أسبوع كامل، كنت كلّما أغادر العمل، أذهب لشراء شيء من أحد المتاجر ذات البضاعة الباهظة في شارع «دو رون». لم يكن ثمّة ما أحتاج إليه فعلاً، لكنّني شعرتُ على الأقلّ بأنّني كنتُ..أغيّر شيئًا، أكتشفُ شيئًا لم أعرف حتّى أنّني في حاجة إليه، كأداة منزليّة جديدة، مع أنه لا بدّ من القول إنّ المُستجدّات نادرة في عالم الأدوات المنزليّة. كنتُ أتفادى محلاّت الألعاب لأنّني لم أُرد أن أُفسد ولديّ بتقديم لعبة جديدة لهما كلّ يوم. لم أدخل كذلك أيّ متجر للبضائع الرجاليّة لئلا يشكّ زوجي في سخائي المفرط المفاجِىء.

عندما كنت أصل إلى البيت وأدخل عالمي الأُسَري الأخّاذ، كان كلّ شيء يبدو فاتنًا بضع ساعات، حتى يخلد الكلّ إلى النوم. ثمّ، تدريجًا، يبدأ الكابوس.

أعتقد أنّ الشغف مقتصر على الشباب. غيابه طبيعي في سنّي على ما يُفترض، لكن ليس هذا ما يُروّعني.

اليوم، أنا امرأة يتجاذبها رعبٌ من أنّ كلّ شيء قد يتغيّر، ورعب موازٍ له من أن كل شيء قد يمضي على حاله تمامًا بقية أيّام حياتي. يقول بعض الناس إنّه مع دنو الصيف تراودنا أفكار غريبة، نشعر بأنّنا أصغر لأنّنا نصرف وقتًا أطول في الهواء الطلق، وهذا يجعلنا نعي مدى رحابة العالم. يبدو الأفق بعيدًا جدًا أبعد من الغيوم ومن جدران منزلنا.

قد يصحّ ذلك، لكنّني لم أعد أعرف للنوم طعمًا، وليس الحرّ هو السبب. عندما يحلّ الليل وبعيدًا عن الأنظار، أخشى كلّ شيء: الحياة، والموت، والحبّ أو غيابه؛ أنّ المُستجدّات كلّها تتحوّل سريعًا إلى عادات؛ الشعور بأنّني أهدر أفضل أيّام حياتي وفق نمط سيتكرّر ويتكرّر ويتكرّر إلى أن ينقضي أجلي؛ والذعر الصرف في مواجهة المجهول، مهما كان مشوّقًا ومليئًا بالمغامرات.

ومن الطبيعي أن أبحث عن المواساة في عذاب آخرين.

أشغّل التلفاز وأشاهد الأخبار. أرى تقارير لا تنتهي عن حوادث، عن ناس شرّدتهم الكوارث الطبيعيّة، وعن لاجئين. كم مريضًا على وجه الأرض في هذه اللحظة بالذات؟ كم ضحية من ضحايا الظلم والخيانة وقعت بصمت أو علنًا؟ كم فقيرًا وكم عاطلًا عن العمل وكم سجينًا؟

أقلّب القنوات. أشاهد مسلسلًا أو فيلمًا، وبعد دقائق أو ساعات أنسى كلّ شيء. أرتاع من أنّ زوجي قد يستيقظ ويسأل: «ما الخطب، حبيبتي؟»، لأنّه عند ذاك، سأضطّر إلى القول إنّ كلّ شيء بخير. وسيكون الأمر أسوأ حتّى إذا وضع يده على فخذي - كما حدث بضع مرّات، الشهر الفائت - وسحبها ببطء إلى أعلى وأخذ يداعبني. أستطيع أن أصطنع النشوة الجنسيّة - وغالبًا ما أفعل - لكنّني لا أستطيع أن أقرّر الاهتياج بكل بساطة.

سأضطرّ إلى القول إنّني تعبة فعلًا. وإذْ لا يُقرّ ولو مرّة، بأنّه مغتاظ، سيقبّلني ويستقيم في سريره ويشاهد آخر الأخبار على جهازه الرقمي، منتظرًا حلول اليوم التالي. عندئذٍ، سآمل عبثًا أن يكون تعبًا، تعبًا جدًا بحلول اليوم التالي.

لكن ليس الأمر على هذا النحو دومًا. أحيانًا، عليّ أن أُبادر. إذا

صددته ليلتين متتاليتين، فقد يشرع في البحث عن عشيقة، ولا أرغب حقًا في أن أخسره. إذا استمنيتُ مسبقًا، فسأكون جاهزة وسيكون كلّ شيء طبيعيًّا من جديد.

وكلمة «طبيعي» تعني أن أيًّا منّا لن يعود كما كان من قبل لغزًا في نظر الآخر.

في ما يخصني، يستحيل الحفاظ على النار نفسها مستعرة بعد عشر سنوات من الزواج، وفي كلّ مرّة أصطنع فيها نشوة، يموت داخلي قليلاً، قليلاً؟ أعتقد أنّني أموت بشكل أسرع ممّا ظننت.

تقول لي صديقاتي إنّني محظوظة، لأنّني أكذب عليهن وأخبرهن بأنّنا نمارس الجنس غالبًا، تمامًا كما يكذبن عليّ بالقول إنّهن يجهلن كيف يمكن لأزواجهنّ أن يُبدوا اهتمامًا كبيرًا بالجنس حتّى الآن. يقلن إنّ الجنس في الحياة الزوجية يكون مشوّقًا في السنوات الخمس الأولى فقط، وبعدها، لا بدّ من «التخيُّل»: أي أن تغمضي عينيك وتتخيّلي أنّ جارك متمدّد فوقك، يمارس معك ما لن يتجرّأ زوجك يومًا على ممارسته. تخيّلي ممارسة الجنس معه ومع زوجك في آن. تخيّلي كلّ شذوذ ممكن، كلّ لعبة محرّمة.

اليوم، لدى مغادرتي المنزل مصطحبةً ولديّ إلى المدرسة، أتفحّص جاري. لم أتخيّل يومًا ممارسة الجنس معه. أفضّل أن أتخيّل ممارسته مع صحافي شابّ يعمل معي، ذاك الذي يبدو في حالة دائمة من المعاناة والعزلة. لم أره يومًا يحاول إغواء إحداهنّ، وهذا ما يستميلني. علّقت نساء المكتب كلّهن قائلات: «المسكين في حاجة إلى من يرعاه». أعتقد أنّه يدرك ذلك ويسعده أن يكون مجرّد موضع رغبة لا أكثر. قد يروّعه، على غراري، اتّخاذ خطوة خطأ تدمّر كلّ شيء: وظيفته، عائلته، حياته الماضية والآتية.

في أيّ حال، أنظر إلى جاري هذا الصباح وتنتابني رغبة في البكاء. هو يغسل سيّارته، فأفكّر: «هو ذا شخص آخر مثلي ومثل زوجي تمامًا. ذات يوم، سنؤدي العمل ذاته. سيكون ولدانا قد كبرا، وانتقلا إلى مدينة أخرى، أو حتّى بلد آخر. سنكون متقاعدَين، وسنصرف وقتنا ونحن نغسل سيّارتنا حتّى وإن كنّا قادرَين ماديًا على تكليف أحدهم فعل ذلك عنّا بعد بلوغ سن معيّنة، عليك تأدية أعمال تافهة، لصرف الوقت، ولإظهار أنّ جسمك لا يزال حصينًا، وللتعبير عن أنّك لا تزال تقدّر قيمة المال وتقوم بمهمّات متواضعة».

لن تغيّر سيارة نظيفة العالم بالمعنى الحرفي، لكنّها، هذا الصباح، الشيء الوحيد الذي يهمّ جاري. يلقي عليّ تحية الصباح، يبتسم، ويعاود العمل كما لو أنّه يصقل منحوتة لرودان.

أركن سيّارتي في موقف محطة الحافلات (تنقَّل في الحافلة عبر المدينة! كافح التلوّث!). أركب الحافلة المعهودة وأنظر إلى الأمور نفسها التي أنظر إليها دومًا في طريقي إلى العمل. يبدو أنّ جنيف لم تتغيّر قط منذ أن كنت طفلة، لا تزال المنازل الشاسعة القديمة قابعة بين المباني التي شيّدها محافظ مجنون، اكتشف «فن العمارة الجديدة» في الخمسينيّات.

أشتاق إلى كلّ هذا عندما أسافر. الذوق السّيّئ المقزّز، وغياب الأبراج الحديديّة - الزجاجيّة الضخمة، وغياب الطرقات السريعة، جذور الشجر التي تنبت بين بلاط الأرصفة الإسفلتيّة والتي تعثّرك، المتنزّهات العامّة بسياجاتها الخشبيّة الصغيرة الغريبة التي نما عليها العشب الضارّ لأنّ «هذه حال الطبيعة». باختصار، مدينة تختلف عن غيرها من المدن التي حُدِّثت وفقدت سحرها.

هنا، لا نزال نقول «صباح الخير» عندما نلتقي غريبًا في الشارع، «ومع السلامة» عندما نغادر متجرًا بعد شراء زجاجة مياه معدنيّة، حتّى وإن كنّا لا ننوي الرجوع إليه. لا نزال نُحدِّث غرباء في الحافلة، حتّى وإن ظنّ باقي العالم أنّ السويسريين كُتُمٌ متحفّظون.

كم أنّهم مخطئون! لكن من الجيّد أن يخالنا الآخرون هكذا، فهكذا نتمكّن من صون أسلوب حياتنا خمسة قرون أو ستّة، قبل أن يجتاز البرابرة جبال الألب آتين بأدواتهم الإلكترونيّة، وشققهم بغرف

النوم المتناهية الصِغر وغرف المعيشة الواسعة للتأثير في الضيوف، ونسائهم، اللائي يفرطن في التبرّج؛ ورجالهم، الذين يتكلّمون بصخب ويُزعجون جيرانهم؛ وأولادهم المراهقين، الذين يلبسون ثياب التمرّد لكنّهم، في الصميم، يرتعبون من ظنون أهلهم.

فليعتقدوا أنّ كلّ ما نفعله هو إنتاج الأجبان، والشوكولاته، والأبقار وساعات الوقواق. فليعتقدوا أنّ المصارف موجودة عند كلّ زاوية من زوايا جنيف. لا ننوي أن نغيّر هذا التصوّر. نحن مسرورون لغياب حشود البرابرة. كلّنا مدجّجون بالسلاح (يحمل كلّ سويسري بندقيّة في منزله بما أنّ الخدمة العسكريّة إلزاميّة)، لكن يندر أن تسمع أن أحدًا أطلق النار على آخر.

نحن مسرورون لأنّنا لم نتغيّر على مرّ قرون. نحن نعتزّ ببقائنا على الحياد عندما أرسلت أوروبا أبناءها للقتال في حروب عقيمة. نحن فرحون بعدم اضطرارنا إلى تبرير سبب حفاظ جنيف على مظهرها غير الجذاب إلى حدّ ما، بمقاهيها البالية والعجائز المتبخترات في أرجاء المدينة.

قد لا يكون قولي «نحن مسرورون» صحيحًا تمامًا. فالكلّ مسرورون باستثنائي، إذ أذهب إلى العمل متسائلة عما دهاني.

أصرف يومًا آخر في الصحيفة، محاوِلةً التنقيب عن أخبار مثيرة للاهتمام غير الحوادث المعهودة مثل حادث سير، ونهب غير مسلّح، وحريق (سارعت سيّارات الإطفاء المجهّزة برجال إطفاء متمرّسين إلى إخماده وإغراق شقّة قديمة بالماء. وكلّ ذلك لأنّ الجيران هلعوا لرؤية دخان يتصاعد جرّاء احتراق طعام مشوي تُرك أكثر مما يلزم في الفرن).

بالعودة إلى المنزل، أستمتع بالطهو، وترتيب المائدة، واجتماع العائلة حولها، وشكر الله على الطعام الذي نُقبل على تناوله. إنّها أمسية أخرى ينصرف كلّ فرد إلى شؤونه، بعد العشاء يساعد الوالد الولدين في واجباتهما الدراسيّة المنزليّة، تنظّف الوالدة المطبخ، وتُرتّب البيت، وتترك المال للخادمة التي تأتي صباح اليوم التالي.

ثمّة أوقات في هذه الأشهر، أشعر فيها بأنني بخير فعلاً، وأظنّ أنّ لحياتي معنى فعلاً، وأنّ هذا دور البشر على الأرض. يشعر الولدان بأنّ والدتهما تنعم بسلام، وأنّ والدهما أحنّ من ذي قبل وأكثر تنبّهًا، وتبدو الأسرة بأكملها مشعّة ببريق نورها. إنّنا مثال على السعادة في نظر باقي قاطني الشارع، المدينة، الإقليم - أو ما قد تسمّيه ولاية - وفي نظر البلد كلّه. ثمّ فجأةً، وبلا سبب، أنفجر بالبكاء وأنا أستحم. أستطيع أن أبكي في الحمام لأنّه لا يمكن لأحد

أن يسمع نواحي أو يطرح عليّ أكثر ما أكرهه من الأسئلة: هل أنتِ بخير؟».

نعم، ولماذا لا أكون بخير؟ أَتشكو حياتي من خطب؟

لا، لا شيء من ذلك.

لا شيء سوى الليالي التي تملأ صدري رعبًا.

والأيام التي أعجز عن التشوّق إليها.

والصور السعيدة من الماضي والأمور التي كان ممكنًا أن تكون ولكنها لم تكن.

ورغبة المغامرة المُجهَضة.

والرعب من جهل ما سيحلّ بولديّ.

ثمّ تبدأ أفكاري بإبراز الأمور السلبيّة، الأمور ذاتها على الدوام، كما لو أنّها شيطان يراقب من إحدى زوايا الغرفة، متأهّبًا للانقضاض عليّ وإخباري بأنّ ما أدعوه «سعادة» هو مجرّد مرحلة عابرة، وأنّ لا شيء يدوم. أعلم هذا طبعًا.

أريد أن أتغيّر. أحتاج إلى أن أتغيّر. اليوم في العمل، توتّرت إلى حدّ التفاهة لمجرّد أن متدرّبًا استغرق عثوره على مواد طلبتها وقتًا أطول من المعتاد. لستُ كذلك في العادة، إنّني أنقطع عن نفسي تدريجًا.

من السخافة أن ألقي اللوم كله على ذاك الكاتب ومقابلته. حدث ذلك منذ أشهر عدّة. هو لم يقم سوى بفتح فوّهة بركان قد ينفجر في أيّ لحظة، حاصدًا الموت والدمار حوله. لو لم يفعل هو ذلك، لكان فعله فيلم أو كتاب أو شخص آخر صدف أن حدّثتُه. أظنّ أنّ بعض الناس ينفقون سنوات تتراكم فيها الضغوط داخلهم

حتّى من دون أن يلاحظوا ذلك، ثـمّ، ذات يوم، تُثير حادثة صغيرة أزمة.

ثـمّ يقولون: «لقد اكتفيت، لـم أعد أريد هذا بعد اليوم».

ينتحر بعض الناس. ويقدم بعضهم على الطلاق. ويرتـحل بعضهم الآخر إلى أماكن فقيرة في أفريقيا لإنقاذ العالم.

لكنّني أعرف نفسي. أعرف أنّ ردّ فعلي الوحيد سيكون لـجم مشاعري إلى أن يبدأ مرض السرطان بأكل أحشائي، لأنّني أؤمن فعلاً بأنّ كثيرًا من الأمراض ناتجة من الانفعالات المكبوتة.

أستفيق عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأظلّ متمدّدة أحدّق إلى السقف - وهو أمر طالما كرهته - مع أنّني أعلم أن عليّ النهوض باكرًا للذهاب إلى العمل. وبدل أن يخطر لي سؤالٌ مثمر مثل «ما الذي يحدث لي؟»، أدع أفكاري تتلولب. أتساءل منذ أيام - لكنها قليلة والحمد لله - إن كان عليّ رؤية طبيب نفسي وطلب المساعدة منه. لا عملي ولا زوجي يحولان دون ذلك، بل ولداي. لن يستوعبا على الإطلاق ما أشعر به.

كلّ شيء يشتدّ. أفكّر في إحدى الزيجات، في زواجي، الذي يخلو من الغيرة. لكنّنا نحن النساء نملك حاسّة سادسة. لعلّ زوجي على علاقة بامرأة أخرى وأنا أردّ على ذلك ردًّا لا واعياً. ومع ذلك، لا سبب على الإطلاق يدعوني للشكّ فيه.

أليسَ هذا بسُخف؟ أيُعقل أن أكون قد تزوّجت الرجل المثالي الوحيد على الإطلاق بين كلّ رجال العالم؟ هو لا يشرب الكحول ولا يخرج ليلاً، ولا يقضي يومًا كاملاً أبدًا مع أصدقائه. أسرته هي كلّ حياته.

سيكون حلمًا ما لم يكن كابوسًا. لأنّ عليّ أن أقابله بالمثل.

ثمّ أدرك أنّ مفردات مثل «تفاؤل» و«أمل» تظهر في كلّ تلك الكتب حول المساعدة الذاتيّة التي تدّعي أنّ بوسعها أن تمدّنا بمزيدٍ من الثقة وبقدرةٍ أفضل على التعامل مع الحياة، ما هي إلّا

مفردات. والعاقلون الذين يتلفّظون بها هم على الأرجح يبحثون عن معنىً لحياتهم ويستخدموننا فئران تجارب لنرى كيف سنستجيب للمنبِّه.

في الواقع، تَعِبتُ من حياتي السعيدة المثاليّة هذه. ولا يُعقل أن يكون ذلك إلاّ دليلًا على مرض عقلي.

هذه هي الأفكار التي أغفو عليها. على الأرجح أنّني أعاني مشكلة حقيقيّة فعلاً.

أتناول الغداء مع صديقة.

تقترح أن نلتقي في مطعم ياباني لم أسمع به من قبل، وهذا غريب لأنني أعشق الطعام الياباني. تؤكّد لي أنّه مكان ممتاز، لكنّه بعيد إلى حدّ ما عن مكان عملي.

يستغرق وصولي إليه دهرًا. أُضطرُ إلى ركوب حافلتين وسؤال أحدهم عن السبيل إلى صالة الفنون، موقع هذا المطعم «الممتاز» على ما يُفترض. أفكّر في أنّه شنيع - بديكوره ومفارش موائده الورقيّة، وغياب أي مشهد يطل عليه. لكنّها محقّة. فهو يقدّم أفضل الوجبات التي تناولتها في جنيف .

تقول لي: «درجتُ على تناول الطعام في المطعم ذاته. لا بأس به، لكن لا شيء مميّز فيه. ثمّ اقترح عليّ صديقٌ لي يعمل في القنصليّة اليابانيّة أن أجرّب هذا المطعم. في البداية، خلتُ أنّه مريع جدًا، كما خلتِ على الأرجح. لكنّ مالكي المطعم يديرونه بأنفسهم، وهذا ما يُشكّل كلّ الفرق».

يخطر لي أنّني أرتاد المطاعم ذاتها على الدوام وأطلب الأطباق ذاتها، حتّى أنّني لا أخاطر على الإطلاق في هذا الشأن.

تتناول صديقتي دواءً مضادًا للاكتئاب. وهذا آخر ما أوّد الحديث فيه لأنّني توصّلت إلى الاستنتاج بأنّني على بُعد خطوة من الانزلاق نحو الاكتئاب ولا أريد أن أتقبّله.

ولأنّه، تحديدًا، آخر ما أريد التحدّث فيه، يكون أوّل موضوع أتناوله.

أسألها عن حالها.

تقول: «أفضل كثيرًا، مع أنّ الدواء يستغرق بعض الوقت حتى يسري مفعوله. لكن ما إن يحدث هذا، حتى تستعيدي اهتمامك بالحياة، وتستعيد الأمور لونها ونكهتها».

بعبارة أخرى، باتت المعاناة مصدر دخل جديد لقطاع صناعة الأدوية. هل أنتَ حزين؟ خذ إذًا حبّة دواء وتكون المشكلة قد حُلّت.

أسأل، بأشدّ الحذر، إذا كانت ترغب في الإسهام في مقالة رئيسة للصحيفة موضوعها الاكتئاب.

«لا هدف من ذلك. اليوم، يتشارك الناس في مشاعرهم عبر الإنترنت».

فِيمَ يتناقشون؟

«التأثيرات الجانبيّة لمختلف الأدوية. لا أحد يبالي بالأعراض التي تصيب سواه لأنّ الأعراض مُعدِية، تبدأين بالشعور بأمور لم تشعري بها من قبل».

أهذا كلّ ما في الأمر؟

«لا، ثمّة تمارين تأمّل أيضًا، لكنني أعتقد أنّها غير مُجدية. لم أبدأ بالتحسُّن إلا حين تقبّلتُ وجود مشكلة لديّ».

لكن ألا تُساعدكِ معرفة أنّكِ لست وحيدة؟ أوَلن يُفيد التحدّث عن آثار الاكتئاب أشخاصًا آخرين أيضًا؟

«لا، مطلقًا. إن كنتِ قد طلعتِ من الجحيم للتو، فلن تؤدّي معرفة ما تكون عليه الحياة الآن في الأسفل».

لـمَ تحمّلت حالتك كل هذه السنوات؟

«لأنّني لـم أخل نفسي مصابة بالاكتئاب. ولأنّني متى تكلّمت في الموضوع معك أو مع أصدقاء آخرين، كان الكلّ يقول إنّها ترّهات، وإن الأشخاص الذين لديهم مشكلات حقيقيّة، لا وقت لديهم للشعور بالاكتئاب».

صحيح، هذا بالضبط ما قلته.

أُصرّ: ألَن تُفيد مقالة أو مدوّنة الناس في التعامل مع المرض تعاملًا أفضل وطلب المساعدة؟ طبعًا أنا لستُ مكتئبة شخصيًا، ولا أدري ما هو هذا الشعور. ماذا لو أخبرتني القليل عنه؟

تتردّد صديقتي، ربما لشكّها في دوافعي.

«كأنّك عالقة في شِرك. تعلمين أنّك عالقة، لكنّك تعجزين عن الهروب...».

هذا بالضبط ما شعرتُ به منذ أيّام قليلة.

تشرع في تعداد سلسلة كاملة من الأمور التي تبدو مشتركة بين من زاروا ما تدعوه «الجحيم»: الرغبة في ملازمة الفراش. الشعور بأنّ أبسط المهمّات يستوجب جهد الجبابرة. استيلاء الذنب عليكِ لأنّ لا سبب يدعوكِ للشعور بما تشعرين به، في حين أنّ العالم مليء بكثيرين يُقاسون فعلًا.

أحاول التركيز في الطعام الممتاز، لكنّ نكهته كانت قد بدأت تذوي. تتابع صديقتي:

«الفتور. ادّعاء السعادة، ادّعاء الحزن، ادّعاء النشوة الجنسيّة، ادّعاء التسلية، ادّعاء النوم بهناء، ادّعاء أنّكِ حيّة. إلى أن تحلّ لحظة تصلين فيها إلى خطّ أحمر وهميّ وتُدركين أنّكِ إذا تخطّيته، سيستحيل عليك الرجوع. ثمّ تكفّين عن التذمّر، لأنّ التذمّر يعني أنّك لا تزالين في خضّم معركة ما. تتقبّلين حالة التعطّل، محاولةً إخفاءها عن الجميع. وهذا عمل شاقّ».

وما الذي سبّب اكتئابك؟

«لا شيء محدّد. لكن لم كلّ هذه الأسئلة؟ أتشعرين بالاكتئاب أيضًا؟».

بالطبع لا!

الأفضل تغيير الموضوع.

نتحدّث عن السياسي الذي سأقابله في غضون أيّام قليلة. إنّه حبيب سابق لي من زمن الدراسة الثانويّة، لا يتذكّر على الأرجح حتّى أنّنا تبادلنا بضع قُبَل، وأنّه لامس نهديَّ.

تتحمّس صديقتي. وأحاول من جهتي أن أُصفّيَ ذهني من كلّ شيء، وأن تكون ردود فعلي آلية.

الفتور. لم أبلغ هذه المرحلة بعد. لا أزال في مرحلة التذمّر، لكنّني أتصوّر أنّني قريبًا - في غضون شهور أو أيام أو ساعات - سأكون عرضة لهمود تام يُطبق عليّ وسيكون من الصعب جدًا أن يزول.

أشعر كأنّ روحي تفارق جسدي ببطء وتتّجه إلى مكان مجهول، مكان «آمن» ما، حيث لن تضطرّ إلى تحمّلي وتحمّل رُعب لياليَّ؛ وكأنّني لست جالسة في مطعم ياباني بشع يقدّم طعامًا لذيذًا، بل

أعيش كلّ شيء وكأنّه مجرّد مشهد من فيلم أشاهده، ولا أريد، أن أوقفه - أو لا أقدر- على ذلك.

أستفيق وأؤدّي الطقوس المعهودة. أغسل أسناني، أرتدي ملابس تليق بالعمل، أتوجّه إلى غرفة نوم ولديّ لأوقظهما، أُعدّ الفطور للجميع، أبتسم، وأقول كم الحياة حلوة. في كلّ دقيقة وكلّ حركة، أشعر بثِقلٍ أعجز عن تحديده، كحيوان لا يستوعب تمامًا كيف علق في الشِرك.

لا نكهة لطعامي. غير أنّني أزيد من عرض ابتسامتي لئلا يشكّ بي أحد، وأبتلع رغبتي في البكاء. يبدو النور في الخارج رماديًا.

لم تُفدني محادثة الأمس البتّة، أبدأ بالظنّ أنّني خارجة من مرحلة الاستياء ومتوجّهة مباشرة إلى الفتور.

وهل من أحد ليلاحظ؟

بالطبع لا. في النهاية، أنا آخر شخص في العالم يُقر بأنه يحتاج إلى المساعدة.

هذه مشكلتي؛ انفجر البركان ويستحيل إعادة حممه إلى داخله، وزرع بعض الشجر، وجزّ العشب، وإطلاق الأغنام في المرج لترعى.

لا أستحقّ هذا. لطالما حاولت أن تأتي صورتي مطابقة لتوقعات الكل. لكن الآن حدث ما حدث ولا يسعني فعل شيء حياله باستثناء تناول الدواء. قد أختلق ذريعةً اليوم لكتابة مقالة عن علم النفس والتأمين الاجتماعي (تعشق الصحيفة هذا النوع من الأمور) وأجد

طبيبًا نفسيًا جيدًا لطلب المساعدة. أعرف أنّ هذا غير أخلاقي، لكن ليس كلّ شيء أخلاقيًا.

لا وسواس يشغل بالي - كاتّباع نظام غذائي لخفض الوزن أو إصابتي باختلال الوسواس القهري، فأجد عيبًا في عاملة التنظيف التي تصل إلى منزلي في الثامنة صباحًا وتغادر في الخامسة بعد الظهر، بعد أن تكون قد غسلت الملابس وكَوَتها، ورتّبت البيت ونظّفته، وابتاعت الحاجيّات أحيانًا. لا يسعني أنّ أنفّس عن إحباطاتي في محاولة أن أكون أمًّا خارقة، لأنّ ولديّ سيحقدان عليّ باقي أيّامهما.

أذهب إلى العمل، وأرى جاري من جديد يلمّع سيّارته. ألم يفعل هذا أمس؟

أسير نحوه وأسأله عن سبب فعله ذلك، عاجزةً عن مقاومة طرح السؤال.

«لم تكن مثالية تمامًا»، يقول ذلك لكن بعد أن يلقي عليّ تحية الصباح، ويسأل عن العائلة، ويلاحظ جمال الفستان الذي أرتديه.

أنظر إلى السيّارة. إنّها من طراز «أودي». وفي النهاية، تلقّب جنيف بـ «بلاد الأودي» بين الألقاب المنسوبة إليها. هي تبدو مثاليّة، لكنّه يشير إلى موضع أو اثنين حيث لا تبرق كما يجب.

أطيل الحديث ويُفضي بي الأمر إلى سؤاله عن رأيه في ما يبحث عنه الناس في الحياة.

«سهل جدًا. القدرة على تسديدهم الفواتير. شراء منزل شبيه بمنزلك أو منزلي. امتلاك حديقة ملأى بالشجر. وجود أولادك

أو أحفادك حولك يوم الأحد على الغداء. السفر حول العالم بعد التقاعد».

أهذا ما يريده الناس من الحياة؟ أهذا هو فعلاً؟ ثمّة خطب جَل في هذا العالم، وهو لا يقتصر فقط على الحروب الجارية في آسيا والشرق الأوسط.

قبل الذهاب إلى الصحيفة، عليّ مقابلة جاكوب، حبيبي السابق من المدرسة الثانويّة. حتّى هذا لا يُبهجني. أنا فعلاً أفقد اهتمامي في الأمور.

أستمع إلى حقائق حول سياسة الحكومة لم أُرد حتى أن أعرف عنها. أطرح بضعة أسئلة حرجة، ويتملّص منها بلباقة. هو يصغرني بسنة، لكنّه يبدو بمظهر من يكبرني بخمس سنوات. أحتفظ بهذه الفكرة لنفسي.

أمر جيّد بالطبع أن أراه من جديد، مع أنّه لم يسألني بعد عمّا حلّ بحياتي منذ أن سلك كلّ منّا دربه بعد التخرّج. هو يصب اهتمامه كله على نفسه، ومسيرته المهنيّة، ومستقبله، فيما أجد نفسي أغوص ببلاهة في الماضي، كما لو أنّني لم أزل تلك المراهقة التي، على الرغم من جهاز التقويم على أسنانها، كانت موضع حسد الفتيات الأخريات كلّهن. بعد قليل، أكفّ عن الإصغاء وأدير في نفسي نظام التشغيل الآلي. النصّ ذاته على الدوام، الوعود ذاتها: خفض الضرائب، مكافحة الجرائم، طرد الفرنسيين (هم العمّال المزعومون خارج الحدود الذين يشغلون وظائف لا يمكن لعمّال سويسريين شغلها). سنة تلو سنة، تظلّ المسائل هي على حالها، والمشكلات بلا حلول لأنّ أحدًا لا يهتمّ فعلاً.

بعد عشرين دقيقة على بدء المقابلة، أتساءل إن كان فقداني الاهتمام ناتجًا من حالتي العقليّة الغريبة. لا. فليس هناك أضجر من مقابلة السياسيين. كان من الأفضل لو أُرسِلت لنقل أحداث جريمة أو شيء آخر. جرائم القتل أكثر واقعيّة.

بالمقارنة مع ممثّلي الشعب في أيّ بقعة أخرى على الكوكب، يبدو ممثلونا أقلّهم إثارة للاهتمام وأكثرهم تفاهةً. لا أحد يريد معرفة ما يجري في حياتهم الشخصيّة. هناك أمران فقط يُثيران فضيحة هنا: الفساد والمخدّرات. يتضخّمان ويستحوذان على نقل شامل لأنّ الصحف تخلو تمامًا من أيّ أمر آخر مهمّ.

هل يبالي أحد إن كانت لهم عشيقات، أو يذهبون إلى بيوت الدعارة أو يشهرون ميولهم الجنسيّة المثليّة؟ لا. يواصلون فعل ما انُتخبوا لفعله، وما داموا لا يُفرغون الخزينة القوميّة، نحيا جميعًا بسلام.

يتغيّر رئيس البلاد كلّ عام (نعم كلّ عام) ويختاره المجلس الاتحادي، وليس الشعب، وهو هيئة تتألّف من سبعة وزراء يعملون مجتمعين بوصفهم رئيس دولة سويسرا. كلّ مرّة أمرّ فيها بجانب المتحف، أرى ملصقات لا تُحصى تدعو إلى مزيد من الاستفتاءات الشعبيّة.

يحبّ السويسريّون اتّخاذ القرارات بشأن: لون أكياس النفايات (يتصدّر الأسود اللائحة)، الحقّ (أو عدمه) في حيازة الأسلحة (تمتلك سويسرا أحد أعلى المعدّلات بين بلدان العالم في حيازة الأفراد السلاح)، عدد المآذن التي يمكن تشييدها في البلد (أربع)، وتوفير اللجوء (أو عدمه) للمهاجرين (لم أتابع هذا الموضوع، لكنّني أتصوّر أنّ القانون حظي بالموافقة وأصبح نافذًا).

«المعذرة، سيّدي».

سبق أن تمّت مقاطعتنا مرّة. يطلب بلباقة إلى مساعده تأجيل موعده التالي. صحيفتي من أهمّ الصحف السويسريّة الناطقة

بالفرنسيّة وقد تكون هذه المقابلة حاسمة في مسار الانتخابات المقبلة.

يدّعي إقناعي وأدّعي تصديقه.

ثمّ أنهض، أشكره، وأقول إنّني حصلتُ على كامل ما أردته من المادة.

«ألا تريدين شيئًا آخر؟».

بالطبع أريد، لكن لستُ أنا من عليه البوح به.

«ما رأيك في أن نتقابل بعد دوام العمل؟».

أشرح أنّ عليّ اصطحاب ولديّ من المدرسة، آملةً أن يلاحظ خاتم الزواج الضخم في إصبعي، وأقول: «اسمع، الماضي ولّى».

«بالطبع. حسنٌ إذًا، قد نتناول الغداء معًا ذات يوم».

أوافق. وأفكّر بعد أن خاب ظنّي بسهولة: من يدري، ربما كان لديه شيء مهمّ يخبرني به، سرّ ما عن الدولة سيغيّر مجرى السياسة في هذا البلد، ويجعل رئيس تحرير الصحيفة ينظر إليّ بعينٍ جديدة.

يتوجّه نحو الباب، يقفله، ثمّ يرجع، ويباغتني بقبلة. أعامله بالمثل! مضى زمنٌ طويلٌ على آخر قُبلة. جاكوب، الذي قد أكون أحببته ذات يوم، هو الآن يعيش علاقة عاطفية، إثر زواجه من أستاذة جامعيّة. وأنا ربّة أسرة، متزوجة من رجل مُجدٌ في العمل إلى أقصى حدّ مع أنّه وَرِثَ ثروته.

أفكّر في دفعه عنّي والقول إنّنا لم نعد صغارًا، لكنّني أستمتع بالقبلة. لم أكتشف مطعمًا يابانيًا جديدًا فحسب، بل إنّني أحظى ببعض المتعة المحرّمة كذلك. تمكّنتُ من خرق القواعد ولم يتداعَ العالم عليّ. لم أشعر بمثل هذه السعادة منذ زمن طويل.

أشعر بأنّني في حالٍ أفضل وأفضل، وأكثر شجاعة وتحرّرًا. ثمّ أفعل أمرًا حلمت به منذ أيّام المدرسة.

أركع، أفكّ سحّاب بنطلونه، وأُطوّقُ قضيبه بفمي. يشدّ شعري ويتحكّم بإيقاع رأسي. ينتشي في أقلّ من دقيقة.

«كم كان ذلك حلوًا!».

لا أتفوّه بكلمة. في الحقيقة، استمتعتُ به أكثر، لأنّه بلغ النشوة بسرعة شديدة.

يعقب الخطيئةَ الخوفُ، خوف المرء من أن يُضبط.

في طريقي إلى المكتب، أبتاع فرشاة أسنان ومعجونًا ما. كلّ نصف ساعة أو نحوها، أذهب إلى الحمّام لأتفقّد إن كان ثمّة شيء على وجهي وقميصي من ماركة فيرساتشي المشبكة التطريز، ما يجعلها مثاليّة لإخفاء البقع. أُسارق زملائي النظر. لم يلاحظ أحد شيئًا (أو على الأقل لم تلاحظ أي من النسوة، اللواتي يملكن رادارًا لأمور مماثلة).

لمَ حدث ذلك؟ كما لو أنّ امرأة أخرى سكنتني ودفعتني إلى وضع ميكانيكي بحت وخالٍ من الإباحيّة. هل أردتُ أن أُظهر لجاكوب أنّني مستقلّة، حرّة، أنّني سيّدة نفسي؟ هل فعلتُ ما فعلت للتأثير فيه أو في محاولةٍ للهروب ممّا أسمته صديقتي «الجحيم»؟

سيستمرّ كلّ شيء كما كان. لستُ عند أيّ مفترق طرق. أعرف وُجهتي وآمل، مع مرور السنوات، أن أتمكّن من تغيير أساليب عائلتي لئلا يُفضي بنا الأمر إلى الظنّ بأنّ غسل السيّارة أمرٌ مميّز. تحدث التغيُّرات الكبيرة الحقيقيّة على مرّ الزمن، والوقت أمرٌ لديّ متسع منه.

على الأقل آمل ذلك.

عندما أصل إلى المنزل، أحاول ألا أبدو سعيدة ولا حزينة. يلاحظ ولداي ذلك من فورهما.

«ماما أنتِ تتصرّفين بغرابة اليوم».

أرغب في القول: نعم، فعلتُ أمرًا لم يجدر بي فعله، ومع ذلك لا يراودني أدنى شعور بالذنب، أشعر بالخوف من افتضاح أمري ليس إلا.

يصل زوجي إلى المنزل، وكالعادة، يقبّلني، يسألني كيف كان يومي، وماذا أعددتُ للعشاء. أجيبه الإجابات المعهودة. إذا لم يلاحظ أيّ أمرٍ مختلفٍ في نمط حياتنا المعهود، فلن يشكّ في أنني اليوم لعقتُ قضيب سياسيّ.

ولا بُدّ من الاعتراف بأنّ ذلك لم يمنحني أيّ لذّة جسديّة. لكنّني الآن أتوقّد رغبةً، أحتاج إلى رجل، أحتاج إلى التقبيل، أحتاج إلى الشعور بالألم واللذّة من وجود جسدٍ فوقي.

عندما نخلد إلى الفراش، أدرك بأنّني مثارة جدًّا جدًّا. أتحرّق إلى ممارسة الحب مع زوجي، لكن عليّ أن أهدأ، إذا أبديتُ تلهُّفي، فسيشكّ في أنّ ثمّة خطبًا.

بعد أن أستحم، أستلقي إلى جانبه، أسحب من يديه لوحه الرقمي الذي يقرأ فيه، وأضعه على الطاولة إلى جانب السرير. أداعب صدره ويهتاج على الفور. نمارس الحب كما لم نفعل منذ دهر. كلّما أتأوّه بصوتٍ عالٍ قليلاً، يطلب إليّ أن أخفّف ضجيجي لئلا يستيقظ الولدان، لكنّني أقول له إنّني لا أريد ذلك، إنّني أريد التعبير عن مشاعري بحرّية.

أنتشي مرّات عدّة. الله كم أحبّ هذا الرجل! نتصبّب عرقًا ونُرهَق، لذا أقرّر أن أستحم مرة أخرى. يدخل معي ويُدير المرشّة نحو بظري مُداعبًا. أطلب إليه أن يتوقّف، قائلةً إنّني منهكة، وإن علينا أن ننام، وإنّه سيستثيرني من جديد.

أقترح، وكلّ يجفّف واحدنا الآخر، أن نرتاد ناديًا ليليًا، وهي محاولة أخرى منّي لتغيير نمط حياتي المعهود بأيّ ثمن. أعتقد أنّه، عندئذٍ، بالذات شكّ في أن شيئًا ما تغيّر.

«غدًا؟».

لا يُمكنني في الغد، لديّ حصّة يوغا.

«بما أنّك فتحت الموضوع، هل لي أن أطرح سؤالاً صريحًا؟».

يتوقّف قلبي.

يتابع: «لِمَ ترتادين حصص اليوغا بالذات؟ فأنتِ إنسانة هادئة، متّزنة، وامرأة تعرف مرادها. أليس في ذلك هدرٌ لوقتك؟».

يعاود قلبي الخفقان. لا أجيب. أبتسم ببساطة وأداعب وجهه.

أتهالك على فراشي، أغمض عينيّ، وقبل أن أغفو، أفكّر: لا بُدّ من أنّني أعاني الأزمة التي تعقب مرور عشر سنوات على الزواج. ستمرّ.

لا يحتاج أيّ إنسان إلى الشعور بالسعادة كلّ الوقت. ولا يُمكن لأحدٍ أن يَسعَد كلّ الوقت. عليّ أن أتعلّم كيف أتعامل مع واقعية الحياة.

أيّها الاكتئاب العزيز، أرجوك ابقَ بعيدًا عنّي. لا تكن بغيضًا.

جِد شخصًا آخر سواي لديه من الأسباب أكثر مما لدي لينظر في المرآة ويقول: «يا لَوجودي العقيم». أحَلا الأمر لك أم لم يحْلُ، فأنا أعرف كيف أهزمك. أنت تهدر وقتك.

أقضي وقت غدائي مع جاكوب كونيش كما أتصوّره تمامًا. نلتقي في «لا پيرل دو لاك»، وهو مطعم مُكلِف عند ضفّة البحيرة، كان في الماضي من النوع الجيّد لكنه الآن أصبح ملك المدينة. لا يزال مكلِفًا، لكنّ الطعام كريه. كان باستطاعتي أن أفاجئه وأصطحبه إلى المطعم الياباني، لكنّني أعرف أنّه سيظّن أنّ ذوقي سيئ. في نظر بعض الناس، الديكور أهمّ من الطعام.

الآن، أعرف أنّني اتّخذتُ القرار الصحيح. يحاول أن يظهر أمامي بمظهر الضليع في شؤون النبيذ، يتحدّث عن «الشذى»، و«القِوام» و«الدموع»، وهي القطرات الزيتيّة التي تنساب طوليًا من حواف الكأس. في الحقيقة، هو يقصد القول إنّه نضج ولم يعد طالبًا؛ إنّه تعلّمَ آداب السلوك وارتفع مقامه بين الناس؛ إنّه ملمّ بشؤون الحياة، والنبيذ، والساسة، والنسوة، والحبيبات السابقات.

يا لها من ترّهات! نحن نحتسي النبيذ منذ وُلدنا. ولا يسعنا أن نميّز بين نبيذ فاخر وآخر سيّئ، نقطة على السطر.

إلى أن التقيتُ زوجي، كلّ الرجال الذين واعدتهم - رجال اعتبروا أنفسهم «مثقّفين» - تصرّفوا كما لو أنّ خيارهم من النبيذ في مطعم هو خيار مصيري. فعلوا كلّهم الأمر نفسه: اشتمّوا السِدادة بوقار عظيم، قرأوا ما كُتب على الزجاجة، سمحوا للنادل بسكب القليل

في الكأس، أمالوه إلى جانب، فجانب آخر، رفعوه نحو النور، اشتمّوا النبيذ، دوّروه داخل أفواهم، ابتلعوه، وأخيرًا، أومأوا بموافقتهم عليه.

بعد أن تكرر المشهد ذاته أمامي مرّات لا تُحصى، أقرّر أن أغيّر مجموعة أصدقائي وأنضمّ إلى الطلاب الأفذاذ في الجامعة، والمنبوذين اجتماعيًا. بخلاف متذوّقي النبيذ المصطنعين المكشوفين، كان الأفذاذ على الأقلّ واقعيّين ولم يحاولوا التأثير بي. كانوا يمزحون في أمور لم أستوعبها. ظنّوا مثلاً أنّه لا يُعقل ألاّ أعرف ماركة «إنتل»، لأنّها «مكتوبة على كلّ حاسوب». وبالطبع، لم ألاحظ ذلك قط.

جعلني الأفذاذ أشعر كأنّني بلغتُ قمّة الجهل، وفاق اهتمامهم بالقرصنة على الإنترنت اهتمامهم بنهديَّ أو ساقيَّ. عندما بلغت سنًّا أكبر، عُدت إلى الكنف الآمن لمتذوّقي النبيذ، إلى أن وجدتُ رجلاً لم يحاول التأثير بي بحذلقته، أو يجعلني أبدو مخبولة تمامًا وهو يتحدث عن كواكب غامضة أو مخلوقات الهوبيت أو برامج الحاسوب التي تمحو كلّ أثر للمواقع التي زرتها. بعد عدّة شهور على التلاقي، التي اكتشفنا في خلالها مئة وعشرين قرية على الأقلّ حول بحيرة «ليمان»، تقدّم لزواجي.

قبلتُ بلا تردّد.

أسأل جاكوب إن كان يعرف أيّ نوادٍ ليليّة، لأنّني لم أكن أواكب حياة جنيف الليليّة («حياة ليليّة» مجرّد عبارة في قاموسي)، ولأنّني قرّرتُ الخروج للرقص واحتساء المشروب. تبرق عيناه.

«لا وقت لديّ لذلك. شكرًا على الدعوة، لكن، تعلمين إنني، فضلًا

عن كوني متزوّجًا، لا أستطيع أن أظهر في العلن مع صحافيّة. سيقول الناس إنّ مقالاتنا...».

«منحازة».

«نعم، منحازة».

أقرّر أن أتقدّم بلعبة الإغواء هذه خطوة- هي لعبة طالما أمتعتني. ماذا لديّ لأخسره؟ أعرف الطرائق كلّها، والانحرافات، والأشراك، والأهداف.

أطلب إليه أن يخبرني مزيدًا عن حياته الشخصيّة. أقول إنّني لا أسأل بوصفي صحافيّة، بل بوصفي امرأة وحبيبة سابقة.

أشدّد على كلمة «امرأة».

يقول: «لا حياة شخصيّة لديّ. لا يسعني ذلك لسوء الحظ. اخترتُ مسيرة مهنيّة حوّلتني إلى رجل آلي. كلّ ما أقوله يخضع للتمحيص والتشكيك والنشر».

هذا غير صحيح إلى حدّ ما، لكنني ألقي سلاحي أمام صِدْقِه. أعلم أنّه يتلمّس الأرض تحته، أنّه يريد أن يعلم أين يضع قدمه بالتحديد، والمدى الأبعد الذي يسعه بلوغه. يوحي بأنّ «زواجه تعيس»، ويمضي في شروح مستفيضة عن مدى نفوذه، تمامًا كما يفعل سائر الرجال في سنّ معيّنة متى بدأوا احتساء المشروب.

«في السنتين الأخيرتين، عرفتُ شهورًا من السعادة، والقليل من الصِعاب، لكنّ معظمها متعلّق بالصمود ومحاولة إرضاء الكلّ بهدف أن يُعاد انتخابي. اضطررتُ إلى التخلّي عن كلّ ما كنتُ أستمتع به - مثل الخروج للرقص برفقتك، مثلاً. أو الاستماع إلى الموسيقا ساعات، التدخين، أو القيام بأيّ شيء يراه الآخرون خطأ».

هذا سخف! لا أحد يبالي بحياته الشخصيّة.

«لعلّها عودة كوكب زُحَل. كلّ تسع وعشرين سنة يعود الكوكب إلى النقطة نفسها في السماء التي شغلها لحظة ولادتنا».

عودة زُحَل؟

يعي أنّه قال أكثر ممّا عليه قوله، ويرتئي أن من الأفضل لو نرجع إلى العمل.

لا، فعودة زُحَلي سبق أن حدثت. يجب أن أعرف تمامًا معناها. يُعطيني درسًا في علم الفلك: تستغرق عودة زُحل إلى النقطة في السماء حيثُ كان لحظة ولادتنا تسعًا وعشرين سنة. وإلى أن يحدث ذلك، يبدو كلّ شيء ممكنًا: تحقيق أحلامنا، وهدم كلّ جدار يطوّقنا. عندما يُكمل زُحَل هذه الدورة، يضع حدًّا للإبداع الرومنسي. تمسي الخيارات نهائيّة ويصير من المستحيل تقريبًا تغيير الوجهة.

«لستُ خبيرًا بالطبع، لكنّ فرصتي التالية لن تحلّ قبل بلوغي الثامنة والخمسين من العمر لدى عودة زُحَل مجدّدًا. مع ذلك، إن كان زُحَل يُخبرني بأنني لم أعد قادرًا على اختيار طريق أخرى، فلمَ، إذًا، دعوتني إلى الغداء؟».

مرّت ساعة تقريبًا على بدء حديثنا.

يسأل فجأة: «هل أنتِ سعيدة؟».

ماذا؟

«في عينيك شيء، حزنٌ أجده غير مبرّر لدى امرأة بجمالك، لديها زوج رائع ووظيفة جيّدة. وكأنّني أرى انعاكسًا لعينيّ أنا. سأسألك مجدّدًا: هل أنتِ سعيدة؟».

في هذا البلد، حيثُ وُلدت ونشأت، وحيث أربّي ولديّ الآن، لا أحد يطرح هذا النوع من الأسئلة. ليست السعادة أمرًا قابلًا للقياس الدقيق، ولا هي تُناقش في استفتاءات، أو يحلّلها مختصّون. إنّنا لا نسأل حتّى عن نوع السيارة التي يقودها المرء، فكيف إذًا تسأل عن أمر شخصي جدًا ويستحيل تعريفه.

«لا داعي للإجابة. ينطق صمتك بكلّ شيء».

لا، لا ينطق صمتي بكلّ شيء. هو ليس إجابةً. هو فقط يعبّر عن دهشتي وارتباكي.

يقول: «لستُ سعيدًا. أملك كلّ ما يمكن لإنسان أن يحلم به، لكنّني لستُ سعيدًا».

هل دسّ أحدٌ ما شيئًا في الماء؟ أيحاولون تدمير بلدي بسلاح كيميائي مخصّص لتوليد حسّ من الإحباط العميق؟ لمَ كلّ من أُحدّثه يعتريه الشعور نفسه؟

حتّى الآن، لم أقل شيئًا. غير أنّ للأرواح المعذّبة تلك القدرة غير المعقولة على التعرُّف والتقارب والمشاركة في أحزانها بالتالي.

لماذا لم ألاحظ ذلك فيه؟ لمَ لاحظتُ فقط طريقته السطحيّة في الحديث عن السياسة أو طريقته المتحذلقة في تذوّق النبيذ؟

عودة زُحل. التعارض. التعاسة. أمور لم أتوقّع يومًا سماع جاكوب كونيش يقولها.

إنّها الثانية إلاّ خمس دقائق بعد الظهر بحسب ساعة يدي. في تلك اللحظة بالذات أُغرم به من جديد. لا أحد، ولا حتّى زوجي الرائع، سبق أن سألني إن كنت سعيدة. على الأرجح طرح والداي وجدّاي عليّ ذاك السؤال في طفولتي، لكن لم يسألني أحد مذّاك.

«هل نلتقي مجدّدًا؟».

لم أعد أرى أمامي حبيبًا سابقًا من أيّام مراهقتي، أرى هاوية أمشي نحوها بجذل، هاوية لا أرغب في الهروب منها. تلمع في ذهني فكرة أنّ ليالي سُهدي التي يشقّ عليّ تحمّلها توشك أن تشتدّ ثقلاً بما أنّني الآن أعاني مشكلة أن قلبي مغرم.

تومض الأضواء الحمراء في ذهني.

أقول لنفسي: أنتِ حمقاء، مراده الوحيد أن يستدرجك إلى الفراش. هو لا يكترث لسعادتك.

ثمّ، في خطوة انتحاريّة تقريبًا، أقول نعم. لعلّ مضاجعة شخص لامس نهديّ فقط عندما كنّا مراهقَين سينفع زواجي، كما حدث أمس عندما لعقت عضو حبيبي السابق صباحًا وانتشيتُ مرّات عدّة مع زوجي ليلاً.

أحاول العودة إلى موضوع زُحل، لكنّه كان قد طلب الفاتورة، وهو يتحدّث على جوّاله قائلاً إنّه سيتأخّر خمس دقائق.

يقول: «اسأليهم إن كانوا يرغبون في شرب كوبٍ من الماء أو ارتشاف القهوة».

أسأل مَن يُحدّث، ويقول إنّها زوجته. يودّ مدير شركة أدوية كبيرة الاجتماع به ويُحتمل أنّه سيوظّف مالاً في المرحلة النهائيّة من حملته في انتخابات المجلس الاتحادي. والانتخابات تقترب بسرعة.

مجدّدًا، أتذكّر أنّه متزوّج. أنّه تعس، أنّه يعجز عن فعل كلّ ما يستمتع به، أنّ ثمّة شائعات حوله وحول زوجته بأنّ زواجهما زواج منفتح. عليّ أن أنسى الشرارة التي دوّختني عند الثانية إلا خمس دقائق بعد الظهر، وأعي أنّ كلّ مراده هو استغلالي.

لا يُزعجني ذلك، ما دامتّ الأمور واضحة. أنا أيضًا أحتاج إلى من يطارحني الفراش.

نتوقّف على الرصيف خارج المطعم. ينظر من حوله كما لو أنّنا نشكّل ثنائيًا يثير أكبر الشُبهات. ثمّ، عندما يتأكّد أنّ أحدًا لا ينظر، يُشعل سيجارة.

إذًا هذا ما خاف أن يراه الناس: السيجارة.

يقول: «لا أحسبُكِ نسيتِ أنّهم كانوا يرون لي مستقبلًا واعدًا أكثر من أي طالبٍ في صفّنا. وبالطبع، كان عليّ أن أثبت أنّهم على حقّ، آخذًا في الاعتبار حاجتي إلى المحبّة والرضى. ضحّيت بليالٍ ساهرة مع أصدقائي لأكرّسها للدراسة ولأكون عند حسن ظن الآخرين بي. وأنهيتُ الدراسة الثانوية بتحصيل لامع. على فكرة، لمَ توقّفنا عن التلاقي؟».

لا فكرة لديّ أنا أيضًا. أعتقد أن الكل حينذاك كانوا مشغولين ببساطة بمصاحبة الكلّ، ولم يبق أحدٌ مع أحدٍ طويلًا.

«تخرّجتُ في الجامعة، وأصبحت محامي دفاع، وصرفتُ حياتي بين المحتالين والأبرياء تمامًا، بين الأنذال والصادقين تمامًا. ما بدأ وظيفة مؤقّتة تحوّل إلى قرار دائم: الحاجة إلى المساعدة. كبرت لائحة زبائني وكبرت. وذاع صيتي في المدينة. أصرّ والدي أنّ الوقت قد حان للتخلّي عن كلّ شيء والالتحاق بالعمل في حقل المحاماة لدى أحد أصدقائه، لكنّني كنت شديد الحماس عند ربح كل قضية جديدة. ثمّ وقعتُ على قانون قديم جدًا لا معنى له اليوم على الإطلاق. احتجنا إلى تغييرات كبيرة في الطريقة التي كانت تدار بها المدينة».

كلّ ذلك مذكور في سيرته الذاتيّة الرسميّة، لكنّ سماعه من شفتيه يبدو مختلفًا تمامًا.

«في لحظة من اللحظات، قرّرتُ الترشّح لمنصب نائب. بدأنا حملة وقد أعوزنا المال، لأنّ والدي كان معارضًا للأمر بشكل قاطع. غير أنّ زبائني عملوا جميعًا لمصلحتي. انتخبتني أكثرية ضئيلة، ومع ذلك، انتُخبت».

ينظر من حوله مجدّدًا، بعد أن خبّأ السيجارة خلف ظهره. لكن بما أنّ أحدًا لا ينظر، سحب نفسًا طويلاً آخر. في عينيه نظرة خاوية كما لو أنّه يحدّق إلى الماضي.

«عندما باشرت العمل في السياسة، كنت أنام نحو خمس ساعات فقط ليلاً، مع ذلك، كنت مفعمًا بالطاقة دومًا. الآن، يمكنني أن أنام بسهولة ثماني ساعات متواصلة. انتهى شهر العسل. كلّ ما بقي هو حاجتي إلى إرضاء الآخرين، خاصّة زوجتي التي ناضلت بكلّ ما أوتيت لكيّ يكون لي مستقبل باهر. ضحّت ماريان كثيرًا ولا يُمكنني أن أخذلها».

أهذا هو الرجل نفسه الذي اقترح، منذ دقائق فقط، أن نتواعد من جديد؟ أم هذا ما يريده: إنسانة يُحدّثها وستفهمه لأنّها تشعر بمثل شعوره؟

لديّ موهبة في ابتكار الاستيهامات بسرعة فائقة. أتخيّل نفسي منذ الآن مستلقية على سريرٍ حريري الملاءات في شاليه بجبال الألب.

يسأل: «إذًا متى نلتقي مجدّدًا؟».

أقول إنّ الأمر رهن إشارته.

يقترح أن نلتقي غدًا. أقول له: ودرس اليوغا؟ يطلب إليّ أن أفوّتها. لكنّني أفوّتها دومًا وقد التزمتُ أن أكون أكثر انضباطًا.

يبدو جاكوب عازمًا. يُثنيني عن رأيي، لكن لا ينبغي أن أبدو متلهّفة كثيرًا أو أنني حاضرةٌ دومًا.

تستعيد الحياة المتعة، ويحلّ الخوف محلّ فتوري السابق. ما أروع أن يخاف المرء تفويت فرصة!

أقول له إنّ ذلك غير ممكن ويُفضَّل أن نؤجّله إلى يوم الجمعة. يقبل، يهاتف مساعده، ويطلب إليه تدوين ذلك في المفكّرة. يُنهي تدخين سيجارته ويودّعني. لا أسأله لمَ أخبرني كل هذه الأخبار عن حياته الخاصّة، من دون أن يُضيف ما يُذكر إلى ما سبق أن قاله في المطعم.

أودّ التصديق أنّ شيئًا ما قد تغيّر في خلال ذاك الغداء، غداء واحد فقط من بين مئات آكل فيها طعامًا غير صحّي تمامًا وأدّعي احتساء النبيذ الذي يبقى على الكمّية نفسها تقريبًا مع حلول وقت طلب القهوة. لا يسع المرء إلقاء سلاحه أبدًا، على الرغم من كلّ تلك الضجّة حول تذوّق النبيذ.

إنّها الحاجةُ إلى إرضاء الجميع: عودة زُحَل.

ليست الصحافة مدهشة كما يظنّ الناس - هي لا تقوم كلّ الوقت على مقابلة مشاهير، وتلقّي الدعوات إلى أماكن أخّاذة، والدنو من النفوذ، والمال، وعالم الجرائم المذهل.

الواقع أنّنا نصرف معظم الوقت في حُجيرات مكاتبنا نتحدّث على الهاتف. الخصوصيّة مقتصرة على المديرين، يجلسون في أحواضهم الزجاجيّة المجهّزة بستائر يُمكن غلقها أحيانًا. عندما يسدلونها، يظلّ بوسعهم معرفة ما يجري في الخارج، لكن نحن من يعجز عن رؤية شفاههم المزمومة تتحرّك.

أن يكون المرء صحافيًا في جنيف، بسكّانها المئة وخمسة وتسعين ألفًا، يعني أنه يشغّل أضجر الوظائف في العالم. أُلقي نظرة على عدد اليوم مع أنّني أعرف محتوياته - تقارير لا تنتهي عن اجتماعات شخصيّات رفيعة أجنبيّة في الأمم المتّحدة، الشكاوى المألوفة حول السرّية المصرفيّة، وأمور أخرى قليلة حظيت بشغل الصفحة الأولى: «بدينٌ إلى حدّ المرض يُمنع من ركوب الطائرة»، «ذئبٌ يلتهم أغنامًا عند ضواحي المدينة»، أحافير من قبل عهد كولومبوس تُكتشف في سان-جورج»، وأخيرًا في عنوانٍ عريض، «جنيف المرمّمة حديثًا تعود إلى البحيرة أجمل من أيّ وقتٍ مضى».

يستدعيني مديري إلى مكتبه ويسألني إن كنتُ قد تمكّنتُ

من الحصول على شيء حصري في غدائي مع ذاك السياسي. لا داعي للقول إنّ أحدًا ما رآنا معًا.

لا، لم أحصل عليه. لا شيء جديد يفوق ما في سيرته الذاتيّة الرسميّة. كان الهدف من الغداء تقريبي إلى مصدر (كلّما زادت مصادر الصحافي، عظم شأنه).

يقول مديري إنّ مصدرًا موثوقًا آخر، أبلغه أن جاكوب كونيش، على الرغم من أنه متزوج، فإنه على علاقة غراميّة بزوجة سياسي آخر. أُحسُّ بغُصّة في تلك الزاوية المظلمة من روحي التي يواظب الاكتئاب على طرق بابها وأرفض استقباله.

يسألني مديري إن كان بإمكاني التقرّب من السياسي أكثر. هم غير مهتمّين بحياته الجنسيّة تحديدًا، لكنّ مصدره يُلمح إلى أنّ كونيش يخضع للابتزاز على الأرجح. تريد شركة أجنبية تعمل في صناعة الفلزّات أن تموّه بعض المشكلات الضرائبيّة في بلادها، ولكن لا سبيل لها إلى وزير الماليّة. والشركة في حاجة إلى بعض العون.

يشرح مديري أنّ جاكوب كونيش ليس هدفنا؛ ما نريده هو ردع مَن يحاولون إفساد نظامنا السياسي.

«ولا يجدر بذلك أن يكون صعبًا. كلّ ما علينا فعله هو القول إنّنا إلى نقف في صفّه.

سويسرا من البلدان القليلة في العالم التي لا تزال كلمة الرجل فيها كلمة شرف. في معظم البقاع الأخرى، تحتاج إلى محامين، وشهود، ووثائق موقّعة، وتهديد باللجوء إلى القضاء إن سُرِّب السرّ.

«كلّ ما نريده هو توكيد وصور».

إذًا، سيكون عليّ أن أتقرّب منه.

«لا ينبغي أن يكون ذلك صعبًا أيضًا. تقول مصادرنا إنّك سبق وحدّدت لقاءً آخر معه. إنّه مدوّنٌ في مفكّرته».

وهذه أرض السرّية المصرفيّة! يعلم الجميع بكل شيء.

«استعملي التكتيكات المعهودة».

تقوم «التكتيكات المعهودة» على أربع نقاط: الأولى: أن نسأل عن شيء يودّ الشخص المعني بالمقابلة أن يُناقشه في العلن. الثانية: أن ندعه يسترسل في الكلام أطول ما يمكن لحمله على الاعتقاد أنّ الصحيفة ستخصّص له مساحة كبيرة في صفحاتها. الثالثة: عند انتهاء المقابلة، عندما يعتقد أنّه يُمسك برسننا بلطف، نطرح السؤال الوحيد الذي يهمّنا. بتلك الطريقة، سيشعر، إن لم يُجب، بأنّنا لن نخصّص له المساحة التي يأمل الحصول عليها وبأنّه سيكون قد هدر وقته. الرابعة: إذا أجاب مراوغًا، نُعيد صياغة السؤال ونطرحه من جديد. سيقول إنّ الأمر غير مهمّ، لكن علينا الحصول على إجابة ما، تصريح واحد على الأقل. في تسعة وتسعين بالمئة من الحالات، يقع المعني بالمقابلة في الشرك.

هذا كلّ ما يلزمك. يُمكنك رمي ما تبقّى من المقابلة واستعمال ذلك التصريح الوحيد في مقالة لا دخل لها بالمقابلة، بل تدور حول موضوع مهمّ يتناول بحثًا صحفيًا، ووقائع رسميّة، ووقائع غير رسميّة، ومصادر مجهولة، وسواها.

«إذا بدا متردّدًا، قولي له نقفُ في صفّه. تعلمين كيف تجري الصحافة. وسيكون لصالحك أيضًا أن...».

أعرف، أعرف كيف تجري. مسيرة الصحافي المهنيّة قصيرة

قِصَر مسيرة لاعب رياضيّ. نحقّق النفوذ والمجد باكرًا، ثمّ نتنحّى لصالح الجيل التالي. قلّة تُكمل وتتقدّم. يجد غالبيّةُ هؤلاء أنّ معيار عيشهم ينحدر وأنهم يتحوّلون إلى نقّاد في الصحافة، أو أشخاص يكتبون المدوّنات، ويقدّمون الأحاديث، ويصرفون مزيدًا من الوقت أكثر ممّا يلزم على التأثير في أصدقائهم. المرحلة الوسطى لا وجود لها.

لا أزال ضمن فئة «المحترفين الواعدين». إذا تدبّرتُ الحصول على تلك التصاريح، من المحتمل ألاّ أضطرّ إلى سماع أحدهم يقول لي السنة المقبلة إن «علينا خفض التكاليف» و«بموهبتك واسمك، لن يصعب عليك إيجاد وظيفة أخرى».

وإذا رُقّيتُ؟ سأتمكّن من اتّخاذ القرار بشأن ما سيرد في الصفحة الأولى: أستكون مشكلة الذئب آكل الأغنام، أم هجرة رؤوس أموال المصرفيين الأجانب إلى دبي وسنغافورة، أم الأمر التافه في غياب عقارات للإيجار؟ يا لها من طريقة مشوّقة في قضاء السنوات الخمس المقبلة...

أرجع إلى مكتبي، أُجري بعض المكالمات غير المهمّة، وأقرأ كلّ أمر مثير للاهتمام على مواقع إلكترونيّة مختلفة. زملائي يفعلون الأمر نفسه، يبحثون يائسين عن نَزْر من الأخبار من شأنها أن تحدّ من انخفاض أرقام مبيعاتنا بشكل كبير. يقول أحدهم إنه وُجد خنزير برّي على السكّة الحديد التي تربط جنيف بزوريخ. أيُمكن للأمر أن يُشكّل مادّة لمقالة؟

بالطبع. تمامًا كمادّة المكالمة التي يُمكنني تحويلها مقالة من امرأة في الثمانين تحتجّ على القانون الذي يحظّر التدخين في

المشارب. تقول أنْ لا مشكلة في ذلك صيفًا، لكن في الشتاء، سيرتفع عدد الأموات جرّاء الإصابة بالالتهاب الرئوي أكثر من الإصابة بسرطان الرئة، لأنّ المدخّنين جميعًا سيضطرّون إلى التدخين في الخارج.

ما الذي أفعله بالعمل في هذه الصحيفة؟

أعرف: نحبّ عملنا ونريد أن ننقذ العالم.

بعد الجلوس في وضعيّة اللوتس، والبخور يحترق، والموسيقا التي تُذكّر بموسيقا المصاعد دائرة، أبدأ بـ «التأمّل». ينصحني الناس منذ دهر بتجربته. حدث ذلك عندما ظنوا أنّني كنت «متوتّرة» فحسب. (كنت متوتّرة فعلاً، لكنّ ذلك أفضل على الأقل من الشعور باللامبالاة التامّة تجاه الحياة).

«ستخطر ببالكم فِكَرٌ. لا تقلقوا. تقبّلوا تلك الفِكَر، لا تحاولوا التخلّص منها».

تمام، هذا ما أفعله. أُقصي عنّي انفعالات سامّة مثل الكبرياء، والتحرّر من الأوهام، والغيرة، ونكران الجميل، والإحباط. أملأ ذلك الحيّز بالتواضع، بالامتنان، بالتفهّم، بالضمير، وبالنعمة.

أعتقد أنّني كنتُ أُكثر من السكّريات مؤخرًا، وهي ضارّة بالصحّة والجسم الروحاني.

أترك الظلمة واليأس جانبًا وأستحضر قوى الخير والنور.

أتذكّر كلّ تفصيل من غدائي مع جاكوب.

أُنشد المانترا مع باقي التلاميذ.

أتساءلُ إن كان مديري مُحقًّا. هل يخون جاكوب زوجته؟ هل يتعرّض للابتزاز؟

تطلب إلينا المعلّمة أن نتخيّل أنفسنا محاطين بدرعٍ من نور.

«علينا أن نعيش كلّ يوم بيقين أنّ هذه الدرع ستحمينا من الخطر، ولن نضطرّ بعد ذلك إلى أن نكون مقيّدين بازدواجيّة الوجود. علينا أن نجد دربًا وسطًا، حيث لا فرح فيها ولا معاناة، السلام العميق فقط».

أبدأ بفهم السبب الذي يدعوني إلى تفويت دروس اليوغا. ازدواجيّة الوجود؟ دربٌ وسط؟ يبدو ذلك غير طبيعي بقدر الحفاظ على مستوى الكوليسترول لديّ عند حدّ السبعين كما يُملي عليّ طبيبي.

تدوم صورة الدرع لثوانٍ فقط قبل أن تنشطر إلى ألف قطعة وقطعة ويحلّ محلّها اليقين المطلق بأنّ جاكوب يُعجب بأيّ امرأة فاتنة يلتقيها. لـمَ إذًا أتكبّد العناء معه؟

تستمرّ التمارين. نغيّر الوضعيّة، وتُصرّ المعلّمة، كما تفعل في كلّ درس، أن علينا أن نجرّب، ولو لثوانٍ، «إفراغ أذهاننا».

الفراغ هو بالضبط أكثر ما أخشاه وأكثر ما يُكدّرني. لو أنّها تدري ما تطلب...

لكن، في النهاية، من أنا لأحكم على تقنيّة دامت قرونًا؟

ما الذي أفعله هنا؟

أعرف: «أتخلّص من التوتّر».

أستفيق مجدّدًا في وسْط الليل. أتوجّه إلى غرفة الولدين لأرى إن كان كلّ شيء بخير. أمرّ بـنـمّ قليلاً عن الهوس، لكن من المؤكّد أنّ جميع الأهالي يفعلونه بين حين وحين.

أرجع إلى الفراش وأستلقي محدّقة إلى السقف.

لا أملك القوّة لأقول ما أريد أو ما لا أريد فعله. لـمَ لا أترك دروس اليوغا نهائيًا؟ لـمَ لا أستشير طبيبًا نفسيًّا وأبدأ بتناول تلك الأقراص السحريّة؟ لـمَ أعجز عن ضبط نفسي والكفّ عن التفكير في جاكوب؟ في النهاية، لـم يُلمح إلى أنّه يريد منّي أيّ شيء يفوق كوني إنسانة يُحدّثها عن زُحَل والإحباطات التي يواجهها كلّ الراشدين عاجلاً أم آجلاً.

لـم أعد أطيق نفسي. حياتي كفيلم يُواصل تكرار المشهد نفسه.

أخذتُ بعض الحصص في الطب النفسي عندما كنت أدرس الصحافة. في إحداها، قال المعلم - وهو رجل مشوّق في الصف كما في الفراش - إنّ كلّ المعنيين بالمقابلة يـمرّون بـمراحل خمس: الدفاعيّة، ترقية الذات، الثقة بالذات، الاعتراف، محاولة تصويب الأمور.

في حياتي، انتقلتُ توًا من الثقة بالذات إلى الاعتراف. أنا قيدُ الاعتراف لنفسي بأمور من الأفضل إبقاؤها دفينة.

مثال: توقّفَ العالم.

ليس عالمي فحسب، بل عالم كلّ من هم حولي. عندما نلتقي أصدقاءً، نتحدّث في الأمور نفسها على الدوام، وعن الناس أنفسهم. تبدو الأحاديث جديدة، لكنّها كلّها مضيعة للوقت والطاقة. نحاول أن نبرهن أنّ الحياة لا تزال مشوّقة.

يحاول الجميع التحكّم بسعادتهم. ليس جاكوب وأنا فحسب، بل كذلك زوجي على الأرجح. غير أنّه لا يُظهر ذلك.

في حالتي الاعترافيّة الخطيرة، تُضحي هذه الأمور أوضح. لا أشعر بأنّني وحيدة. يحوطني أشخاص لديهم المشكلات نفسها، ويدّعون أنّ الحياة تجري كعادتها الطبيعيّة. أنا. جاري. وربّما مديري أيضًا، والرجل النائم إلى جانبي.

بعد بلوغِ سنّ معيّنة، نضع قناعًا من الثقة واليقين. مع الوقت، يلتصق القناع بالوجه ونعجز عن نزعه.

عندما نكون أطفالًا، نتعلّم أنّنا إذا بكينا، سنحصل على العاطفة، وإذا أبدينا حزننا، سنحصل على المواساة. إذا عجزنا عن الحصول عمّا نريده بابتسامة، نحصل عليه يقينًا بالدموع.

لكنّنا لم نعد نبكي، إلاّ في الحمّام حيث لا أحد يسمع. ولا نبتسم لأحدٍ سوى أولادنا. لا نُظهر مشاعرنا لأنّ الناس قد يظنّون بأنّنا ضعفاء فيستغلّوننا.

النوم أفضل العلاج.

ألتقي جاكوب كما حُدِّد. هذه المرّة، أختار أنا المكان، ويؤول بنا المطاف إلى متنزّه «پارك دي زوه ڤيڤ» الجميل لكن المُهمَل، حيث يقع مطعم فظيع بإدارة المدينة أيضًا. تناولت الغداء فيه ذات مرّة مع مراسل من «فايننشل تايمز». طلبنا مشروب المارتيني وجاءنا النادل بمشروب السينزانو.

هذه المرّة، لا نتناول الغداء في المطعم، نجلس ببساطة على العشب ونتناول الشطائر. يُمكنه التدخين بحرّية هنا، لأنّنا نحظى بمنظر خاص بنا لكلّ ما يحيط بنا. يُمكننا مشاهدة الناس تمرّ ذهابًا وإيابًا.

قرّرتُ أن أكون صريحة: بعد الشكليّات المعهودة (تبادل الحديث عن الطقس، العمل، و«كيف كان النادي الليلي؟/سأرتاده الليلة»)، أوّل ما أسأله هو إن كان يتعرّض للابتزاز بسبب... كيف لي التعبير عن ذلك... بسبب علاقة خارج الزواج.

لا يبدو متفاجئًا. يسأل فقط إذا كنتُ أتكلّم كصحافيّة أو كصديقة.

في هذه اللحظة، كصحافيّة. إنْ أكّدتَ صحّة الأمر، سأعطيك كلمتي بأنّ الصحيفة ستساندك. لن ننشر أيّ شيء عن حياتك الشخصيّة، لكنّنا سنسعى وراء المبتزّين.

«نعم، كانت لي علاقة غراميّة مع زوجة صديق، وهو أمر أتصوّر أنّك على علم مسبق به. كان هو من شجّع على ذلك لأنّ كلينا سئم من زواجه. أتستوعبين ما أقول؟».

الزوج شجّع على الأمر؟ لا، لا أستوعب، لكنّني أومئ إيجابًا وأتذكّر ما حدث منذ ثلاث ليالٍ، عندما انتشيتُ مرّات عدّة.

وهلاّ تزال العلاقة الغراميّة مستمرّة؟

«لا، فقدنا اهتمامنا بها. زوجتي تعلم بأمرها. لا يُمكنك ستر بعض الأمور. التقط بعض الأشخاص من نيجيريا صورًا لنا وهدّدانا بنشرها، لكنّ الأمر معلوم من الجميع».

نيجيريا هي مقرّ شركة تصنيع الفلزّات تلك. ألم تهدّده زوجته بالطلاق؟

«ظلّت منزعجة جدًّا على مدى بضعة أيّام، لا أكثر. لديها مخطّطات عظيمة لزواجنا، وأتصوّر أنّ الوفاء ليس بالضرورة جزءًا منها. ادّعت أنّها تشعر بالغيرة قليلاً، لمجرّد أن تُظهِر أنّ ما حدث كان مهمًا، لكنّها ممثّلة سيّئة. بعد ساعات من اعترافي، كان ذهنها قد انشغل بأمور أخرى».

قد يبدو الأمر أنّ جاكوب يحيا في عالم مختلف تمامًا عن عالمي، حيث الزوجات لا يشعرن بالغيرة والأزواج يشجّعون زوجاتهم على العلاقات الغراميّة. هل من أمر يفوتني؟

«الزمن كفيل بشفاء كلّ شيء، ألا تعتقدين ذلك؟».

هذا رهن الظروف. يمكن للزمن أن يجعل الأمور أسوأ. هذا ما يحدث معي، لكنّني جئت إلى هنا لأجري مقابلة، لا لتُجرى معي مقابلة. لذا لا أقول شيئًا.

يتابع: «لا يعلم النيجيريّون بذلك. لقد نصبتُ لهم شركًا مع وزارة الماليّة ورتّبت أمر تسجيل كلّ شيء، تمامًا كما فعلوا معي».

أرى مقالتي تذهب أدراج الرياح، ومعها فرصتي الكبرى في الارتقاء داخل قطاع يتراجع. لا جديد أكتب عنه: لا زنى، لا ابتزاز، لا فساد. كلّ شيء يتبع النمط السويسري القائم على الجودة والامتياز.

«هل انتهيتِ من طرح الأسئلة؟ هل يمكننا الانتقال إلى موضوع آخر؟».

نعم، طرحتُ كلّ ما لديَ من أسئلة، لكن لا موضوع آخر في ذهني.

«في اعتقادي، كان عليكِ أن تسألي: لمَ أردتُ رؤيتكِ من جديد.؟ ولمَ أردتُ أن أعرف إن كنتِ سعيدة؟ أتخالين أنّني مهتمّ بكِ جنسيًا؟ لم نعد مراهقين. أعترف أنّني فوجئتُ بما فعلته في مكتبي، وراق لي أن أقذف في فمك، لكن ليس هذا سببًا كافيًا لوجودنا هنا، خصوصًا وأن من غير الممكن لنا فعل أمر مماثل في العلن. إذًا، ألا تريدين أن تعرفي لمَ أردتُ رؤيتكِ من جديد؟».

يباغتني مجدّدًا بذاك السؤال عن سعادتي أو غيابها. ألا يدرك أنّه لا يجدر بالمرء طرح هذا النوع من الأسئلة؟

«أخبرني، لمجرّد أنّكَ تريد ذلك». أجيبُ كذلك لاستفزازه وتوجيه ضربة قاضية إلى تعجرفه الذي يهزّ كياني بشدّة. ثمّ أضيف: «لأنّك تريد أن تطارحني الفراش. لن تكون أوّل من أصدّه».

يهزّ رأسه. أدّعي أنّني غير منزعجة وأُشير إلى الأمواج المتحرّكة على سطح البحيرة الهادئ عادةً. نقبع ونحن ننظر إليها كما

لو كانت أكثر الأمور تشويقًا في العالم، إلى أن يتمكّن من إيجاد الكلمات الصحيحة:

«كما أدركتِ بلا شكّ، سألتكِ إن كنتِ سعيدة لأنّني تعرّفتُ إلى نفسي من خلالك. ثمّة تجاذبٌ بين الأشباه. قد لا تشعرين بالأمر نفسه حيالي، لكن ليس الأمر ذا أهميّة. قد تكونين مرهقة ذهنيًا، مقتنعة بأنّ مشكلاتك غير الموجودة- مشكلات تعلمين أنّها غير موجودة-تستنزف كلّ طاقتك».

خطرت لي الفكرة ذاتها تحديدًا في خلال الغداء؛ الأرواح المعذّبة تتعرّف إحداها إلى الأخرى، وتنجذب معًا لإلقاء الرعب في نفوس الأحياء.

يقول: «أشعر بالأمر عينه، لكن مشكلاتي واقعيّة أكثر. أعتمد على موافقة الكثير من الناس، لذا يغمرني شعور بكره الذات متى عجزتُ عن حلّ هذه المشكلة أو تلك. ويجعلني هذا أشعر بأنّني عقيم. فكّرتُ في الحصول على مساعدة طبّية، لكنّ زوجتي لا تريدني أن أفعل ذلك. تقول: إذا اكتشف أحدهم الأمر، فقد يدمّر ذلك مسيرتي المهنيّة. أوافقها الرأي».

إذًا هو يُحادث زوجته في هذه الأمور. قد أفعل الأمر ذاته مع زوجي الليلة. بدل أن أذهب إلى نادٍ ليلي، يمكنني أن أجالسه وأخبره بكلّ شيء. كيف سيكون ردّ فعله؟

يتابع: «بالطبع، ارتكبتُ كثيرًا من الأخطاء. حاليًا، أحاول إجبار نفسي على النظر إلى العالم بمنظار مختلف، لكنّني لا أفلح. عندما أرى شخصًا مثلك - وقد التقيتُ كثيرين في الحوض نفسه- أحاول

أن أكتشف كيف يتعامل مع المشكلة. أحتاج إلى المساعدة، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكّنني من الحصول عليها».

إذًا هذا كلّ ما في الأمر. لا جنس، لا علاقة رومنسيّة رائعة تُنير عصر جنيف الرمادي. هو يريد تشكيل مجموعة دعم فحسب، كالمجموعة التي يلتحق بها مدمنو الكحول والمخدّرات.

أنهض.

أرشقه بنظري وأقول إنّني في الواقع سعيدة جدًا، وإنّ عليه أن يرى طبيبًا نفسيًا. ولا يسع زوجته أن تضبط إيقاع كلّ ما في حياته. وسوف تضمن السريّة الطبيّة ألّا يُكتشف أمره. ولي صديقة شُفيت بتناول الأقراص. هل يريد أن يقضي باقي حياته مسكونًا بطيف الاكتئاب لمجرّد أن يُعاد انتخابه؟ أهذا ما يريده لمستقبله؟

ينظر من حوله ليرى إن كان ثمّة من يسترق السمع. سبق أن فعلتُ ذلك، وأعرف أنّنا وحيدان باستثناء مجموعة من تجّار المخدّرات في الجهة المقابلة من المتنزّه، خلف المطعم. لكنّهم لن يزعجونا.

أعجز عن التوقّف. كلّما أتكلّم، أدرك أنّني أستمع إلى نفسي وذلك يساعدني. أقول إنّ السلبيّة تتغذّى من ذاتها؛ إنّ عليه أن يبحث عمّا يتيح له بعض الفرح، مثل الإبحار، أو مشاهدة الأفلام في السينما، أو المطالعة.

«لا، لا يتعلّق الأمر بذلك. أنتِ لا تفهمين». يبدو أنّ إجابتي أدهشته.

بل أفهم. كلّ يوم تنهال علينا معلومات وصور- تعرض مراهقات شديدات التبرّج يحاولن الادّعاء بأنّهن راشدات في إعلان

يروّج كريمات عجائبيّة تَعِدُ بالجمال الخالد، وزوجين مسنّين تسلّقا جبل إيفيرست للاحتفال بعيد زواجهما؛ وأجهزة تدليك من ماركات غير معروفة، وواجهات صيدليّات حُشرت في خلفيّتها مستحضرات التنحيف؛ وأفلامًا تولّد انطباعًا منافيًا تمامًا للواقع، وكتبًا تَعِدُ بنتائج مذهلة؛ ومختصّين يُعطون نصائح عن السبيل إلى النجاح في الحياة أو الفوز بالسلام الداخلي. وتجعلنا هذه الأمور كلّها نشعر بأنّنا عجَزَة، تجعلنا نشعر بأنّنا نحيا حياةً مملّة تفتقر إلى المغامرة فيما تترهّل بشرتنا أكثر فأكثر، ونُراكم الكيلوغرامات التي تستحيل خسارتها. ومع هذا، نشعر بأنّنا مضطرّون إلى كبت عواطفنا ورغباتنا، لأنّها لا تتناسب مع ما ندعوه «النضج».

انتقِ المعلومات التي تُصغي إليها. غَربِل ما يبلغ بصرك وسمعك، وتقبّل منها ما يرفع معنوياتك لأن لدينا حياتنا التي نعيشها يومًا بيوم لفعل ذلك. ألا تعتقد أن الأحكام تُطلق عليّ في العمل وتوجَّهُ إليّ الانتقادات؟ يحدث هذا في الواقع، بل يحدث كثيرًا! لكنّني قرّرت أن أُصغي فقط إلى الأمور التي تشجّعني على أن أتحسّن، الأمور التي تساعدني على تصحيح أخطائي. وإلاّ، سأدّعي بأنّني أعجز عن سماع الأمور الأخرى، أو أنّني أقوم بصدّها.

جئتُ إلى هنا بحثًا عن قصّة معقّدة عن الزنى، والابتزاز، والفساد. لكنّكَ أحسنت التعامل معها كلّها. ألا ترى ذلك؟

من دون تفكير، أجلس من جديد، وأُمسك برأسه بين يديّ فلا يتفلّت منّي. أقبّله قبلةً طويلة. يتردّد أقل من ثانية، ثمّ يستجيب. على الفور، يحلّ محلّ ما أشعر به من عجز، وهشاشة، وإخفاق، وانعدام الأمان، شعورٌ واحدٌ من الانشراح العارم. بين لحظة وأخرى،

أصبحتُ حكيمةً فجأة، استعدتُ الإمساك بزمام الوضع، وتجرّأتُ على فعل أمر كنتُ أتخيّله فقط. غامرتُ في دخول أرضٍ مجهولة، ومياه خطرة، مُدمِّرةً أهرامًا، ومُشيّدةً معابد.

انا مرّة أخرى سيّدة أفكاري وأفعالي.

ما بدا مستحيلاً صباح اليوم، تحوّل حقيقة هذا العصر. أستطيع أن أشعر من جديد، أن أحبّ شيئًا ليس ملكي. كفّت الريح عن إزعاجي وتحوّلت إلى بَرَكة، كلمسة من يد الله على وجنتي. عادت روحي إليّ.

وفي خلال الوقت القصير الذي استغرقته القبلة بدا لي أن مئات السنوات قد مرّت. نبتعد ببطء، يُسرّح نظره في عينيّ، وهو يداعب شعري بحنان.

ونجد بالضبط ما كان فيهما من قبل.

الحزن.

أضفْ إليه التصرُّف الأخرق واللامسؤول من جهتي على الأمل، ليزيد الطين بلّة.

نقضي معًا ساعة ونصف الساعة زيادة، نتحدّث في شؤون المدينة وقاطنيها، كما لو أنّ شيئًا لم يحدث. بدونا متقاربين جدًا لدى وصولنا إلى المتنزّه. وبتلك القبلة، أصبحنا واحدًا. لكن الآن، نحن غريبان تمامًا، نحاول الاستمرار في المحادثة قدر المستطاع لكي نتمكّن من الذهاب كل في سبيله، من دون الشعور بكثيرٍ من الإحراج.

لم يرنا أحد. لسنا في مطعم. زواجانا بأمان.

أفكّر في الاعتذار، لكنّني أعلم أن لا لزوم لذلك. في النهاية، كانت مجرّد قبلة.

لا يسعني أن أقول بصراحة إنّني أشعر بالنصر، لكنّني على الأقلّ استعدتُ قليلاً من ضبط النفس. في المنزل، يجري كلّ شيء وفق العادة؛ قبل ذلك كُنت في حالٍ فظيعة أمّا الآن، فأشعر بحالٍ أفضل. لا يسألني أحد عن حالي.

سأحذو حذو جاكوب كونيش وأُحدّث زوجي عن حالتي العقليّة الغريبة. سوف أُسرّ إليه أمري، وأنا متأكدة من مساعدته لي.

من جهّة أخرى، أشعر بأفضل حال اليوم؛ لِمَ أُفسدها بالاعتراف بأمور لا يسعني أنا نفسي أن أفهمها؟ أواصل المعاناة. لا أعتقد أنّ ما أمرُّ به يُمكن حصره بنقص في العناصر الكيميائيّة في جسمي، كما قرأت عن ذلك في أحد المواقع الإلكترونية بعنوان: «الحزن القسريّ».

لستُ حزينة اليوم. إنّها إحدى تلك المراحل التي يمرّ بها الجميع. أتذكّر عندما نظّم صفّي الثانوي حفلة الوداع الخاصّة به؛ ضحكنا ساعتين؛ وفي الختام، أجهشنا جميعًا في البكاء، لعِلمنا بأنّنا كنّا نفترق إلى الأبد. دام الحزن أيامًا أو أسابيع، لا أذكر تمامًا. لكن مجرّد أنني لا أتذكّر جيّدًا، يُشير إلى أمرٌ مهمّ هو أن الأمر قد انتهى. شَقّ عليّ بلوغ الثلاثين من العمر، وعلى الأرجح أنّني لم أكن مهيّأة له.

يصعد زوجي إلى الطابق العلوي ليضع الولدين في فراشيهما. أسكب كأس نبيذ وأخرج إلى الحديقة.

لا يزال الطقس عاصفًا. إنّها ريح نعرفها هنا تمام المعرفة، قد تهبّ ثلاثة أيّام، أو ستّة، أو حتّى تسعة. في فرنسا، وهي أكثر رومنسيّة من سويسرا، تُعرف تلك الريح بريح الشمال، وتحمل معها دومًا الطقس الساطع، البارد. آن الأوان لتنقشع تلك الغيوم. سيكون الطقس مشمسًا في الغد.

لا أنفكّ أفكّر في المحادثة التي جرت في المتنزّه؛ في تلك القبلة. لا أشعر بالندم على الإطلاق. فعلتُ أمرًا لم يسبق لي فعله، وهذا بحد ذاته ما بدأ يهدم الجدران التي تأسرني.

لا يهمّني فعلاً ما يظنّه جاكوب كونيش. لا يُمكنني أن أصرف حياتي في محاولة إرضاء الآخرين.

أُجهز على كأس النبيذ وأملأها من جديد، وللمرّة الأولى منذ شهور، ينتابني شعور آخر مختلف عن الفتور والعبث.

ينزل زوجي وهو يرتدي ما يليق بسهرة، ويسألني كم سيمضي من الوقت لأكون جاهزة. نسيتُ أنّنا اتّفقنا على الخروج للرقص الليلة.

أهرع إلى الطابق العلوي. وعندما أهبط، أرى أنّ جليسة الأطفال الفيليبينية قد وصلت، وفردت كتبها على امتداد الطاولة في غرفة المعيشة. الولدان نائمان ولن يشكّلا مصدر إزعاج، لذا، تستثمر وقتها في الدراسة. يبدو أنّها تمقت التلفاز.

نحن جاهزان للمغادرة. ارتديتُ أحلى فساتيني، حتّى ولو أنّني أجازف في التأنّق المفرط لسهرة غير رسميّة. ماذا يضيرني؟ أنا في حاجة إلى الاحتفال.

أستفيق على صوت الريح تطرق النوافذ. ألوم زوجي على عدم إغلاقها جيدًا. أشعر بالحاجة إلى النهوض وتأدية طقسي الليلي في التوجّه إلى غرفة الولدين للتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. لكن، يمنعني أمر ما. أهو لأنّني أفرطتُ في الشرب؟ أفكّر في الأمواج التي رأيتها اليوم على سطح البحيرة، في الغيوم التي تبدّدت الآن، في الشخص الذي كان معي. لا أذكر الكثير عن النادي الليلي؛ أحسسنا أنّ الموسيقا كانت مريعة، وأنّ الجو مملّ للغاية. لم يطل بنا الأمر ليعود كلّ منّا إلى كمبيوتره.

وماذا عن كلّ تلك الأمور التي قلتها لجاكوب عصر اليوم؟ ألا يجدر بي أن أخصّص لها بعض الوقت لأفكّر بها؟

هذه الغرفة تخنقني. زوجي المثالي ينام إلى جانبي؛ يبدو أنّه لم يسمع الريح تطرق النوافذ. أتخيّل جاكوب مستلقيًا إلى جانب زوجته، وهو يخبرها بكلّ ما يشعر به (مع أنّني واثقة بأنه لن يقول شيئًا عنّي). هو مرتاح لوجود من يُساعده متى شعر بأنّه وحيد. لا أصدّق فعلاً ما قاله عنها - لو صحّ ذلك، لكانا انفصلا. في النهاية، لا أولاد لهما يقلقان عليهم!

أسأل هل أيقظته ريح الشمال هو أيضًا؟ وعمّ يتحدّث هو وزوجته الآن؟ أين يعيشان؟ لن تصعب معرفة ذلك. أستطيع أن أعرف عندما أصل إلى العمل في الغد. أسأل نفسي: هل مارسا الحبّ الليلة؟ هل ولجها بحرارة؟ هل تأوّهت من اللذّة؟

سلوكي تجاهه مفاجىء على الدوام. الجنس الفموي، النصيحة الرشيدة، القبلة في المتنزَه. أبدو كأنني امرأة أخرى. مَن هذه المرأة التي أتقمّصها عندما أكون مع جاكوب؟

إنّها نفسي المراهقة الاستفزازيّة. تلك التي كانت يومًا ثابتة ثبات الصخر وشديدة شدّة الريح التي تعكّر هدوء مياه بحيرة «ليمان». غريب كيف أنّنا متى التقينا زملاء المدرسة القدامى، نظنّ دومًا أنّهم لم يتغيّروا، حتّى وإن تحوّل أضعفهم إلى قوي، وانتهى الأمر بأجملهّن إلى أن تتزوج وحشًا، حتّى وإن كان أكثرهم تقاربًا على ما بدا، قد تباعدوا ولم يرَ واحدهم الآخر سنوات.

لكن مع جاكوب، على الأقل في المراحل المبكرة من الوِصال، يظلّ بإمكاني العودة في الزمن إلى كوني الشابّة التي لا تخشى العواقب. إنّها في السادسة عشرة، وعودة زُحل، التي تحمل معها النضج، لا تزال بعيدة.

أحاول أن أنام، لكنّني أعجز عن ذلك. أقضي ساعة أفكّر فيه بهوس. أتذكّر جاري يغسل سيّارته وكيف أنّني حكمت على حياته بأنّها «عقيمة» وتشغلها أمور لا جدوى منها، مع أنها مُجدية. ربما كان يستمتع بما يفعل، يقتنص الفرصة لممارسة بعض التمارين، واعتبار أبسط أمور الحياة بركة، لا لعنة.

هذا ما عليّ فعله: الاسترخاء قليلاً والاستمتاع بالحياة أكثر. لا يعني الكفّ عن التفكير في جاكوب. إني أبدل بفرحي المفقود أمرًا محسوسًا أكثر. أبدل به رجلًا لكن ليس هذا المقصود. إذا ذهبتُ لرؤية طبيب نفسي، فسيقول لي إنّها ليست هذه مشكلتي إطلاقًا؛ بل إنّه نقص في الليثيوم، ومستويات منخفضة من السيروتونين،

وغيرها وغيرها. لم يبدأ الأمر بظهور جاكوب على الساحة، ولن ينتهي برحيله.

لكنّني أعجز عن نسيانه. يُكرّر ذهني لحظة القبلة ويكرّرها.

وأُدرك أنّ لاوعيي يُحوّل مشكلة خياليّة إلى مشكلة حقيقيّة. هذا ما يحدث دومًا. هكذا تظهر العِلل.

لا أريد أن أرى ذلك الرجل بعد اليوم. هو مبعوث من الشيطان ليُزعزع ما هو هشّ بالأصل. كيف لي أن أُغرم بشخص لا أعرفه؟ ومن يقول إنّني مغرمة به؟ أعاني مشكلات منذ الربيع. إذا كانت الأمور على ما يرام قبل ذلك الوقت، فلا أرى سببًا لعدم رجوعها إلى حالها.

أكرّر ما قلته من قبل: إنّها مجرّد مرحلة.

عليّ أن أحافظ على تركيزي وأبقى بمنأى عن السلبيّة. ألم تكن هذه نصيحتي لجاكوب؟

عليّ أن أتّخذ موقفًا حازمًا وأنتظر مرور الأزمة. وإلاّ، أخاطر في أن أُغرَمَ فعلاً، وفي الشعور دومًا بما راودني لأقلّ من ثانية عندما تناولنا الغداء معًا للمرّة الأولى. وإن حدث ذلك، فلن تبقى الأمور محصورة بي. لا، فالمعاناة والألم سينتشران في كلّ مكان.

أظلّ مستلقية على السرير أتقلّب أرقًا لما بدا قرنًا من الزمن قبل أن أغفو. بعد مرور ما أحسستُ أنه لحظة، يوقظني زوجي. إنّه يوم مشرق، السماء زرقاء، ولا تزال ريح الشمال تعصف.

يقول زوجي: «حان وقت الفطور. الأفضل أن أوقظ الولدين».

أقترح أن نتبادل الأدوار مرّة: تذهب أنت إلى المطبخ، وأجهّز أنا الولدين للمدرسة.

يسأل: «هل هذا تحدٍّ؟ إذا كان كذلك، فسوف تتناولين أفضل فطور تناولته منذ سنوات».

لا، ليس تحدّيًا، أريد فقط أن أغيّر مجرى الأمور قليلاً. أتعتقد، إذًا أنّ الفطور الذي أعدّه ليس جيّدًا بما يكفي؟

يقول: «اسمعي، الوقت مبكر للجدال. أسرف كلّ منّا في الشرب البارحة، والنوادي الليليّة غير مخصّصة لمن هم في مثل سنّنا. في أي حال، أنا موافق، اذهبي لتجهيز الولدين للمدرسة».

يمضي قبل أن أتمكّن من الردّ. أتناول هاتفي الذكي وأتحقّق ممّا عليّ فعله اليوم.

أنظر إلى لائحة الارتباطات التي لا تحتمل التأجيل. كلّما طالت اللائحة، اعتبرتُ يومي أكثر إنتاجيّة. لديّ مهماتٌ كثيرة، وهي أمور التزمتُ إنجازها في اليوم السابق أو في خلال الأسبوع، لكنّني لم أنجزها بعد. لهذا تطول اللائحة باستمرار، حتّى توتّرني إلى درجة أن أقرّر محو كلّ شيء والبدء من جديد. وعند ذاك، أدرك أنّ لا شيء مهمّ فيها فعلاً.

لكنّ ثمّة أمرًا لا تتضمّنه، أمرًا لن أنساه حتمًا: معرفة مكان سكن جاكوب كونيش وقيادة سيارتي قرب منزله للحظة.

عندما أنزل، تكون الطاولة مجهّزة بشكل مثالي، عليها سلطة الفواكه، وزيت الزيتون، والجبنة، والخبز الكامل الحبوب، واللبن الرائب، والخوخ. وعدد اليوم من الصحيفة التي أعمل لديها موضوع بحذر إلى اليسار. كفّ زوجي منذ وقت طويل عن قراءة المطبوعات الورقيّة، ويستعمل الآن الآي-باد. يسأل ابننا البكر ما معنى «ابتزاز». لا أستوعب لمَ يريد معرفة معناها إلى أن أرى الصفحة الأولى. ثمّة صورة كبيرة لجاكوب، واحدة من صور كثيرة لا بُدّ أنّه أرسلها إلى الصحافة. يبدو مستغرقًا في التفكير، متأمّلاً. إلى جانب الصورة، عنوان رئيس عريض: «النائب يعلن عن محاولة ابتزاز».

لم أكتب المقالة. في الواقع، عندما كنتُ مجتمعة بجاكوب، هاتفني رئيس التحرير ليقول لي إن بإمكاني إلغاء الاجتماع لأنّهم تلقّوا بلاغًا من وزارة الماليّة، وأنّهم يعملون على القضيّة. أشرح أنّ الاجتماع سبق أن بدأ، وأنّه حدث بأسرع ما توقّعت ومن دون الحاجة إلى «التكتيكات المعهودة». أُرسلت عندئذٍ إلى محلّة قريبة (تعتبر «مدينة» وفيها محافظ) حيث ضُبِطَ محلّ بقالة فيها يبيع طعامًا انتهت مدّة صلاحيّته. كلّمتُ مالك المحلّ، والجيران، وأصدقاء الجيران، وهو أمر أنا على ثقة بأنّه شكّل مقالة أكثر إثارة لاهتمام القرّاء من أمر فضيحة سياسيّة ما. كما أنّه وُضع على الصفحة الأولى، لكن من دون إبراز العنوان. «تغريم محلّ بقالة ولا بلاغات عن تسمّم بالطعام».

تكدّرني رؤية صورة جاكوب على مائدة الفطور أمامنا.

أقول لزوجي إنّ علينا أن نتحادث الليلة.

يقول: «يمكننا ترك الولدين مع والدتي والذهاب لتناول العشاء في مكان ما، أنا وأنتِ فقط. أحتاج إلى قضاء بعض الوقت معك أيضًا، وحدنا من دون موسيقا مريعة تدوّي في آذاننا. كيف يُحتمل أن تروق هذه الموسيقا الناس؟».

كان ذلك صبيحة يوم ربيعي.

كنت أجلس في إحدى زوايا الملعب المقفر في العادة، وأتأمّل سور المدرسة المكسو بالطوب. عرفتُ أنني لست على ما يرام.

اعتقدَ كلّ الأولاد الآخرين أنّني كنت أتصرّف «أفضل منهم»، ولم أحاول يومًا إنكار ذلك. على العكس. كنت أدفع والدتي على الدوام إلى شراء ملابس باهظة الثمن لي واصطحابي إلى المدرسة في سيّارتها الأجنبية الفارهة.

لكن ذلك اليوم في الملعب، أدركتُ أنّني كنت وحيدة، وأنّني قد أبقى وحيدة طوال حياتي. مع أنّني كنت لا أزال في الثامنة. بدا الأمر وكأنّ الفرصة قد فاتتني لكي أتغيّر وأبرهن للأولاد الباقين أنّني مثلهم تمامًا.

الزمن الآن، زمن صيف.

كنتُ في المرحلة الثانوية، وكان الفتيان يغازلونني على الدوام، مهما حاولت إبعادهم. كان الحسد يتّقد في ضلوع الفتيات

الأفضل أن أحافظ على حسّ من الغموض مع نفحة من الملذّات البعيدة المنال.

في طريقي إلى المنزل، لاحظتُ وجود بعض الفطر الذي نبت بعد المطر. كان في حال ممتازة، لأنّ الجميع كان يعرف أنّه سام. مرّ ببالي مرورًا خاطفًا أن آكله. لم أكن أشعر بالحزن أو بالسعادة تحديدًا؛ كلّ ما أردته هو لفت انتباه والديّ.

لم آكل الفطر.

هذا اليوم، هو اليوم الأوّل من الخريف، أحلى فصول السنة. قريبًا ستبدّل الأوراق لونها وستختلف كلّ شجرة عن الأخرى. في الطريق إلى موقف السيارات، أقرّر أن أتّخذ طريقًا مختلفًا قليلاً.

أتوقّف أمام المدرسة التي تلقيت دروسي فيها. لا يزال السور المكسو بالطوب في مكانه. لم يتغيّر شيء، باستثناء أنّني لم أعد وحيدة. في بالي رجلان؛ رجل لن يكون لي يومًا، ورجل سأتناول معه العشاء الليلة في مكان مميّز، مُنتقى بعناية.

يعبر السماء عصفورٌ، يُلاعب الريح. يطير جيئةً وذهابًا، يرتفع وينخفض، تخضع تحركاته لمنطق لا يسعني فهمه. ربّما كان منطقه الوحيد هو منطق اللهو.

لستُ عصفورًا. لا يُمكنني صرف حياتي في اللعب ككثير من أصدقائنا، الذين يملكون من المال أقلّ ممّا نملك، لكنّهم يقضون على ما يبدو حياتهم كلّها في السفر أو ارتياد المطاعم. حاولتُ أن أكون هكذا، لكنّني أعجز عن ذلك. بفضل نفوذ زوجي، تمكّنت من الحصول على الوظيفة التي أشغلها الآن. أعمل، أملأ وقتي، أشعر بأنّني فاعلة وقادرة على تبرير وجودي. ذات يوم، سيفتخر ولداي

بوالدتهما، وستصاب صديقات طفولتي بأشدّ ما عرفنه من إحباط، لأنّني تمكَنتُ من بناء شيء محسوس، في حين أنّهن كرّسن ذواتهن لتدبير شؤون المنزل، ورعاية أولادهن، وأزواجهن.

ربـمّا كنّ لا يشعرن بهذه الحاجة إلى التأثير في أشخاص آخرين. أنا أشعر بها، ولا يسعني صدّها، لأنّ تأثيرها في حياتي كان فاعلًا، كان يسيّرني. ما دمت لا أجازف مجازفة غير ضرورية. ما دمت أتمكّن من صون عالمي تمامًا كما هو اليوم.

حالما أصل إلى المكتب، أبحث في أرشيف الحكومة الرقمي. يستغرق الأمر أقلّ من دقيقة للعثور على عنوان جاكوب كونيش، إضافة إلى معلومات عن دخله، ومكان دراسته، واسم زوجته، ومكان عملها.

اختار زوجي مطعمًا يقع في منتصف الطريق بين مكتبي ومنزلنا. سبق أن ذهبنا إليه. يروقني طعامه ونبيذه وجوّه، لكنّني أشعر دومًا بأن تناول الطعام في المنزل أفضل. أتعشّى في الخارج فقط عندما تستدعي حياتي الاجتماعيّة ذلك، وأتجنب الأمر متى كان بإمكاني. أحبّ الطهو. أحبّ أن أكون مع أسرتي، والشعور بأنّني حامية ومحميّة في آن.

من المهمّات التي ليست على لائحة واجباتي هذا الصباح «القيادة قرب منزل جاكوب كونيش». تمكّنت من مقاومة النزوة. لديّ ما يكفي من المشكلات الخياليّة لإضافة مشكلة الحبّ الأحادي الطرف الحقيقيّة إليها. انطفأت المشاعر التي انتابتني منذ زمن بعيد. لن تنتابني مجدّدًا. ويمكننا الآن أن نمضي إلى مستقبل من السلام، والأمل، والازدهار.

يقول زوجي: «يقولون إنّ المالك قد تغيّر، وإنّ الطعام لم يعد جيدًا كما كان».

لا يهمّ. طعام المطاعم هو ذاته على الدوام: كثير من الزبدة، تقديم مبهرج. وبما أنّنا نقطن واحدة من أغلى مدن العالم، يكون السعر مبالغ به مقابل شيء لا يستحقّه في الحقيقة.

لكنّ الخروج لتناول الطعام طقس. يرحّب بنا النادل الرئيسي، الذي يقودنا إلى طاولتنا المعهودة، مع أنّنا لم نأتِ إلى هنا منذ فترة.

يسأل إن كنّا نريد النبيذ نفسه (بالطبع) ويناولنا قائمة الطعام. أقرأها من الغلاف إلى الغلاف، وأختار الطبق نفسه كما في كلّ مرّة. يؤثر زوجي خياره التقليدي، اللحم المشوي مع العدس. يأتي النادل ليبلغنا بما أعده الطاهي اليوم من أطباق مميزة: نُصغي بتهذيب، نصدر أصواتًا تعبيرًا عن تقديرنا، ثمّ نطلب طبقيْنا.

لا داعي لتذوّق الكأس الأولى من النبيذ وتحليله بدقّة، لأنّنا متزوّجان منذ عشر سنوات. نتجرّعه بسرعة فائقة، وسط الحديث عن العمل والتذمّر من الرجل الذي كان من المفترض أن يحضر لإصلاح التدفئة المركزيّة ولم يفعل.

يسأل زوجي: «كيف تسير كتابة مقالتك تلك عن الانتخابات يوم الأحد المقبل؟».

كُلِفتُ الكتابة عن مسألة أجدها وحدها مثيرة للاهتمام: هل يحقّ للناخبين التدقيق في الحياة الخاصّة لرجل السياسة؟ إنّه ردّ على نبأ ابتزاز نيجيريين لنائب. معظم الأشخاص الذين أجريت مقابلات معهم قالوا إنّهم لا يأبهون. يقولون إنّ الأمر ليس كما في الولايات المتّحدة، وإنّهم فخورون بذلك.

نتحدّث عن أخبار حديثة أخرى: ازدياد عدد المصوّتين في الانتخابات الأخيرة للمجلس الاتحادي؛ السائقون العاملون في شركة النقل العام في جنيف (تي پي دجي) الذين تعبوا من عملهم مع أنّهم سعداء فيه؛ امرأة ذُهست وهي تعبر خطّ المارّة؛ القطار الذي تعطّل وعطّل السير أكثر من ساعتين؛ وموضوعات أخرى لا جدوى منها.

أسكب كأس نبيذ أخرى من دون انتظار وصول المقبّلات، ومن دون سؤال زوجي كيف كان يومه. يُصغي بلباقة إلى كلّ ما قلته قبل قليل. لا بُدّ أنّه يتساءل لم جئنا بالأصل.

«تبدين أكثر سعادة اليوم»، يقولها بعد أن يكون النادل قد جلب طبقيْنا الأساسيين، وبعد أن أدرك أنّني كنت أتحدّث ثلث ساعة بلا انقطاع. يتابع: «هل حدث أمرٌ مميّز أبهجك؟».

لو أنّه طرح السؤال نفسه يوم ذهبتُ إلى «پارك دي زوه ڤيڤ»، لَصَبغ الحياء وجهي، ولَتَذرّعتُ بسلسلة الذرائع التي كنت قد أعددتها. لكنّ اليوم كان يومًا عاديًّا آخر ومملاً على الرغم من محاولة الاقتناع بأنّني مهمّة لهذا العالم.

«ما الذي أردتِ أن تحدّثيني به؟».

أرتشف بعض النبيذ من كأسي الثالثة، وأتهيّأ لتقديم اعتراف تامّ. يصل النادل ويمنعني من القفز إلى الهاوية وأنا على شفيرها. نتبادل كلمات أخرى لا معنى لها، مهدرين دقائق ثمينة من حياتي على تفاصيل خاوية.

يطلب زوجي زجاجة نبيذ أخرى. يتمنّى النادل لنا «مأكول الهناء» ويذهب لإحضار الزجاجة الجديدة.

ثمّ أبدأ.

ستقول إنّني في حاجة إلى رؤية طبيب، لكنّني لا أحتاج إليه. أتدبّر أمري تمامًا، في البيت وفي المكتب، لكنّني أشعر بالحزن منذ أشهر.

«كان ممكنًا أن تخدعيني. كما قلت من فوري، تبدين أكثر سعادة».

طبعًا. بات حزني منتظمًا حتّى أنّ أحدًا لم يعد يلاحظه. من الجيد فعلاً أن أتمكّن أخيرًا من التحدّث في هذا الأمر. لكن ما سأقوله أعمق من السعادة الزائفة. لم أعد أنام جيدًا. أشعر بأنّني مهووسة

بذاتي فحسب، «محاولة» التأثير في الناس كما لو أنّني طفلة. في أثناء استحمامي أبكي وحيدة بلا سبب. استمتعتُ بممارسة الحبّ فعلاً مرّة واحدة في خلال شهور عدّة، وأنتَ تعلم المرّة التي أقصدها. خِلتُ أنّني على الأرجح أمرّ في أزمة منتصف العمر، لكن ليس ذلك تعليلاً كافيًا. أشعر وكأنّني أهدر حياتي، وبأنّني يومًا ما سأنظر إليها وأندم على كلّ ما فعلت، باستثناء زواجي منك وإنجابي ولدينا.

«لكن أليس هذا أكثر ما يهمّ؟».

يهمّ كثيرًا من الناس، نعم. لكنّه لا يكفيني. يسوء الأمر يومًا بعد يوم. عندما أُنهي الأعمال المنزليّة كلّ مساء، يدور حوار لا ينتهي في رأسي. أخشى تغيّر الأمور، لكن في الوقت نفسه، أتوق إلى اختبار شيء مختلف. تواصل أفكاري اجترار نفسها بجموح. أنتَ لا تلاحظ لأنّك تكون نائمًا. هل لاحظتَ مثلاً ريح الشمال ليلة أمس وهي تطرق النوافذ؟

«لا، كانت النوافذ مغلقة».

هذا ما أقصده. حتّى الريح العاصفة التي هبّت آلاف المرّات منذ زواجنا قادرة على إيقاظي. ألاحظ كيف تبدّل وضعيّة نومك وتتكلّم في أثناء النوم. لكن أرجوك، لا تعتبر الأمر شخصيًا. يبدو أنّ أمورًا لامنطقيّة تحيط بي. لكن، وللتوضيح، أقول: أنا أحبّ ولدينا. أحبّك. أعشق عملي. غير أن هذا يجعلني أشعر بمزيد من السوء، لأنّني أشعر بأنّني لا أنصف الله، ولا الحياة، ولا أنصفك أنت.

بالكاد تناول طعامًا. كما لو أنّه كان يجلس قبالة شخص غريب عنه. غير أنّ التفوّه بهذه الكلمات منحني سلامًا عارمًا. أفشيت سرّي. للنبيذ مفعوله. لم أعد وحيدة. أشكرك، جاكوب كونيش.

«أتعتقدين أنك في حاجة إلى طبيب؟».

لا أعرف. حتّى لو كنت أعرف، لا أريد أن أسلك ذلك الدرب. عليَّ أن أتعلّم كيف أحلّ مشكلاتي بنفسي.

«لا بُدّ من أن الاحتفاظ بكلّ تلك العواطف لنفسك فترة طويلة كان أمرًا صعبًا. أشكركِ لأنّك أخبرتني. لكن لـمَ لم تخبريني من قبل؟».

لأن الأمور فاقت القدرة على الاحتمال الآن. كنت أفكّر اليوم في سنوات طفولتي ومراهقتي. هل جذور كلّ هذا مترسّخة هناك؟ لا أعتقد، إلاّ إذا كان عقلي يكذب عليَّ كلَّ تلك السنوات، وأعتقد أنّه أمر غير محتمل. أتحدّر من عائلة عاديّة، اكتسبت تربية عاديّة، أحيا حياة عاديّة. ماذا دهاني؟

أقول له وأنا أبكي الآن: لم أقل شيئًا من قبل لأنّني خلتُ أن الأمر سيمرّ ولم أرِد أن أُقلقك.

«لست مجنونة بالتأكيد. لم ألاحظ أيًا من هذا. لم يبدُ عليك الانزعاج بوضوح، لم تخسري من وزنك، وإذا كنت تجيدين التحكّم بمشاعرك بهذا القدر، فإن طريق الخروج سهلة».

لـمَ ذَكرَ خسارة الوزن؟

«يمكنني أن أطلب إلى طبيبنا أن يصف لك بعض المهدّئات لساعدتك على النوم. سأقول إنّها لي. أعتقد أنك، إذا نعمتِ بالنوم، ستتمكّين عندئذٍ من التحكّم تدريجًا بأفكارك. ربـمّا كان علينا أن نمارس التمارين الرياضيّة أكثر. سيحبّ الولدان ذلك. نحن منغمسان بالعمل، وهذا سيّئ».

لستُ على هذا القدر من الانشغال بعملي. على الرغم مـمّا تظنّه،

تساعدني المقالات التافهة التي أكتبها على شغل ذهني، وتُبعد عنّي الأفكار الجامحة التي تستولي عليّ عندما لا أكون منشغلة.

«لكنّنا نحتاج فعلاً إلى ممارسة التمارين الرياضيّة أكثر، إلى وقت في الخارج أكثر، إلى الركض حتّى نسقط من الإعياء. وربـمّا كان علينا الإكثار من دعوة الأصدقاء».

سيكون ذلك كابوسًا بحتًا! الاضطرار إلى محادثة الناس واستضافتهم بابتسامة جامدة على شفتيّ، والاستماع إلى وجهات نظرهم حول الأوبـرا وزحمة السير. ثـمّ، ولتتويج ذلك كلّه، عليّ التنظيف بعد مغادرتهم.

«فلنذهب إلى متنزّه جورا الوطني نهاية هذا الأسبوع. لـم نذهب إليه منذ وقت طويل».

تجري الانتخابات نهاية هذا الأسبوع. سأداوم في الصحيفة.

نأكل بصمت. سبق أن جاء النادل إلى طاولتنا مرّتين ليرى إن كنا قد انتهينا، لكنّنا لم نلمس طبقينا لمسًا. ننتهي بسرعة من زجاجة النبيذ الثانية. أستطيع أن أتصوّر ما يدور في ذهن زوجي: «كيف أساعد زوجتي؟ ماذا عليّ فعله لإسعادها؟». لا شيء، لا شيء أكثر مـمّا يفعله حاليًا. لن يروقني إن جاء إلى المنزل وبيده علبة شوكولاتة، أو باقة زهر.

نخلص إلى أنّه قد احتسى كثيرًا من الشراب يمنعه من القيادة إلى المنزل. لذا علينا ركن السيارة في المطعم، وإحضارها في الغد. أهاتف حماتي وأسأل إن كان بوسع الولدين المبيت عندها الليلة. سأحضر باكرًا في الغد لأصطحبهما إلى المدرسة.

«لكن ما الذي تفتقدينه بالضبط في حياتك؟».

أرجوك لا تسألني هذا الجواب: لا شيء! حبّذا لو كانت لديّ مشكلة فعليّة. لا أعرف شخصًا يعاني الأمر نفسه. حتى صديقتي، التي قضت سنوات تعاني الاكتئاب، والتي تُعالج الآن. لا أعتقد أنّني في حاجة إلى ذلك، لأنّني لا أعاني الأعراض التي وصفتها. كما أنني لا أريد ولوج الميدان الخطر للعقاقير المشروعة. قد يكون الناس غاضبين، متوتّرين، أو في حالة أسى على قلب مفطور. وفي الحالة الأخيرة، قد يظنّون أنّهم يعانون الاكتئاب، وأنهم في حاجة إلى الأدوية والعقاقير، لكنّهم لا يحتاجون إليها. هم يعانون فقط من قلب مفطور. عرف العالم القلوب المفطورة منذ بدئه، منذ أن اكتشف الإنسان ذاك الشيء الغامض الذي يُسمى الحبّ.

«إذا كنتِ لا تريدين أن يعالجك طبيب، فلِمَ لا تجربين بعض البحوث؟».

حاولت. صرفت وقتًا هائلاً أطّلع فيه على مواقع إلكترونيّة في الطبّ النفسي. كرّستُ نفسي أكثر وبجدّية أكبر لليوغا. ألم تلاحظ الكتب التي كنت أجلبها إلى المنزل مؤخّرًا؟ هل اعتقدتَ أنّني سأتحوّل فجأة إلى شخص أقلّ أدبيّة وأكثر روحانية؟

لا، لا أبحث عن جواب لا يسعني إيجاده. بعد قراءة نحو عشرة كتب من تلك التي ترشدك إلى مساعدة نفسك، وجدتُ أنّها تُفضي إلى طريق مسدود. تأثيرها فوري، لكنّه يبطل ما إن أغلق الكتاب. إنّها مجرّد كلمات تصف عالـمًا مثاليًا لا وجود له، حتّى في نظر من كتبوها.

«أتشعرين بحال أفضل الآن؟».

بالطبع، لكن ليست هذه هي المشكلة. أحتاج إلى معرفة المرأة التي تحوّلت إليها، لأنّني هي. هي ليست خارجة عنّي.

أرى أنّه يحاول يائسًا مساعدتي، لكنّه تائه بقدر تَوَهي. يواصل الحديث عن الأعراض، لكنّني أقول له إنّها ليست المشكلة. كلّ شيء عارض. أتستطيع تخيُّل ثقب أسود إسفنجيّ؟

«لا».

هذا ما في الأمر.

يُطمئنني بأنّني سأخرج من هذا الوضع. لا يجدر بي أن أحكم على نفسي. لا يجدر بي أن ألومها. وهو إلى جانبي.

«في آخر النفق نور».

أودّ تصديقك، لكنّني أشعر بأن قدميّ عالقتان بالأرض. لكن في هذه الأثناء، لا تقلق، سأواصل الكفاح. أنا أكافح على مدى كلّ هذه الشهور. عرفتُ أوضاعًا مشابهة من قبل، ومرَت على الدوام. ذات يوم، سأستفيق ويكون كلّ هذا مجرّد حلم بشع. أؤمن بذلك حقًا.

يطلب الفاتورة، يُمسك بيدي، ونطلب سيّارة أجرة. شيء ما تحسّن. الثقة بمن تحب، تؤدّي دومًا إلى نتائج جيّدة.

جاكوب كونيش، ما الذي تفعله في غرفة نومي، في سريري، في كوابيسي؟ عليك أن تكون في العمل. في النهاية، لم يبقَ سوى ثلاثة أيام على انتخابات المجلس الاتّحادي، وسبق أن أهدرت ساعات ثمينة من حملتك على تناول الغداء معي في «لا پيرل دو لاك» وعلى الحديث في «پارك دي زوه ڤيڤ».

ألا يكفيك هذا؟ ما الذي تفعله في أحلامي؟ فعلتُ كما اقترحتَ بالضبط، حدّثتُ زوجي، وشعرت بالحبّ الذي يكنّه لي. وبعد ذلك، عندما مارسنا الحبّ بشغف يفوق ما شعرنا به منذ فترة، تبدّد الشعور بأن السعادة قد استؤصلت من حياتي، تبدّد كليًا.

أرجوك ارحل. سيكون الغد يومًا شاقًا. عليّ أن أستيقظ باكرًا لاصطحاب ولديَّ إلى المدرسة، ثمّ الذهاب إلى المتجر، فالعثور على بقعة أركن فيها سيّارتي، والتفكير في شيء غير اعتيادي أقوله عن موضوع اعتيادي جدًا هو السياسة. دعني وشأني يا جاكوب كونيش.

أنا سعيدة في زواجي. وأنت لا تدري ما يشغل فكري. أتمنّى لو أن شخصًا إلى جانبي الليلة يقصّ عليّ قصصًا ذات نهايات سعيدة، يغنّي لي أغنية تجعلني أغفو. لكن لا، كلّ ما أفكّر فيه هو أنت.

أنا أفقد السيطرة. مرّ أسبوع على رؤيتك، لكنّك لا تزال حاضرًا.

إذا لـم تختفِ، فسأضطرّ إلى الذهاب إلى منزلك وشرب الشاي معك ومع زوجتك، لأرى بأمّ عينيّ مدى سعادتك. لأرى أنّ فرصتي معدومة، أنّك كذبت عليّ عندما قلت إنّ في وسعك أن ترى انعكاسك عليّ، أنّك سمحت لي واعيًا بأن أحمل جرح تلك القبلة المجانيّة المرفوضة.

آمل أن تفهم. أصلّي طالبة أن تفعل، لأني أنا نفسي أعجز عن فهم ما أطلبه.

أنهض، وأتوجّه إلى حاسوبي لأبحث في موقع جوجل بكتابة عبارة: «كيف تحصلين على رَجُلِكِ». بدلاً من ذلك، أكتب كلمة «اكتئاب». عليّ أن أفهم ما يحدث فهماً واضحاً كليًا.

أجد موقعًا فيه استبيان للتشخيص الذاتي عنوانه «اكتشف إن كنتَ تعاني مشكلة نفسيّة». أُجيب عن معظم الأسئلة بـ «لا».

النتيجة: «أنتَ تـمرّ في وقت عصيب، لكنّك لستَ مكتئبًا سريريًّا على الإطلاق. لا تحتاج إلى طبيب».

ألَم يكن هذا ما قلته؟ عرفتُ ذلك. لستُ مريضة. أنا أخترع كلّ ذلك لمجرّد شدّ الانتباه إليّ. أو أنّني أخدع نفسي، محاولةً أن أضخّ بعض المشكلات في حياتي بداعي التشويق؟ تستدعي المشكلات حلولاً ويمكنني أن أصرف ساعاتي، وأيّامي، وأسابيعي، بحثًا عنها. في النهاية، قد تكون فكرة جيّدة أن يطلب زوجي إلى طبيبنا أن يصف لي شيئًا يساعدني على النوم. لعل ضغوط العمل هي التي توتّرني. خصوصًا أنّه وقت الانتخابات. أحاول جاهدة أن أتفوّق على الآخرين، في العمل كما في حياتي الشخصيّة، ومن الصعب إحلال التوازن بين الأمرَيْن.

اليوم يوم السبت، عشيّة الانتخابات. لي صديق يقول إنّه يكره نهاية الأسبوع لأن سوق الأسهم المالية تكون مغلقة وهو لا يجد، سلوى أخرى.

أقنعني زوجي بأنّنا في حاجة إلى الخروج من المدينة. يتذرّع بأنّ الولدين سيستمتعان برحلة قصيرة، وإن كنا لا نستطيع قضاء نهاية الأسبوع كلها لأنني سأكون في العمل يوم غد.

يطلب إليّ أن أرتدي سروال الركض. أشعر بالحرج في الخروج بهذه الهيئة، خصوصًا لزيارة «نيون»، المدينة العتيقة المجيدة التي كانت يومًا موطن الرومان والتي يسكنها الآن أقلّ من عشرين ألف شخص. أقول له إنّ سروال الركض من الثياب التي يرتديها المرء عندما يكون على مقربة من المنزل، حيث من الواضح أنّه ينوي ممارسة التمارين الرياضيّة؛ لكنّه يصرّ.

لا أريد المجادلة، لذا أفعل ما يقول. لا أريد مجادلة أحد حول أيّ شيء. ليس الآن. فخير الكلام ما قلّ.

وأنا أتنزّهُ في بلدة صغيرة على بُعد أقلّ من نصف ساعة، سيكون جاكوب في جولة على الناخبين، يحادث المساعدين والأصدقاء، ويشعر بالتوتّر، وبقليل من الضغط؛ لكنّه يشعر بالفرح لأنّ أمرًا ما يحدث في حياته. ليس لاستطلاعات الآراء في سويسرا أهميّة كبيرة، فهنا، تؤخذ سريّة التصويت على محمل الجدّ؛ لكن يبدو أنّه سيُعاد انتخابه.

من المؤكّد أنّ زوجته قضت ليلتها بلا نوم، لكن لأسباب تختلف عن أسبابي. فهي ستخطط كيف ستستقبل أصدقاءهما بعد إعلان النتيجة رسميًّا. هذا الصباح، ستذهب إلى السوق في «شارع دو ريف»، حيث تُنصَب على امتداد الأسبوع الأكشاك التي تبيع الفواكه والخُضَر والأجبان واللحوم تمامًا خارج مصرف «يوليوس بير» وواجهات محالّ پرادا، وغوتشي، وأرماني، وسواها من ماركات كبار المصمّمين. تختار الأفضل من كلّ صنف، من دون القلق في شأن الكلفة. وقد تركب سيارتها وتقود حتّى «ساتينيي» لزيارة كروم العنب التي تعتبر فخر المنطقة، وتذوّق نبيذ محاصيل العنب الجديدة، واختيار ما سيسرّ الخبراء في أمور النبيذ الفهماء في أمور النبيذ، الذين يبدو أن زوجها واحد منهم.

ستعود إلى المنزل تعبة، لكن سعيدة. ولكن، لم لا تُعِد الأمور للمساء؟ رسميًا، لا يزال جاكوب في حملته، إلهي، تُدرك الآن أنّ ما لديها من الجبنة أقلّ ممّا ظنّت! تركب السيّارة من جديد، وتعود إلى السوق. بين مختلف الأنواع المعروضة، تختار مفخرة مقاطعة «ڤود» من الأجبان: غرويير (الأنواع الثلاثة: المخفّف، والمملّح، والأغلى الذي يستغرق إنضاجه من تسعة شهور إلى اثني عشر، توم ڤودواز (الطري والقِشدي، الذي يؤكل مذوّبًا أو على حاله)، وليتيڤاز (المصنوع من حليب البقر الذي يرعى في أعالي الألپ ويُحضّر بالطريقة التقليديّة فوق نار غلّايات نحاسيّة توضع في الخارج).

هل يستحق الأمر دخول أحد المتاجر وشراء ثياب جديدة؟ أو سيبدو ذلك تباهياً؟ من الأفضل أن ترتدي طقم موسكينو الذي اشترته في ميلانو عندما رافقت زوجها إلى مؤتمر حول قوانين العمل.

وما حال جاكوب؟

يهاتف زوجته كلّ ساعة ليسأل إن كان عليه قول هذا أو ذاك، إن كان من الأفضل زيارة هذا الشارع أو تلك المنطقة، أو إذا كانت صحيفة «تريبون دو جنيف» قد نشرت شيئًا جديدًا على موقعها الإلكتروني. هو يعتمد عليها وعلى نصيحتها، يخفّف من وطأة التوتّر الذي يتراكم مع كلّ زيارة يقوم بها، ويسألها عن الاستراتيجيّة التي وضعاها معًا، وأين عليه أن يذهب بعد ذلك.

وقد أوحى خلال حديثنا في المتنزّه أن السبب الوحيد الذي يُبقيه في السياسة حرصه على ألا يخيب ظنها. حتّى وإن كان يكره ما يفعله، يضفي الحب على جهوده طابعاً فريداً. إذا واصل السير على دربه اللامع، سيكون رئيس الجمهوريّة يومًا ما. ولا شك في أن هذا لا يعني الكثير في سويسرا، لأن الرئيس يتغير كل سنة وينتخبه المجلس الاتحادي. لكن أيّ امرأة لا ترغب في أن تقول إنّ زوجها كان رئيس سويسرا، المعروفة أيضًا بالاتحاد السويسري؟

سيفتح ذلك أبوابًا، ويجلب الدعوات إلى المؤتمرات في أماكن بعيدة. ستقوم شركة كبيرة بتعيينه في مجلس إدارتها. يبدو مستقبل آل كونيش باهرًا، في حين أنّ كلّ ما يقبع أمامي في هذه اللحظة بالذات هو الطريق والنزهة المرتقبة، وأنا أرتدي سروال الركض القبيح.

أوّل ما نفعله هو زيارة المتحف الروماني، وتسلُّق هضبة صغيرة لرؤية بعض الآثار. يتسابق ولدانا، وهما يضحكان. زوجي الآن على علم بكلّ شيء. ولهذا السبب أشعر بالارتياح. ليس عليّ أواصل الادّعاء.

«فلنذهبْ ولنركضْ حول البحيرة».

ماذا عن الولدين؟

يلمح زوجي رجلًا وامرأته من أصدقاء العائلة يجلسان على مقعد قريب، يأكلان البوظة مع أولادهما. «هل نسألهما إن كان بإمكان ولدينا الانضمام إليهم؟ يُمكننا أن نشتري لهما البوظة أيضًا».

يُفاجأ صديقانا برؤيتنا لكنهما يوافقان. قبل أن ننزل إلى ضفَة بحيرة «ليمان»- التي يدعوها كلّ الأجانب «بحيرة جنيف»- يشتري البوظة للولدين ويطلب إليهما البقاء مع أصدقائنا ريثما نذهب للركض. يتذمّر ابني من أنّه لم يجلب جهاز الآي - پاد. يذهب زوجي إلى السيّارة ويحضر له الجهاز التافه. من تلك اللحظة فصاعدًا، ستكون الشاشة أفضل جليسة أطفال. لن يتحرّكا إلى أن يقضيا على الإرهابيين في ألعاب تلائم الراشدين أكثر من غيرهم.

نبدأ بالركض. في إحدى الجهات حدائق؛ وفي الأخرى طيور

النورس والمراكب الشراعيّة التي تستفيد ما أمكن من ريح الشمال. لـم تتوقّف الريح عن الهبوب في اليوم الثالث، ولا في السادس. لا بُدّ أنها تقترب من يومها التاسع، حيث ستهمد وتأخذ معها السماء الزرقاء والطقس الجميل. نركض على طول المضمار لمدّة ربع ساعة. لقد نسينا «نيون» وحريّ بنا أن نرجع.

لـم أمارس التمارين الرياضيّة منذ مدة طويلة. بعد مرور ثلث ساعة، أتوقّف. أعجز عن المضي في الركض. عليّ أن أمشي بقيّة الدرب.

«بالطبع أنت قادرة على الركض!»، يقول لي زوجي مشجّعًا، مهرولاً في مكانه لئلاّ يفقد إيقاعه. «لا تتوقّفي، تابعي الركض».

أنحني إلى أمام، يداي على ركبتيّ. قلبي يخفق بشدّة، إنّه ذنب كلّ ليالي السهد تلك. يواصل الهرولة من حولي في حلقات.

«هيّا! تقدرين على ذلك! سيكون الأمر أسوأ إن توقّفتِ. قومي بذلك من أجلي، من أجل الولدين. ليس هذا مجرّد وسيلة للتمرّن، بل إنّه تذكير لك بأنّ ثمّة خطّ نهاية عليك بلوغه وعدم التقاعس عند منتصف الدرب».

هل يقصد «حزني القسري»؟

يتوقّف عن الهرولة، يُمسك بيديّ، ويهزّني بلطف. أنا منهكة إلى حدّ يمنعني من مواصلة الركض، ولكن أيضًا إلى حدّ يمنعني من المقاومة. أفعل ما يطلب إليّ. نركض معًا طوال الدقائق العشر المتبقية.

أمرّ بجانب لوحات إعلانيّة للمرشّحين المختلفين للمجلس

الاتحادي، والتي لم ألاحظها من قبل. من بين الصور صورة لجاكوب كونيش، يبتسم فيها للكاميرا.

أركضُ على نحو أسرع. يُفاجأ زوجي ويُسرع. نصل في غضون سبع دقائق بدلاً من عشر. لم يتحرّك الولدان. على الرغم من جمال ما يحيط بنا: الجبال، طيور النورس، جبال الألب في البعيد. أعينهم مسمّرة على شاشة تلك الآلة التي توهن الروح.

يتوجّه زوجي إليهما، لكنني أواصل الركض. يراقبني، متفاجئاً لكنْ سعيدًا. لا بُد أنّه يخال كلماته مؤثّرة وأنها تملأ جسمي بالإندورفين الذي يجري في دمنا كلّما قمنا بتمرين رياضي مكثّف قليلاً مثل الركض أو بلوغ الذروة الجنسية. من التأثيرات الأساسيّة للهرمونات تحسين مزاجنا، وتقوية جهازنا المناعي، وتأخير الشيخوخة المبكرة، غير أنها، فوق كلّ شيء، تولّد فينا شعورًا من البهجة العارمة واللذّة.

لكن، ليس هذا ما يفعله الإندورفين بي. فقط يمنحني القوّة للمضي، للركض بعيدًا بُعدَ الأفق والتخلّي عن كلّ شيء خلفي. لمَ على ولديّ أن يكونا على هذا القدر من الروعة؟ لمَ كان عليّ أن ألتقي زوجي وأُغرم به؟ لو لم ألتقِه، لكنتُ امرأة حرّة الآن.

أنا مجنونة. عليّ أن أركض مباشرةً إلى أقرب مستشفى للأمراض العقليّة، لأنّ أفكاري من النوع الذي لا ينبغي له أن يخطر ببال أي شخص. لكنّني أواظب على مثل هذا التفكير.

أركض بضع دقائق إضافيّة، ثمّ أعود. في منتصف الطريق، يُرعبني احتمال أن تتحقّق أمنية حريتي، وألاّ أجد أحدًا لدى وصولي إلى المتنزّه في «نيون».

لكن، ها هم، الولدان يبتسمان لوالدتهما والزوج لزوجته. أعانقهم جميعًا. أنا متعرّقة، وجسمي وعقلي متّسخان، لكن، أعانقهم بشدة. على الرغم ممّا أشعر به، أو بالأحرى، ممّا لا أشعر به.

أنتَ لا تختار حياتك؛ هي تختارك. لا جدوى من السؤال: لـمَ خَصَّصَتْ لكَ الحياةُ أفراحًا أو أتراحًا معيّنة؟ عليكَ أن تتقبّلها وتمضي.

مع أن اختيار حياتنا غير ممكن، يمكننا أن نقرّر ما نفعله بالأفراح أو الأتراح التي منحتنا إيّاها.

عصر ذاك الأحد، أكون في مقرّ الاحتفال أؤدّي واجبي المهني. تدبّرتُ إقناع مديري بذلك، والآن أحاول الاقتناع به. إنّها السادسة إلاّ ربعًا والناس يحتفلون. بخلاف تخيّلاتي المحمومة، لن يُقيم أيّ من المرشّحين حفل استقبال، ولذا لن تسنح لي فرصة الذهاب إلى منزل جاكوب وماريان كونيش.

عندما أصل، تكون النتائج الأولى قد وصلت للتو. صوّت أكثر من خمسة وأربعين بالمئة من الناخبين، وهو رقم قياسي. حلّت مرشّحة أنثى في المرتبة الأولى، وحلّ جاكوب في الثالثة بشكل مشرّف، ما سيمنحه الحقّ في دخول الحكومة إن اختاره حزبه.

القاعة الرئيسة مزيّنة ببالونات صفراء وخضراء. سبق أن بدأ الناس بالشرب، والبعض يرفع إشارة النصر، آملين أن تظهر صورهم في الصحيفة غدًا. لكنّ المصوّرين لم يصلوا بعد؛ في النهاية، إنّه الأحد، والطقس جميل.

يلمحني جاكوب من فوره، وسرعان ما يُشيح بنظره عنّي، باحثًا عن شخص آخر يمكنه محادثته في أمور لا بُدّ من أنها، حسبما أتصوّر، مملّة إلى أبعد حدّ.

عليّ أن أعمل، أو أدّعي ذلك على الأقلّ. أتناول مسجّلتي الرقميّة، ودفترًا، وقلمًا ذا طرف لبادي. أمشي ذهابًا وإيابًا، أجمع تصاريح من نوع «الآن يمكننا أن نسير في إجراءات إقرار قانون الهجرة ذاك» أو «أدرك الناخبون أنّهم اتّخذوا القرار الخاطىء المرّة الماضية والآن صوّتوا لصالح عودتي».

تقول الفائزة: «الأصوات الأنثويّة هي التي كانت تعنيني في الحقيقة».

نصبت «ليمان بلو»، محطّة التلفزيون المحلّية، استديو في الغرفة الأساسيّة، وتقوم المقدّمة السياسيّة العاملة فيها- والتي تثير شهوة تسعة رجال من أصل عشرة هنا- بطرح أسئلة ذكيّة، لكنّها تحصل على الأجزاء السليمة فقط التي يوافق عليها المعاونون السياسيون.

في لحظة من اللحظات، يُستدعى جاكوب كونيش لإجراء مقابلة معه، وأحاول الاقتراب لأسمع ما يقول. يعترض أحدهم طريقي.

«مرحبًا، أنا مدام كونيش. حدّثني جاكوب كثيرًا عنك».

يا لها من امرأة! شقراء، زرقاء العينين، وترتدي سترة خفيفة أنيقة مع وشاح هيرمس، الماركة المشهورة الوحيدة التي يمكنني رصدها. لا بُدّ أنّ ملابسها الأخرى قد صُمّمت لها خصيصًا، صمّمها أفضل الخيّاطين في باريس، ولذا يجب الإبقاء على اسمه سرًا حتى لا تُقَلَّد تصاميمه.

أحاول ألاّ أبدو متفاجئة.

حدّثك جاكوب عنّي؟ أجريتُ مقابلة معه بالفعل، وبعد أيّام قليلة، تناولنا الغداء. أعرف أنّه لا يُفترض بالصحافيين أن يكوّنوا رأيًا عمّن يقابلونهم، لكنّني أعتقد أنّ زوجك رجل شجاع إذ صرّح علنًا عن محاول الابتزاز تلك.

تدّعي ماريان - أو مدام كونيش كما عرّفت بنفسها- أنّها مهتمّة بما أقول. لا بُدّ أنها تعرف أكثر مما تُظهر معرفته. هل يُعقل أن يخبرها جاكوب عمّا حدث في خلال اجتماعنا في « پارك دي زوه ڤيڤ»؟ هل عليّ ذكره؟

بدأت المقابلة مع «ليمان بلو» الآن. لكن لا يبدو أنّها مهتمة بما يقوله زوجها. على الأرجح أنّها تعرفه عن ظهر قلب في أيّ حال. من المؤكّد أنّها هي التي اختارت له قميصه الأزرق السماوي، وربطة العنق الرماديّة، وسترته الجميلة التصميم المصنوعة من الصوف الناعم، والساعة التي يرتديها - ليست باهظة الثمن كثيرًا، حتى لا يبدو بمظهر المتباهي، ولكنّها ليست رخيصة أيضًا، لإظهار ما يجب من الاحترام لإحدى شركات الساعات الأساسيّة في البلاد.

أسأل إن كان لديها ما تقوله. تقول إنّها بصفتها أستاذة فلسفة مساعدة في جامعة جنيڤ، يسرّها التعليق، لكن بصفتها زوجة سياسي أُعيدَ انتخابه، سيكون من السخف أن تعلّق.

يبدو لي أنّها تستفزّني، لذا أقرّر أن أردّ لها الصاع صاعين.

أقول إنّني معجبة بكبريائها. وإنها عرفتْ أنّ زوجها كان على علاقة غراميّة بزوجة صديق، ومع هذا لم تُثِر فضيحة. ولا حتّى عندما نُشر الأمر في الصحف قُبيل الانتخابات.

«بالطبع لا. أنا أؤيّد العلاقات المنفتحة عندما تنطوي على جنسٍ رضائي يخلو من الحب».

أهي تُلمّح إلى شيء؟ لا يسعني النظر مباشرة إلى الفنارين الزرقاوين، عينيها. ألاحظ فقط أنّ تبرّجها خفيف. هي لا تحتاج إليه أصلاً.

تقول: «في الواقع، كانت فكرتي أن نكلّف مُخبرًا مجهولاً يُبلِغ الصحف في الأسبوع السابق للانتخابات. سرعان ما سينسى الناس الخيانة الزوجيّة، لكنّهم سيتذكّرون دومًا شجاعته في استنكار الفساد مع أنّه كان يُمكن للأمر أن يعود على حياته العائليّة بانعكاسات خطرة».

تضحك إزاء الجزء الأخير وتقول لي إنّ ما تقوله يجب ألاّ «يُدوّن في المحضر» بالطبع، ولا يُنشر قطعًا.

أقول إنّه بحسب أحكام الصحافة، على الناس أن يطلبوا ألاّ «يُدوّن شيء في المحضر» قبل أن يتكلّموا. يُمكن للصحافي عندئذٍ أن يوافق أو أن يرفض. لكن أن يُطلب ذلك بعد الكلام هو كمثل محاولة إيقاف ورقة سقطت في النهر، وبدأت تجري حيثما تختار المياه أخذها. لم يعد القرار قرار الورقة.

«لكنّك لن تكرّري الكلام، أليس كذلك؟ أنا واثقة بأنّك غير مهتمّة ولو قليلاً بتشويه سمعة زوجي».

قبل انقضاء خمس دقائق على المحادثة، تظهر العداوة واضحة بيننا. لشعوري بالحرج، أوافق على أنّ أقوالها لن «تُدوّن في المحضر». وتقول إنّها في أيّ فرصة مستقبليّة مشابهة، سوف تسأل أولاً. هي تتعلّم شيئًا جديدًا كلّ دقيقة. تقترب وتقترب من طموحها كلّ

دقيقة. نعم، طموحها، لأنّ جاكوب قال إنّه غير سعيد في الحياة التي يعيشها.

هي تحدّق إليّ. أقرّر أن أستأنف دوري كصحافيّة وأسأل إن كان لديها ما تضيفه. هل نظّمت حفلة في المنزل للأصدقاء المقرّبين؟

«بالطبع لا! تخيّلي مدى العمل الشاقّ الذي يستدعيه ذلك، ناهيك بأنه قد انتُخب من قبل. فالحفلات ودعوات العشاء تتم قبل الانتخابات، لاستدراج الأصوات».

من جديد، أشعر بأنني مخبولة كلياً، لكن عليّ أن أطرح سؤالاً واحدًا آخر على الأقل:

هل جاكوب سعيد؟

وأعرف أنّني أصبتُ الهدف. ترمقني مدام كونيش بنظرة متعالية وتُجيب ببطء، كما لو أنّها معلّمة تُعطيني درسًا:

«بالطبع. لماذا، بحق السماء، لا يكون سعيداً؟».

تستحقّ هذه المرأة أن تُجرّ وتقطّع أوصالها.

تُقاطع كلتانا في الوقت نفسه. يقاطعني أحد المساعدين لتعريفي بالفائزة، ويقاطعها أحد معارفها لتقديم تهنئة إليها. أقول إنّ لقاءها سرّني وأشعر برغبة في القول إنّني أودّ، في فرصة أخرى، أن أتعمّق في قصدها من الجنس بالتراضي مع زوجة صديق، مع تأكيد «عدم تدوين ذلك في المحضر، طبعًا»، لكن لا يُتاح لي الوقت. أعطيها بطاقة العمل التعريفيّة الخاصّة بي في حال احتياجها إلى الاتصال بي، لكنّها لا تبادلني الأمر. وقبل أن أبتعد، تُمسك بذراعي، على مرأى المساعد والرجل الذي حضر ليهنّئها على فوز زوجها، وتقول:

«لقد رأيت تلك الصديقة المشتركة والتي تناولت الغداء مع زوجي. أشعر بالأسف الشديد حيالها. تدّعي القوّة، لكنّها في الواقع هشّة جدًّا. تدّعي الثقة، لكنّها تصرف كلّ وقتها وهي تسأل نفسها عن ظن الناس بها وبعملها. لا بُدّ أنّها إنسانة وحيدة جدًا. كما تعلمين يا عزيزتي، نحن النسوة نملك حاسّة سادسة فذّة متى تعلّق الأمر بكشف أيّ شخص يُشكّل تهديدًا لعلاقتنا. ألا توافقينني الرأي؟».

أقول بالطبع، ببرودة تامّة. يبدو المساعد نافد الصبر. الفائزة بالانتخابات تنتظرني.

تختم ماريان: «لكنّ فرصتها معدومة».

ثمّ تمدّ يدها، التي أصافحها كما يجب، وتذهب، من دون أن تقول أيّ كلمة أخرى.

أصرف صباح الإثنين بأكمله وأنا أحاول الاتّصال بجاكوب عبر هاتفه المحمول الشخصي. أعجز عن ذلك. أُفعّل خدمة الحظر على رقمه، مفترضةً أنّه فعل الأمر نفسه برقمي. أحاول الاتصال به مجدّدًا، لكنّني لا أوفّق.

أتّصل بمعاونيه. يُقال لي إنّه شديد الانشغال بعد الانتخابات. ولكنّني أحتاج إلى مكالمته. أستمرّ في المحاولة.

أتبنّى استراتيجيّة غالبًا ما يتعيّن عليّ اللجوء إليها: أستعمل هاتف شخص آخر لا يكون رقمه على لائحة معارفه.

يرنّ الهاتف مرّتين، ويردّ جاكوب.

هذه أنا. عليّ أن أراك. الأمر طارىء.

يُجيب جاكوب بتهذيب، ويقول إنّ اللقاء مستحيل اليوم، لكنّه سيعاود الاتصال بي. يسأل:

«أهذا رقمك الجديد؟».

لا، استعرت الهاتف من أحدهم لأنّك لم تكن تردّ على اتّصالاتي.

يضحك. أتصوّر أنّه محاط بالناس. هو يُجيد الادّعاء بأنّه يتكلّم في أمرٍ شرعي تمامًا.

التقط أحدهم صورة لنا في المتنزّه ويحاول ابتزازي. أقول له ذلك كذبًا. سأقول إنّ الذنب كلّه ذنبك، إنّك أنتَ من شدّني إليه.

ستخيب ظن الذين انتخبوك واعتقدوا أنّ علاقتك الغراميّة المؤخّرة خارج الزواج كانت وحيدة وعابرة. قد تكون قد انتُخبت عضواً في المجلس الاتحادي، لكنّك قد تفوّت فرصة أن تصبح وزيرًا.

«هل أنت بخير؟».

أقول نعم، وأنهي المكالمة فقط بعد الطلب إليه أن يرسل إلي رسالة نصيّة يؤكّد منها مكان لقائنا في الغد وزمانه.

أشعر أنني بخير.

لمَ لا أكون كذلك؟ حصلتُ أخيرًا على ما يملأ حياتي المملّة. ولن تملأ ليالي سهدي أفكار مجنونة: الآن أعرف ما أريده. لديّ عدوّة أدمّرها وهدف أحققه.

إنه رجل.

ليس الحب (أو هو كذلك؟)، لكن لا يهمّ. حُبّي ملكي وأنا حرّة في أن أقدّمه إلى من أختار، حتّى وإن كان أحادي الطرف. بالطبع، سيكون رائعًا لو كان متبادلاً، لكن ما الهمّ إن لم يكن كذلك. لن أتوانى عن حفر هذه الحفرة، لأنّني أعرف أنّ الماء يجري تحتها.

مياه عذبة.

تسرّني الفكرة الأخيرة: أنا حرّة في أن أحب أيّ شخص في العالم. يمكنني أن أقرّر من يكون من دون طلب الإذن. كثيرون هم الرجال الذين وقعوا في حبّي ماضيًا ولم أبادلهم إيّاه. ومع هذا، ظلّوا يرسلون إليّ الهدايا، يتودّدون إليّ، يَقْبلون الذلّة أمام الأصدقاء. ولم يغضبوا يومًا.

كلّما رأوني، ترقرقت عيونهم ببريق الغزو الفاشل. سيواظبون على المحاولة بقية حياتهم.

إذا كان باستطاعتهم فعل ذلك، فلِمَ لا أفعله أيضًا؟ من المشوِّق الكفاح من أجل حبٍّ من طرف واحد تمامًا.

قد يخلو من المتعة. قد يترك نَدَباتٍ عميقة ودائمة. لكنّه مشوِّق، خصوصًا لإنسانة تخشى، منذ سنوات، ركوب المخاطر. وبدأ يرعبها احتمال أن تتغيّر الأمور من دون أن تتمكّن من السيطرة عليها.

لن أكبت مشاعري بعد الآن. هذا التحدّي خلاصي.

منذ ستّة أشهر، اشترينا غسّالة ثياب جديدة واضطررنا إلى تغيير التمديدات في غرفة الغسيل. وكذلك تغيير البلاط، ودهن الجدران. في النهاية، بدت أجمل بكثير من المطبخ.

ومنعاً لأي تباين فاضح، اضطررنا إلى تغيير المطبخ. ثمّ لاحظنا أنّ غرفة المعيشة بدت قديمة وباهتة. لذا جدّدنا غرفة المعيشة، التي بدت عند ذاك أبهى من غرفة المكتب الذي لم نلمس قطعة فيه منذ عشر سنوات. لذا، انتقلنا إلى العمل على غرفة المكتب. تدريجًا، انتشر التجديد في أنحاء البيت كلّه.

آمل ألاّ يحدث الأمر نفسه لحياتي. آمل ألاّ تؤول الأمور الصغيرة إلى تحوّلات هائلة.

أصرف وقتًا طويلاً جدًا أفتّش فيه عن مزيدٍ من المعلومات المتعلقة بماريان، أو مدام كونيش، كما تدعو نفسها. وُلدت في كنف أسرة ثريّة، شريكة في إحدى أكبر شركات تصنيع الأدوية في العالم. في الصور على الإنترنت، تبدو دومًا بالغة الأناقة، سواء أكانت في حدث اجتماعي أو رياضي. لا تتأنّق أكثر أو أقلّ ممّا تستدعيه المناسبة. لن تلبس يومًا سروال ركض للذهاب إلى «نيون» أو فستان فيرساتشي لارتياد نادٍ ليلي مليء بالشبّان، كما فعلت.

من المحتمل أنّها المرأة المحسودة أكثر من غيرها في جنيف وحواليها. فهي ليست وارثة ثروة فحسب، بل هي متزوّجة من سياسيّ واعد، ولها مسيرتها المهنيّة الخاصّة أيضًا بوصفها جامعية مساعدة في مادة الفلسفة. كتبت أطروحتين لشهادة الدكتوراه، إحداهما «سرعة التأثّر والذُهان لدى المتقاعدين» (صادرة عن «إديسيون أونيڤرسيتيه دو جنيڤ»). ولها مقالان منشوران في الدوريّة العالية الشأن «ليه رانكونتر»، حيث ظهر بين صفحاتها، أدورنو وپياجيه من بين آخرين. لديها صفحة خاصّة بها على موقع «ويكيپيديا» بنسخته الفرنسيّة، مع أنّها لا تُحدَّث غالبًا. توصف فيها بأنها «خبيرة في شؤون العدائيّة، والنزاع، والمضايقات في دور الرعاية في القسم الناطق بالفرنسية في سويسرا».

لا بُدّ أنّها على دراية عميقة بعذابات الإنسان ونشواته. عميقة جدًا حتّى إن ممارسة زوجها «الجنس بالتراضي» لم يصدمها.

لا بُدّ أنها مخطّطة استراتيجيّة ألمعيّة لكي تنجح في إقناع صحيفة سائدة بأن تصدّقها، هي المُخبر المجهول الهويّة. (في العادة، هؤلاء لا يؤخذون على محمل الجدّ أبدًا. ثمّ إنهم نادرون في سويسرا). أشكّ في أنّها عرّفت بنفسها على أنها مصدر.

إنّها إنسانة متلاعبة استطاعت تحويل شيء كان بإمكانه أن يدمّر مسيرة زوجها المهنيّة، إلى عِبرة في التسامح الزوجي والاتّحاد، وكذلك الكفاح ضدّ الفساد.

إنّها رؤيويّة وذكيّة بما يكفي للانتظار قبل إنجاب الأولاد. لا يزال لديها وقت. في هذه الأثناء، يمكنها أن تبني المسيرة المهنيّة التي تريد من دون أن يزعجها بكاء الأطفال في منتصف الليل أو الجيران الذين يقولون إنّ عليها أن تتخلّى عن عملها وتوجيه مزيد من الاهتمام إلى الأولاد (كما يقول جيراني).

لديها حسّ غريزي ممتاز، ولا تراني أشكّل تهديداً لها. على الرغم من المظاهر فإني الشخص الوحيد الذي يشكل خطراً عليّ.

هي بالضبط نوع المرأة الذي أودّ تدميره بلا شفقة.

لأنّها ليست بائسة فقيرة ما، لا تحمل ترخيص إقامة وتستيقظ في الخامسة فجرًا لكي تنتقل إلى المدينة، مرعوبة من أن يُكشف أمرها ذات يوم باعتبارها غير شرعيّة. لأنّها ليست امرأة مرفّهة ومتزوّجة من شخصيّة رسميّة رفيعة المقام في الأمم المتّحدة، تُشاهَد على الدوام في حفلات لتُظهر للعالم كم هي ثرية وسعيدة (مع أنّ الكلّ يعلم أنّ لزوجها عشيقةً تصغرها بعشر سنوات). ولأنّها ليست عشيقة

شخصيّة رسميّة رفيعة المقام في الأمم المتّحدة، حيث تعمل، وحيث مهما حاولت جاهدة، فلن يُعترف بجهودها يومًا لأنّها «على علاقة غراميّة بالمدير».

هي ليست رئيسة تنفيذيّة وحيدة ونافذة اضطرّت إلى الانتقال إلى جنيف لكي تكون على مقربة من المقرّ الرئيس لمنظمة التجارة العالميّة، حيث يتعرّض الجميع للتحرّش الجنسي في مكان العمل، إلى حدّ خطير لا يجرؤ أحد معه على النظر في عين الآخر. وفي الليل، هي لا تستلقي محدّقة إلى سقف القصر الذي استأجرته، مستأجرة أحيانًا مرافقًا ليُلهيها ويُنسيها أنّها ستصرف باقي حياتها من دون زوج ولا أولاد ولا حبيب.

لا، ماريان لا تُصنّف في أيّ من تلك الفئات. فهي المرأة الكاملة.

أنام بصورة أفضل. سألتقي جاكوب قبل نهاية الأسبوع، هذا على الأقلّ ما وعدني به، وأشكّ في أنّه سيتحلّى بالشجاعة لتغيير رأيه. بدا عصبيًا في أثناء محادثتنا الهاتفيّة يوم الإثنين.

يعتقد زوجي أنّ السبت الذي قضيناه في «نيون» أفادني. هو لا يدري أنّني هناك اكتشفتُ ما يكدّرني حقًا: الافتقار إلى الشغف والمغامرة.

من الأعراض التي لاحظتها على ذاتي نوع من قصر النظر النفسي. عالمي، الذي بدا يومًا واسعًا جدًا ومليئًا بالاحتمالات، بدأ ينكمش فيما كبرت حاجتي إلى الأمان. لِمَ ذلك؟ لا بُدّ أنّها صفة ورثناها من أسلافنا الذين عاشوا في الكهوف. المجموعات تؤمّن الحماية؛ أما المنفردون، فيموتون.

على الرغم من عِلمنا أنّ المجموعة تعجز عن التحكّم بكلّ شيء- مثل تساقط شعرك أو خليّة في جسمك تجنّ فجأةً وتتحوّل إلى ورم- فإن شعور الأمان الزائف ينسينا هذا. كلّما اتّضحت لنا أسوار حياتنا، كان ذلك أفضل. حتّى لو كان مجرّد سور نفساني، حتّى لو كنّا في الصميم نعلم أنّ الموت سيدخل من دون طرق الباب، فمن المريح أن ندّعي أنّ كلّ شيء تحت سيطرتنا.

مؤخّرًا، كان ذهني هائجًا وعاصفًا كالبحر. عندما أستعيد ذلك الآن، يبدو لي كأنّني أقوم برحلة عبر المحيط في عوّامة بدائيّة،

في خضمّ بحر مائج. هل سأنجو؟ أسأل نفسي ما دامت العودة مستحيلة.

طبعًا سأنجو.

سبق أن نجوت من عواصف. كما أنّني وضعت لائحة بالأمور التي عليّ التركيز بها كلّما شعرت بأنّني في خطر أن أهوي من جديد في الثقب الأسود:

- اللعبُ مع ولديّ، وقراءة حكايات لهما تزوّدهما وتزوّدني بعبرة، لأنّ الحكايات خالدة.

- رفْعُ بصري إلى السماء.

- شربُ الكثير من المياه المعدنيّة. قد يبدو الأمر تافهًا، لكنّها تنعشني دومًا.

- الطهو. الطهو أجمل الفنون وأكثرها كمالاً. هي تُشرك حواسنا الخمس، إضافة إلى أمر آخر- الحاجة إلى أن نعطي أفضل ما عندنا. هي علاجي المفضّل.

- كتابة لائحة بالتذمّرات. كان هذا اكتشافًا حقيقيًّا! كلّما شعرت بالغضب حيال شيء ما، قمت بالتعبير عن ذلك كتابة. في نهاية اليوم، عندما أقرأ اللائحة، أدرك أنّني غضبت سدىً.

- الابتسام، حتّى إن كنت أشعر برغبة في البكاء. هذه أصعب النقاط في لائحتي، لكنّك تألفها مع مرور الوقت. يقول البوذيّون إنّ الابتسامة الجامدة، مهما تكن مصطنعة، تُبهج الروح.

- الاستحمام مرّتين في اليوم، بدلاً من مرّة. الاستحمام يجفّف البشرة بسبب الماء الكلسيّة والكلور، لكنّه نافع، لأنّه يغسل الروح.

لكنّ ذلك ينجح الآن، فقط لأنّ لي هدفًا: أن أفوز بقلب رجل. أنا نمرة مطوّقة ولا مجال لي للهرب؛ الهجوم هو الخيار الوحيد المتبقّي لي.

أخيرًا أحصل على موعد: غدًا عند الثالثة بعد الظهر في مطعم نادي غولف جنيف في «كولوني». كان ممكنًا أن يكون اللقاء في مقهى في المدينة أو مشرب في أحد الشوارع التي تتفرّع من الشارع التجاري الرئيس في المدينة (ويمكن القول إنّه الشارع الوحيد)، لكنّه اختار المطعم في نادي الغولف.

في قلب فترة ما بعد الظهر.

لأن المطعم، في تلك الساعة، سيكون فارغًا وسنحظى بخصوصيّة أكبر. عليّ أن أختلق ذريعة جيّدة لمديري، لكن لا مشكلة في ذلك. في النهاية، فإن المقالة التي كتبتها عن الانتخابات اعتمدتها صحف أخرى عدّة.

مكان بعيد عن الأنظار، هكذا فكّر على ما يبدو. لكن بالنظر إلى هوَسي المعهود في تصديق ما أريده، أراه رومنسيًا لوّن الخريف الشجرَ بظلال ذهبيّة كثيرة، وقد أدعو جاكوب إلى التمشّي. أفكّر أفضل وأنا أتحرّك، خصوصًا عندما أركض، كما ثبت الأمر في «نيون»، لكنّني أشكّ جدًا في أنّنا قد نركض ولو خطوة.

ها، ها، ها.

الليلة عند العشاء تناولنا الجبنة المذوّبة التي نسمّيها نحن السويسريين «راكليت»، ترافقها شرائح رقيقة من لحم الثور النيء

وطبق بطاطس «الروستي» التقليديّ مع الكريما. سألت عائلتي إنّ كنا نحتفي بأمر مميّز، وقلت إن هذا صحيح، فبمجرد أن نكون معاً ويمكننا أن نستمتع بعشاء هادىء والواحد منا بصحبة الآخر فهذا احتفال. ثمّ استحممت مرة ثانية اليوم، وسمحتُ للماء بأن يغسل قلقي. بعدها، دهنتُ نفسي بكثير من الكريم المرطّب وتوجّهتُ إلى غرفة ولديَّ لأقرأ لهما حكاية. وجدتهما ملتصقين بجهازيهما اللوحيَين. أرى أن من الضروري منع اقتناء هذا الجهاز لمن هم دون الخامسة عشرة من العمر.

طلبتُ إليهما أن يطفئا جهازيهما، وأطاعا على كُره. تناولتُ كتابًا من الحكايات التقليديّة، فتحته عشوائيًّا، وبدأتُ بالقراءة.

في خلال العصر الجليدي، ماتت حيوانات عدّة بسبب البرد، فقرّرت قوارض الشياهم أن تتجمّع لتتبادل الدفء والحماية.

غير أنّ أشواك الواحد منها أو أرياشه ظلّت تنغرز في رفاقه الموجودين معه. وتحديدًا تلك التي كانت تؤمن الدفء الأكبر. فتفرّقت.

ومن جديد، مات من البرد عدد منها.

اضطرّت إلى الاختيار: إمّا المجازفة والتعرّض للانقراض أو تحمّل أشواك نظيرتها من الشياهم.

اتخذت قراراً حكيماً جداً هو أن تحتشد.

تعلّمت أن تتعايش مع الجروح البسيطة التي أصابها بها أهلها لأن الأهم هو البقاء، الذي تشاركت فيه بدفء.

يريد الولدان أن يعرفا إن كان بإمكانهما رؤية شيهم حقيقي.

«هل هي موجودة في حديقة الحيوانات؟».

لا أعرف.

«ما العصر الجليدي؟».

زمن كان باردًا، باردًا جدًا.

«مثل الشتاء؟».

نعم، لكنّه كان شتاء لا ينتهي.

«لكن لماذا لم تنزع أشواكها الواخزة قبل أن تتحاضن؟».

يا إلهي، كان الأجدر بي أن أختار حكاية أخرى. أطفىء الضوء وأقرّر أن أغنّي لهما حتّى يناما أغنية تقليديّة من أحد أرياف الألب، مُداعِبةً شعرهما وأنا أغنّي. يغفوان سريعًا.

يأتيني زوجي بالڤاليوم. رفضت دومًا تناول أيّ دواء لأنّني أخشى أن أدمنه، لكن عليّ أن أكون بأفضل حالاتي في الغد.

أتناول حبّة العشرة مليغرامات وأنام نومًا عميقًا يخلو من الأحلام. أنام الليلة كلّها.

أصل إلى هناك باكرًا، وأتوجّه مباشرةً إلى النادي ومنه إلى الحديقة. أسير نحو الأشجار في أقصى المكان، عازمةً على الاستمتاع إلى أبعد حدّ بعصر هذا اليوم الجميل.

الشجن. هي أوّل كلمة تخطر لي عندما يحلّ الخريف لمعرفتي أنّ الصيف قد انقضى. ستصبح الأيّام أقصر، ونحن لا نحيا في عالم الشياهم الساحر من العصر الجليدي؛ لا نتحمّل أن تجرحنا أشواك الآخرين، ولو قليلاً.

نسمع منذ الآن أخباراً عن أشخاص في بلدان أخرى يموتون من البرد، عن زحمة السير على طرقات سريعة مكسوّة بالثلج، عن مطارات أُقفلت. تُشعل النيران وتؤخذ الملاءات من الخزائن. لكن يحدثُ هذا فقط في العالم الذي صنعناه نحن البشر.

في الطبيعة، يبدو المنظر أخّاذًا. الأشجار التي بدت متشابهة من قبل، تتّخذ كلٌّ شخصيّتها وتلوّن الغابة بألف ظلّ مختلف. بلوغ المنتهى هو أحد أجزاء دورة الحياة. سيرقد كلّ شيء بعض الوقت ثمّ ينبعث في الربيع، بشكل زهر.

ما من وقت أفضل من الخريف لنبدأ بنسيان الأمور التي تكدّرنا، لندع أنفسنا تتساقط مثل ورق الشجر الجافّ. ما من وقت أفضل لنرقص من جديد، لنستفيد ما أمكن من كلّ ذرة من شعاع

الشمس، وندفىء الروح والجسم بشعاعاتها قبل أن تغيب وتُصبح مجرّد بصيص في السموات.

أراه يصل. يبحث عنّي في المطعم وعلى الشرفة، ويذهب أخيرًا إلى النادل عند المشرب. يشير باتّجاهي. رآني جاكوب، وها هو يلوّح لي. ببطء، أشرع في المشي عائدةً إلى النادي. أريد أن يقدّر فستاني، وحذائي، وسترتي الخفيفة العصريّة، ومشيتي. قد يكون قلبي على وشك أن يخرج من أضلعي، لكن عليّ أن أحافظ على هدوئي.

أفكّر في الكلمات التي عليّ قولها. ما السبب الغامض الذي قدّمته للّقاء من جديد؟ لـمَ التراجع الآن فيما نعلم أن أمرًا يجري بيننا؟ أنخشى التعثّر والسقوط، كما فعلنا من قبل؟

وأنا أمشي، أشعر وكأنّني أدخل نفقًا لم أدخله من قبل، نفقًا ينقلك من التصلّب إلى الشغف، من السخرية إلى الاستسلام.

ما الذي يفكّر به وهو يراقبني؟ هل أوضح له أن علينا طرد الخوف وإنْ كان الشرّ موجوداً، فسنجده في مخاوفنا؟

الشجن. تحوّلني هذه الكلمة إلى إنسانة رومنسيّة، وتُعيد إليّ شبابي مع كلّ خطوة أخطوها.

أواصل التفكير في ما عليّ قوله عندما أبلغ الطرف الذي يقف عنده. لا، أفضّل ألاّ أفكّر، وأن أدع الكلمات تخرج طبيعيًا. هي بي. قد أنكرها أو أتقبّلها، لكنّها أقوى من حاجتي إلى التحكّم بكلّ شيء.

لـمَ لا أريد أن أسمع كلماتي قبل أن أقولها له؟

أهو الخوف؟ لكن ما الذي سيكون أسوأ من عيش حياة حزينة، رمادية، تتشابه أيّامها؟ ما الأسوأ من خوفي أن يختفي كلّ شيء، بما

فيه روحي، وتتركني وحيدة تمامًا في هذا العالم فيما كان لديّ ذات يوم كلّ ما أحتاج إليه لأسعد؟

أرى الأوراق تتساقط، تظلّل أشكالها أشعة الشمس. يحدث الأمر ذاته داخلي: مع كلّ خطوة أخطوها، يسقط حاجز آخر، يُدمَّر دفاع آخر، تنهار جدران أخرى، وقلبي، المستتر خلفها كلّها، يبدأ برؤية نور الخريف والاستمتاع به.

عن أيّ أمور سنتحادث؟ عن الموسيقا التي استمعتُ إليها في السيارة وأنا في طريقي إلى هنا؟ عن حالة الإنسان بكلّ تناقضاتها، السوداويّة كما الخلاصيّة؟

سنتحدّث عن الشجن، وسيقول إنّها كلمة حزن. سأقول لا، إنها تحمل الحنين، تصف شيئًا منسيًّا، هشًّا، كما نكون جميعًا عندما ندّعي عجزنا عن رؤية الطريق التي آلت الحياة بنا إليها من دون سؤال أو استئذان؛ عندما ننكر قدَرَنا لأنّه يقودنا إلى السعادة، في حين أنّ كلّ ما نريده هو الأمان.

بضع خطوات بعد، بضعة حواجز منهارة بعد. مزيد من النور يتدفّق إلى قلبي. لا يخطر لي حتّى أنّ أحاول التحكّم بكلّ شيء، بل أن أستمتع بهذا العصر الذي لن يتكرّر. لستُ مضطرّة إلى إقناعه بشيء. إذا لم يفهم الآن، فسيفهم لاحقًا. إنّها مسألة وقت.

على الرغم من البرد، سنجلس على الشرفة لكي يتمكّن من التدخين. بدايةً، سيكون دفاعيًّا، راغبًا في معرفة أمر الصورة التي التُقطت في المتنزّه.

سنتحدّث عن إمكانيّة وجود حياة على كواكب أخرى، وعن

وجود الله، الذي ننساه غالبًا في نمط الحياة الذي نتبعه. سنتحدّث عن الإيمان والمعجزات واللقاءات المرسومة حتّى قبل أن نولد.

سنناقش النزاع الأزلي بين العِلم والدين. سنتحدّث عن الحبّ، وكيف يُرى دومًا على أنّه مرغوب ويحمل تهديداً. سيُصرّ أنّ تعريفي للشجن مغلوط، لكنّني سأرتشف الشاي بصمت، وأنا أشاهد الشمس خلف جبال جورا وأشعر بالسعادة لأنّني حيّة.

وسنتحدّث عن الأزهار أيضًا، وإن كانت الأزهار الوحيدة التي باستطاعتنا رؤيتها هي تلك التي تزيّن المشرب في الداخل، تلك التي جاءت من دفيئة شاسعة حيث يُزرع الزهر بالجملة. لكن من الجيّد التحدّث عن الأزهار في الخريف. يمدّنا ذلك بأمل الربيع.

فقط بضع خطوات بعد. سقطت الجدران كلّها. وها قد وُلدت مجدّدًا من فوري.

أصل إلى الطرف الذي يقف عنده، ونتبادل قبلات التحيّة الثلاث المعهودة- الخدّ الأيمن، الخدّ الأيسر، الخدّ الأيمن، كما تقضي التقاليد السويسريّة (مع أنني كلّما سافرت إلى الخارج، يُفاجأ الناس بهذه القبلة الثالثة). أستشعر مدى عصبيّته وأقترح أن نجلس عند الشرفة؛ سنتمتّع بخصوصيّة أكبر ويُمكنه أن يدخّن. النادل يعرفه. يطلب جاكوب كامپاري مع الماء الفوّار، وأطلب الشاي، كما خطّطت.

لأُريحه، أبدأ بالحديث عن الطبيعة، عن الأشجار، وعن روعة أن ندرك أنّ كلّ شيء يتغيّر باستمرار. لمَ نحاول أن نكرّر النمط نفسه دومًا؟ إنّه مستحيل. إنّه غير طبيعي. ألن يكون من الأفضل أن نرى التحدّيات على أنّها مصدر معرفة، لا على أنها عدوّ؟

لا يزال يبدو عصبيًا. يُجيب آليًا، كما لو أنّه يريد إنهاء الحديث، لكنّني لن أسمح له. إنّه يوم فريد من حياتي ويجب أن يلقى الاحترام. أواصل الحديث عن الأفكار المختلفة التي خطرت لي وأنا كنت أمشي، الكلمات التي لم يكن لي سيطرة عليها. أنا مذهولة لأراها تنبثق بهذه الدقّة.

أتكلّم عن الحيوانات الأليفة، وأسأل إن كان يستوعب لـمَ الناس يحبّونها كثيرًا. يُجيب جاكوب إجابة تقليديّة ثم أنتقل إلى الموضوع التالي الآتي: لـمَ يصعب جدًّا تقبّل اختلاف الناس؟ لـمَ توجد قوانين كثيرة تحاول خلق قبائل جديدة بدلاً من أن تتقبّل ببساطة أنّ الاختلافات الثقافيّة تجعل حياتنا أغنى وأكثر تشويقًا؟ لكنّه يقول إنّه تَعِبَ من الكلام في السياسة.

ثم أُخبره عن الحوض المائي الذي رأيته في المدرسة عندما أوصلت ولديّ إليها هذا الصباح. كان في داخله سمكة تدور وتدور، فقلت لنفسي: إنّها تعجز عن تذكّر نقطة البداية، ولن تبلغ النهاية أبدًا. لهذا نحن كالسمك في الأحواض المائيّة: هي تذكّرنا بأنفسنا، تتغذّى جيّدًا لكنّها تعجز عن تخطّي الجدران الزجاجيّة.

يُشعل سيجارة أخرى. أرى أنّ في المنفضة عُقبين. ثـمّ أدرك أنّني أتكلّم منذ وقت طويل في نشوة من النور والسلام بحيث أنّني لم أفسح له مجالاً للتعبير عن مشاعره. يودّ الحديث؟

يقول بحذر إذ لاحظ أنّني في مزاج حسّاس: «تلك الصورة التي ذكرتِ».

آه، الصورة. بالطبع، هي موجودة. محفورة في قلبي ولن يمحوها

سوى الله إن هو شاء. لكن تعال، ادخل لتراها بأمّ عينك، لأنّ الحواجز التي تحمي قلبي سقطت وأنا أسير نحوك.

لا تقل لي الآن إنّك تجهل الطريق، لأنّك مشيتها مرّات عدّة من قبل، في الماضي وفي الحاضر. نعم، صَعُبَ عليّ أن أتقبّل الأمر أولاً، وأتفهّم أنّك قد تتردّد. نحن متشابهان. لا تقلق، سأرشدك إليه.

بعد أن قلتُ كلّ هذا، يُمسك بيدي بنعومة ويبتسم، ثمّ يطعنني بسؤاله:

«لم نعد مراهقين. أنت إنسانة رائعة، وأعلم أن لديك عائلة جميلة. هل فكّرتِ في الاستشارة الزوجيّة؟».

أشعر بالضياع لحظة. ثمّ أنهض وأسير مباشرة نحو سيّارتي. لا دموع. لا كلمة وداع. لا نظرة إلى الخلف.

لا أشعر بشيء. لا أفكّر في شيء. أركب سيّارتي مباشرةً وأقود، لا أعرف إلى أين أتوجّه بالضبط. لا أحد ينتظرني في نهاية المسيرة. تحوّل الشجن إلى فتور. عليّ أن أجرّ نفسي للمتابعة.

بعد خمس دقائق، أكون خارج قلعة. أعرف ما حدث هنا؛ نفخت إحداهنّ الحياة في وحش بقي مشهورًا حتّى اليوم، مع أنّ قلّة تعرف اسم المرأة التي خلقته.

بوّابة الحديقة مقفلة، لكن ما الهمّ؟ يُمكنني أن أتسلّق السياج الشجري. أجلس على المقعد البارد وأتخيّل ما حدث عام ١٨١٧. أحتاج إلى أن ألهي نفسي، لأنسى كلّ شيء من قبل، وأركّز في شيء مختلف.

أتخيّل ذاك العام، عندما قرّر ساكن القلعة، الشاعر الإنجليزي اللودر بايرون، أن يعيش هنا في المنفى. كان مكروهًا في بلاده، وكذلك في جنيف، حيث اتُّهم بإقامة حفلات عربدة وسكْر علنًا. لا بُد من أنّه كان يموت من الملل، أو الشجن، أو الغضب.

لا يهمّ. ما يهمّ أنّه في يومٍ من أيام العام ١٨١٧، وصل ضيفان من إنجلترا: شاعر آخر هو پيرسي بيش شيلي، وزوجته ماري التي كانت في التاسعة عشرة. (انضمّ إليهما ضيف ثالث، لكنّني أعجز عن تذكّر اسمه الآن).

لا شكّ في أنّهم تحدّثوا في الأدب. ولا شك في أنّهم تذمّروا من الطقس، والمطر، والبرد، وسكّان جنيف، ومواطني إنجلترا، وقلّة الشاي والويسكي. على الأرجح أنّهم تبادلوا تلاوة القصائد الشعريّة ومدح الواحد عمل الآخر.

ظنّوا أنّهم كانوا مميّزين للغاية ومهمّين للغاية حتّى أنّهم قرّروا الرهان على الرجوع إلى هذا المكان نفسه بعد سنة وكلّ منهم يحمل كتاباً من تأليفه يصف فيه الحالة البشرية.

من الواضح أنّهم بعد الحماسة الأوّليّة والحديث عن مدى عيب الإنسان التامّ، نسوا أمر الرهان.

كانت ماري حاضرة في أثناء الحديث. لم تُدعَ إلى المشاركة فيه، أولاً لأنّها امرأة، ثانيًا، وهو الأسوأ، أنها كانت فتيّة جدًا. ومع هذا، لا بُدّ من أنّ الحديث أثّر فيها بعمق. لمَ لا تكتب شيئًا لتصرف الوقت؟ كان لديها موضوع، كان عليها ببساطة أن تصوغه وتحتفظ بالكتاب لنفسها بعد الانتهاء منه.

مع ذلك، عندما عادوا إلى إنجلترا، قرأ شيلي المخطوطة وشجّعها على نشرها. وبما أنّه كان مشهورًا، قرّر أن يُسلّمها إلى ناشر ويكتب التمهيد بنفسه. مانعته ماري، لكنّها وافقت في النهاية بشرط واحد: ألاّ يظهر اسمها على الغلاف.

كانت الطبعة الأولى من خمسمئة نسخة بيعت كلّها بسرعة. فكّرت ماري أنّ تمهيد شيلي هو السبب على الأرجح، لكن في الطبعة الثانية، سمحت بورود اسمها على أنها المؤلفة. منذ ذلك الحين، لا تفرغ المكتبات عبر العالم من هذا الكتاب. ألهم كتّابًا، ومخرجي مسرحيّات، ومخرجي أفلام، ومُحتفين بعيد الهالوين، ومرتادي

حفلات التنكُر. وصفه مؤخّرًا أحد النقّاد المعروفين بأنه «أكثر أعمال الحركة الرومنسيّة إبداعًا في السنوات المئتين الماضية».

لا يستطيع أحد أن يفسّر السبب. لم يقرأه معظم الناس، ولكن سمع به الجميع تقريبًا.

هو يحكي قصّة ڤيكتور، وهو عالم سويسري، وُلد في جنيف وربّاه والداه ليفهم العالم عبر العِلم. عندما كان طفلاً، يرى صاعقة برق تضرب شجرة ويتساءل إن كان هذا ينبوع الحياة. أيمكن لإنسان أن يخلق إنسانًا آخر؟

وكأنك به نسخة حديثة من بروميثيوس، الجبّار الإغريقيّ الذي سرق النار من الآلهة لمساعدة جنس البشر (وضعت المؤلّفة العنوان الفرعي للكتاب «بروميثيوس الحديث». لكن قلّة تذكر ذلك)، يبدأ العمل ويحاول تقليد أعظم أعمال الله. غنيّ عن الذِكر، تخرج التجربة عن سيطرته على الرغم من حذره.

عنوان الكتاب هو: فرانكنشتاين.

ربّي العزيز، مَن أفكّر به لمامًا، لكن به أضع كلّ ثقتي، في الشدائد، هل جئتُ إلى هنا بالمصادفة المحض؟ أم أنّ يدك الخفيّة التي لا تعرف الصفح قادتني إلى هذه القلعة وذكّرتني بتلك القصّة؟

التقت ماري بشيلي عندما كانت في الخامسة عشرة. كان متزوّجًا، لكن من دون أن تردعها الأعراف الاجتماعيّة، تبعت الرجل الذي اعتبرته حبّ حياتها.

خمس عشرة سنة! وكانت تعرف بالضبط ما تريد. وكيف تحصل عليه كذلك. أنا في العقد الثالث من عمري، وأتمنّى أمورًا

مختلفة كلّ ساعة، لكنّني غير قادرة على تحقيقها...مع أنّني قادرة تمامًا على صرف عصر يوم خريفي رومنسي شجن، أفكّر في ما سأقول عند حلول اللحظة.

لستُ ماري شيلي. أنا ڤيكتور فرانكنشتاين ووحشه.

حاولتُ أن أنفخ الحياة في جماد، وستكون النتيجة كتلك التي في الكتاب: نشر الرعب والدمار.

لا دموع بعد. لا يأس بعد. أشعر أن قلبي قد كفّ عن الخفقان. يتصرّف جسمي على هذا الأساس، لأنّني أعجز عن الحركة. إنّه الخريف، المساء يحلّ سريعًا، وسرعان ما يأخذ الشفق مكان المغيب. بحلول الليل، لا أزال جالسة هنا أنظر إلى القلعة وأرى سكّانها يروّعون برجوازيّة جنيف بسلوكيّاتهم اللاأخلاقيّة في بداية القرن التاسع عشر.

أين صاعقة البرق التي بعثت الحياة في الوحش؟

لا يصعقني شيء. تتضاءل الزحمة التي لا تشتدّ في هذه المنطقة على أيّ حال. سيكون ولداي بانتظار عشائهما، وزوجي- الذي يعرف حالتي - سيبدأ بالقلق عليّ قريبًا. لكنّني أشعر كأنّ رجليّ مكبّلتان بسلسلة وكرة من حديد. لا أزال عاجزة عن الحركة.

أنا فاشلة.

هل ينبغي للمرء طلب الغفران لإيواء حبّ مستحيل داخله؟

لا، بالطبع لا.

لأنّ محبّة الله لنا هي أيضًا مستحيلة. لا نُبادله إيّاها في وقتها، ومع هذا، يستمرّ في محبّتنا. أحبّنا جدًا حتّى أنّه أرسل ابنه الوحيد ليشرح لنا كيف أنّ المحبّة هي القوّة التي تحرّك الشمس والكواكب بأسرها. في إحدى رسائل بولس الرسول إلى أهل كورينثوس (التي جعلونا نحفظها عن ظهر قلب في المدرسة)، يقول:

لَو كُنتُ أتكلَّمُ بلُغاتِ النَّاسِ وَالـمَلائِكَةِ وَليسَ عِنْدِي مَحَبَّةٌ، لَمَا كُنْتُ إلاَّ نُـحَاساً يَطِنُّ وَصَنْجاً يَرِنُّ.

وكلّنا نعلم السبب. نسمع غالبًا ما يبدو أنّها أفكار عظيمة لتغيير العالم، لكنّها كلمات تخلو من الشعور، من المحبّة. مهما تكن منطقيّة وفذّة، هي لا تؤثّر بنا.

يقارن بولس الرسول المحبّة بالنبوّة، بمعرفة الأسرار، والإيمان، والإحسان.

لـمَ المحبّة أهمّ من الإيمان؟

لأنّ الإيمان هو فقط الدرب الذي يقودنا إلى المحبّة العظمى.

لـمَ المحبّة أهمّ من الإحسان؟

لأنّ الإحسان تجلٍّ واحد من تجلّيات المحبّة. والكلّ دومًا أهمّ من

الجزء. والإحسان هو أيضًا درب من الدروب الكثيرة التي تستعملها المحبّة لتقريب الإنسان من الإنسان.

وكلّنا نعلم أنّ ثمّة إحساناً وافراً حولنا يخلو من المحبّة. كلّ أسبوع، تُقام «حفلة خيريّة». يدفع الناس ثروة لشراء المقاعد، والمشاركة، والسلوى وهم يرتدون حليّهم وملابسهم الباهظة. نغادر ونحن نظن أنّ العالم أصبح مكانًا أفضل بسبب المال الذي جُمِعَ من أجل المشرّدين في الصومال، أو اللاجئين اليمنيين، أو الجيّاع في إثيوبيا. نكفّ عن الشعور بالذنب إزاء مظاهر الفقر الوحشيّة، لكنّنا لا نتساءل أبدًا حول وجهة المال.

وأولئك الذين لا يعرفون الأشخاص المناسبين لارتياد حفلة خيريّة، أو أولئك الذين لا يستطيعون البذخ هكذا، سيمرّون بمتسوّل ويعطونه قطعة نقديّة. جيد. فهل هناك أسهل من أن نقذف بقطعة نقديّة لمتسوّل في الشارع؟ هو في العادة أسهل من عدم فعله.

يا لهذا الشعور بالارتياح، وبسبب قطعة نقديّة فقط! إنّها بخسة وتحلّ مشكلات المتسوّل.

لكن، لو كنّا نحبّه فعلاً، كنّا سنفعل أكثر بكثير لأجله.

أو لا نفعل شيئًا. لن نعطيه تلك القطعة النقدية- ومن يدري؟- قد يوقظ إحساسنا بالذنب إزاء فقر مماثل الحبّ الحقيقي بنا.

ثم يقارن بولس الرسول المحبّة بالتضحية والاستشهاد.

أفهم كلماته بشكل أفضل اليوم. حتّى إن كنت أكثر نساء العالم نجاحاً، وإن كنت موضع إعجاب وشهوة يفوقان ما لدى ماريان كونيش، فلا قيمة لذلك إن خلا قلبي من المحبّة. لا قيمة البتّة.

كلّما أجري مقابلات مع فنّانين أو سياسيين، عمّالًا اجتماعيين أو أطبّاء، متعلّمين أو موظّفين مدنيين، أسأل دومًا: «ما هدفك، ما غايتك؟». يقول بعضهم: إنشاء عائلة. يقول بعضهم الآخر: التقدّم في مسيرتي المهنيّة. لكن عندما أسبر أعمق، وأسأل مجدّدًا، تكون الإجابة التلقائيّة: جعل العالم مكانًا أفضل.

أرغب في الذهاب إلى جسر «مون بلان» في جنيف حاملةً بيانًا مطبوعًا بحروف ذهبيّة وأعطيه لكلّ مارّ ولكلّ سيّارة. سيُكتب عليه:

أطلبُ إلى كلّ من يأمل العمل يومًا لصالح الإنسانيّة ألّا ينسى هذا: حتّى إنْ سلّمتَ جسدك حتّى تحترق، فلن ينفعك في شيء إذا لم يكن عندك محبّة. لا شيء!

لا شيء ممّا نعطيه أهمّ من المحبّة المنعكسة في حياتنا. إنّها اللغة الكونيّة الوحيدة التي تسمح لنا بأن ننطق بالصينيّة أو بلهجات الهند. عندما كنت أصغر، كنت أسافر كثيرًا- كان ذلك جزءًا من الدمغة الانتقالية التي تطبع مراحل حياة كلّ متعلّم. زُرت بلدانًا ثريّة وأخرى فقيرة. لم أكن أجيد اللغة المحليّة، لكن حيثما حللت كانت بلاغة المحبّة الصامتة تساعدني على التعبير عن نفسي.

مُرسلة الحبّ تكمن في الطريقة التي أحيا حياتي بها، وليس في أقوالي أو في أفعالي.

في رسالته إلى أهل كورنثوس، يخبرنا بولس الرسول في ثلاثة أسطر موجَزة أنّ المحبّة مكوّنة من عناصر عدّة، مثل النور. نتعلّم

في المدرسة أنّنا إذا أخذنا موشورًا وسلّطنا شعاع ضوء عبره، سينقسم ذاك الشعاع إلى ألوانٍ سبعة، ألوان قوس قزح.

يُظهر لنا بولس الرسول قوس قزح المحبّة كما يُظهر لنا الموشور قوس قزح الضوء.

وما هي تلك العناصر؟ هي الفضائل التي نسمع عنها كلّ يوم والتي بوسعنا ممارستها كلّ دقيقة.

الصبر: المحبّة تصبر...

اللطف: ...وهي لطيفة.

الكرم: المحبّة لا تحسد...

التواضع: ....ولا تتفاخر، ولا تتكبّر.

اللياقة:....ولا تُقبّح.

الغيريّة: ولا تطلب ما لنفسها.

الدماثة: لا تحتدّ...ولا تبغض.

صفاء النيّة: ...ولا تبغض.

الصدق: لا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحقّ.

كلّ هذه العطايا تتعلّق بنا، بحياتنا اليوميّة، باليوم والغد، وليس بالأزل.

المشكلة هي أنّ الناس ينزعون إلى أن ينسبوا هذه الخصال إلى محبّة الله، لكن كيف تتجلّى محبّة الله؟ إنها تتجلّى عبر محبّة الإنسان.

لكي نعرف السلام في السموات، علينا أن نعرف الحبّ على الأرض. من دونه، نحن بلا قيمة.

أنا أحبّ، ولا يمكن لأحدٍ أن ينتزعه منّي. أحبّ زوجي، الذي يساندني. أعتقد أنّني أحبّ رجلاً آخر، التقيته في شبابي. وفيما كنت أسير نحوه، في عصر يوم من أيام الخريف الجميلة، أسقطتُ كلّ دفاعاتي وأعجز عن إعادة نصبها. أنا سريعة التأثر، لكنّني لا أندم على ذلك.

هذا الصباح، عندما كنت أشرب فنجان قهوة، نظرتُ إلى النور الخفيف في الخارج وتذكّرت تلك المشية، متسائلة للمرّة الأخيرة: هل أحاول أن أخلق مشكلة حقيقيّة لأُبعد مشكلاتي الخياليّة؟ هل أنا فعلاً مغرمة، أم أنّني حوّلت ببساطة كلّ المشاعر البغيضة التي انتابتني الشهر الماضي إلى استيهام؟

لا. لن يكون الله على هذا القدر من الإجحاف لكي يدعني أُغرم هكذا لو لم يكن ثمّة احتمال بأن يكون هذا الغرام متبادلاً.

لكن أحيانًا يطلب الحبّ أن تناضل من أجله. وهذا تمامًا ما سأفعله. سعيًا إلى العدالة، سوف أُبعد الشرّ بلا سخط أو عجلة. بعد أن تكون ماريان قد ولّت من وقت بعيد، ويكون جاكوب معي، سيشكرني بقية حياتنا.

أو، سيرحل مجدّدًا، لكن سيبقى لي الشعور بأنّني ناضلت بما أمكنني من قوّة.

أنا امرأة جديدة. أنا أسعى إلى شيء لن يأتيني بإرادته الحرّة. هو متزوّج ويعتقد أنّ أيّ زلّة قد تزعزع مسيرته المهنيّة.

إذًا، بما عليّ التركيز؟ بحل زواجه من دون أن يدرك ذلك.

سوف ألتقي تاجر مخدّرات للمرّة الأولى!

أعيش في بلد قرّر مسرورًا أن ينعزل عن العالم. عندما تقرّر

زيارة القرى المحيطة بجنيف، سرعان ما يتضح أن لا مكان لركن السيّارة، إلاّ إذا استعملت موقف أحد معارفك.

الرسالة هي: لا تأتوا إلى هنا يا دخلاء لأنّ منظر البحيرة في الأسفل، وجبال الألب المهيبة في الأفق، والزهر البرّي الذي يتفتّح في الربيع، ولون الكروم الذهبي في الخريف، كلّها إرث أسلافنا الذين عاشوا هنا في سلام كلّي. ونريد أن نُبقي الأمر على هذه الحال يا دخلاء، لذا لا تأتوا إلى هنا. حتّى وإن كنتَ قد ولدتَ ونشأتَ في المدينة المجاورة، لسنا مهتمّين بما لديك لتقوله. إذا أردت أن تركن سيّارتك، ابحث عن مدينة كبيرة، ملأى بالأماكن المخصّصة لذلك.

نحن معزولون تمامًا عن العالم، حتّى أنّنا لا نزال نعتقد بخطر حرب نووية. على كلّ المباني السويسريّة أن تُجهَّز بملاجىء تقي من الغبار الذرّي. حاول نائبٌ مؤخّرًا إبطال القانون، لكنّ البرلمان وقف في وجهه: نعم، قد لا تندلع حربٌ نووية أبدًا، لكن ماذا عن خطر الأسلحة الكيميائيّة؟ علينا أن نحمي مواطنينا. لذلك، لا تزال الملاجىء المكلفة التي تقي من الغبار الذرّي تُبنى، وتستخدم كأقبية للنبيذ ومساحات للتخزين فيما ننتظر تحقّق سفر الرؤيا.

مع هذا، ثمّة أمور نعجز عن منعها من تخطّي حدودنا رغم كلّ جهودنا في أن نبقى جزيرة سلام.

المخدّرات، مثلاً.

تحاول الحكومات الوطنيّة وضع اليد على المروّجين وتغضّ الطرف عن الشارين. قد نكون في جنّة، لكن ألا تضغطنا جميعًا زحمة السير، والمسؤوليات، ومواعيد التسليم القصوى، والضجر؟ المخدّرات تحفّز الإنتاجيّة (الكوكايين) وتُزيل التوتّر (الحشيش).

لذا، ولأنّنا لا نريد أن نضرب مثالاً سيّئًا للعالم، نمنعها ونسمح بها في آن.

لكن كلّما بدأت المشكلة بالتوسّع بشكل ملحوظ، يتمّ توقيف شخصيّة مشهورة أو علنيّة «مصادفة» في حوزتها مخدّرات. ينتهي الأمر بالقضيّة في وسائل الإعلام، ويكون الهدف منها ثني الشباب عن فعل ذلك، والإظهار للناس أنّ الحكومة مُسيطرة على الوضع. والويل لأولئك الذين يمتنعون عن التزام القانون!

يحدث هذا مرّة في السنة على أبعد تقدير. لكنّني لا أصدّق أنّ شخصًا مهمًّا يقرّر مرّة في السنة فقط أن يخرق الرتابة ويتوجّه إلى الممرّ التحتي أسفل جسر «مون بلان» لشراء البضاعة من التجّار الذين يظهرون في أوقات دقيقة مثل الساعة كلّ يوم. لو كانت تلك الحال، لكان التجّار قد ولّوا منذ زمن طويل لنقص الزبائن.

أصل إلى الممرّ التحتي. تذهب عائلات وتجيء فيما يلزم أشخاص مشبوهون أماكنهم، لا يُزعج واحدهم الآخر ولا يتجاوبون، إلاّ بمرور ثنائي يافع يتحدّث بلغة أجنبيّة، أو عندما يعبر شخص تنفيذي يرتدي بزّة، وسرعان ما يستدير لينظر في عيونهم.

إنّها المرّة الأولى التي أعبر بها الممرّ وأصل إلى الطرف الآخر. أتناول رشفة من المياه المعدنيّة وأتذمّر بشأن البرد لإنسانة أراها للمرّة الأولى. لا تردّ، غارقة في عالمها. أرجع ولا يزال الرجال أنفسهم في مكانهم. نتواصل بالنظرات، لكن لمرّة، يمرّ أشخاص كثر. إنّه وقت الغداء وعلى الناس أن يكونوا في المطاعم بأسعارها المبالغ بها التي تملأ المنطقة، محاولين عقد صفقة أعمال مهمّة أو استضافة السيّاح الذين أتوا إلى المدينة بحثًا عن عمل.

أنتظر قليلاً وأعبر الممرّ للمرّة الثالثة. أتواصل بالنظرات من جديد، ويطلب إليّ رجل بإيماءة خفيفة أن أتبعه. لم أتخيّل ولو ليوم في حياتي أن أفعل ما أفعل، لكن كانت هذه السنة غير اعتياديّة إلى حدّ أنّني لم أعد أجد تصرّفي غريبًا.

أدّعي اللامبالاة وألحق به.

نمشي دقيقتين بل ثلاثًا نحو الحديقة الإنجليزيّة. نمرّ بسيّاح يلتقطون صورًا أمام الساعة الزهريّة، أحد معالم المدينة.

ينتظرني لأقول شيئًا، لكنّني أخشى أن يرتجف صوتي على الرغم من هيئتي الواثقة. أظلّ على سكوتي وأجبره على اختراق الصمت:

«غانجا، كريستال، أسيد، أو بلوه؟».

أوكيه، ضعت. لا أعرف بمَ أُجيب. يحزر الرجل أنّني مبتدئة. لقد اختُبِرت ورسبت.

يضحك. أسأل إذا كان يظنّ أنّني مع الشرطة.

«بالطبع لا. ستعرف الشرطة على الفور ما أقصد».

أشرح أنّها المرّة الأولى التي أفعل بها هذا.

«واضح. امرأة متأنّقة مثلك لا تتكبّد عناء المجيء إلى هنا البتّة. يمكنك أن تطلبي إلى ابن أخيك أو ابن أختك، أو زميلك في العمل إعطاءك ما تبقّى في جعبته. لهذا أحضرتك إلى طرف البحيرة. تمّت الصفقة ونحن نمشي، وبالتالي لن أهدر الكثير من وقتي. لكنّني أريد أن أعرف عمّا تبحثين بالضبط، وإن كنت تحتاجين إلى نصيحة».

لم يكن يهدر وقته، لا بدّ أنّه كان يموت ضجرًا من الوقوف فحسب في ذاك الممرّ التحتي. في المرّات الثلاث التي عبرته خلالها، لم يأتِ ولو زبون مهتمّ.

«حسنٌ، سأكرّر بمفردات قد تفهمينها: أحشيش، أم أمفيتامين، أم إل إس دي، أم كوكايين؟».

أسأل إن كان لديه كراك أو هيروين. يقول إنّ هذين المخدّرين ممنوعان. أودّ أن أقول له إنّ تلك التي ذكرها ممنوعة أيضًا، لكنّني أعقد لساني.

أشرح: هي ليست لي. هي لعدوّ.

«أتقصدين الانتقام؟ تريدين قتل أحدهم بجرعة زائدة؟ أرجوك يا سيّدة، جدي شخصًا آخر».

يبدأ بالابتعاد، لكنّني أوقفه وأرجوه أن يصغي إليّ. ألاحظ أنّ اليأس سبق أن ضاعف السعر على الأرجح.

أشرح: على حدّ علمي، المعنيّة لا تتعاطى المخدّرات. لكنّها أذت علاقتي الرومنسية بشكل فادح. أريد فقط أن أنصب لها فخًا.

«هذا يخالف الأخلاقيّات الإلهيّة».

ما هذا؟ شخص يبيع المخدّرات ويُحتمل أنّه يبيع منتجات قاتلة، يحاول وضعي على الصراط المستقيم!

أحكي له قصّتي. أنا متزوّجة منذ عشر سنوات، لديّ ولدان رائعان. أملك وزوجي النوع نفسه من الهواتف الذكيّة، ومنذ شهرين، أخذتُ هاتفه عرضًا.

«ألا تستعملان رمز أمان؟».

بالطبع لا. يثق واحدنا بالآخر. أو ربمّا كان لديه رمز، لكنّه لم يكن مفعّلاً في تلك اللحظة. المهمّ أنّني وجدتُ نحو أربعمئة رسالة نصّية وصوراً عدّة لامرأة شقراء جذّابة تبدو غنيّة، بالنظر إلى الصور. فعلتُ ما لا ينبغي فعله. ثارت ثائرتي. سألته من هي، ولم ينكر الأمر. قال إنّها المرأة التي أحبّها. سُرَّ لاكتشافي الأمر قبل أن يُجبَر على إخباري.

«يحدث هذا غالبًا».

تحوّل التاجر من قسّ إلى مستشار أزواج! لكنّني أواصل السرد: بما أنّني متحمّسة للقصّة، أخبر ما أبتكره. طلبت إليه أن يغادر المنزل. وافق، وفي اليوم التالي تركني أنا والولدان للعيش مع حبّ حياته. لكنّها لم تستحسن الخطّة، إذ اعتقدت أن من الممتع أكثر أن تكون على علاقة برجل متزوّج أكثر من العيش مع زوج لم تختره.

«أنتنّ النساء! من المستحيل فهمكن!».

أعتقد ذلك أيضًا. أواصل قصّتي: قالت إنّها لم تكن مستعدّة للعيش معه وقطعت العلاقة. كما أتخيّل أن هذا ما يحدث غالبًا، عاد إلى المنزل يرجو المغفرة. غفرت له. في الواقع أردته أن يعود. أنا امرأة رومنسيّة، ولا أدري كيف أعيش من دون من أحبّ.

لكن الآن، بعد أسابيع قليلة فقط، لاحظتُ أنّه قد تغيّر مجدّدًا. لم يعد أحمق ليترك هاتفه في أي مكان، لذا من المستحيل أن أعرف إن كانا قد استأنفا العلاقة. لكنّني أشتبه بذلك. والمرأة- تلك الشقراء، التنفيذيّة المستقلّة، الساحرة والقويّة إلى حدّ الإغواء- تأخذ أهمّ ما في حياتي: الحبّ.

أيعرف ما الحبّ؟

«أفهم مرادك، لكنّه أمر خطير فعلاً».

كيف له أن يفهم وأنا لم أُنهِ شرحي بعد؟

«تريدين الإيقاع بهذه المرأة، لكنّنا لا نملك نوع البضاعة التي تطلبينها. لتنفيذ خطّتك، ستحتاجين إلى ثلاثين غرامًا من الكوكايين على الأقل».

يسحب هاتفه الذكي، يختار شيئًا، ويُريني إيّاه. إنّها صفحة من موقع CNN Money تُفصّل سعر المخدّرات. أتفاجأ، لكني أكتشف أنّه تقرير حديث عن الصعوبات التي تواجه الاتّحادات الاحتكاريّة الكبرى.

«كما ترين، سيكون عليك إنفاق خمسة آلاف فرنك سويسري. هل يستحقّ الأمر ذلك؟ ألن يكون أرخص أن تذهبي إلى منزل تلك المرأة وتجادلينها؟ كما أنها، بحسب ما فهمت، قد تكون غير مذنبة البتة».

كان قد تحوّل من قسّ إلى مستشار أزواج. والآن، من مستشار أزواج إلى مستشار مالي، محاولاً ثنيي عن صرف مالي بلا لزوم.

أقول إنّني أقبل المجازفة. أعرف أنّني على حقّ. لكن، لـمَ ثلاثون غرامًا وليس عشرة؟

«إنّه المقدار الأدنى للإيقاع بأحدهم على أنّه تاجر مخدّرات. والعقوبة أقسى كثيراً من العقوبة الواقعة على المتعاطين. هل أنتِ واثقة بأنّك تريدين فعل ذلك؟ لأنّك قد تتعرّضين للتوقيف في طريقك إلى المنزل، ولن يكون لك أي سبيل لتعليل وجود المخدّرات في حوزتك».

أكلّ تجّار المخدّرات هكذا، أم انّني وقعتُ بين يديّ شخصٍ مميّز؟

أودّ أن أقضي ساعات أتجاذب الحديث مع هذا الرجل. إنّه متمرّس وعارف. لكن من الواضح أنّه شديد الانشغال. يطلب إليّ أن أعود بعد نصف ساعة حاملةً المال نقدًا. أتوجّه إلى صرّاف آلي، متفاجئة بسذاجتي. بالطبع لا يحمل تجّار المخدّرات كمّيات كبيرة. وإلاّ سيُعتبرون تجّار مخدّرات!

أعود ويكون في انتظاري. أمدّ إليه المال خفية، ويُشير إلى سلّة نفايات.

«أرجوكِ لا تتركي البضاعة حيث يُمكن للمرأة أن تجدها، لأنّها قد ترتبك وينتهي بها الأمر إلى ابتلاعها. سيكون ذلك كارثيًا».

هذا الرجل فريد من نوعه؛ يفكّر في كلّ شيء. لو كان مديرًا تنفيذيًا لشركة متعدّدة الجنسيّات، لجمع ثروة من علاوات حملة الأسهم.

أفكّر في مواصلة الحديث، لكنّه ابتعد. أنظر مجدّدًا إلى سلّة النفايات. ماذا لو لم يكن فيها شيء؟ لكن لا، لهؤلاء الرجال سمعة يصونونها ولن يفعل أمرًا مماثلاً.

أمشي نحوها وأنا أنظر من حولي، آخذ المغلّف الأصفر من داخلها، أضعه في حقيبتي. وسرعان ما أركب سيّارة أجرة إلى مكاتب الصحيفة. سأتأخّر من جديد.

دفعتُ ثروة مقابل شيء لا وزن له تقريبًا.

لكن كيف لي أن أعرف أنّ هذا الرجل لم يخدعني؟ عليّ أن أكتشف بنفسي.

أستأجر فيلمين أو ثلاثة أبطالها مدمنون. يُفاجأ زوجي باهتمامي الجديد.

«أنت لا تفكّرين في فعل هذا، أليس كذلك؟».

بالطبع لا! إنّه مجرد بحث للصحيفة. على فكرة، سأتأخّر في العودة إلى المنزل غدًا. قرّرتُ أن أكتب مقالاً عن قلعة اللورد بايرون وعليّ أن أذهب إليها. لا داعي لأن تقلق.

«لستُ قلقًا. أعتقد أنّ الأمور تحسّنت كثيرًا منذ أن قضينا ذاك النهار في «نيون». علينا أن نسافر أكثر، ربّما سافرنا عشيّة رأس السنة. في المرّة المقبلة، سنترك الولدين مع والدتي. لقد كنت أكلّم أشخاصًا يفهمون هذا النوع من الأمور».

لا بُدّ من أنّ «الأمور» التي يقصدها هي ما يعتبره اكتئابي. مع مَن بالضبط كنت تتكلّم؟ مع صديق، سوف يُفشي ما في جوفه في الفرصة الأولى بعد أن يُسرف في الشرب؟

«لا، أبدًا. مع مستشار أزواج».

يا للفظاعة! كانت الاستشارة الزوجيّة آخر شيء سمعته عصر ذاك اليوم الرهيب في نادي الغولف. هل كانا يتحادثان من وراء ظهري؟

«ربمّا كنت السبب في مشكلتكِ. لا أوليك الانتباه الذي تستحقّينه. أنا أتحدّث دومًا عن العمل، أو الأمور التي علينا فعلها. فقدنا الرومنسيّة اللازمة للحفاظ على السعادة الأُسَريّة. رعاية الولدين لا تكفي. علينا أن نفعل أكثر من هذا ونحن لا نزال في شبابنا. من يدري، قد يكون في وسعنا أن نزور بلدة «إنترلاكن» مجدّدًا، حيث اتّخذنا رحلتنا الأولى بعد أن التقينا؟ يُمكننا أن نتسلّق «يونغفرو» ونستمتع بالمنظر الطبيعي من الأعالي».

مُستشار أزواج! هذا كلّ ما أحتاج إليه.

يُذكّرني الحديث مع زوجي بقولٍ قديم: لا أحد أعمى من ذاك الذي لا يريد أن يبصر.

كيف ظن أنّه أهملني؟ من أين خطرت له تلك الفكرة المجنونة؟ وكأنّني أرحّب به في الفراش باسطة ذراعيَّ وساقيَّ.

مرّ وقت منذ أن مارسنا الجنس بشدّة. في علاقة سليمة، يكون ذلك لاستقرار ثنائي أهم من التخطيط للمستقبل أو الحديث عن الأولاد. ترجع بي «إنترلاكن» إلى زمن كنّا فيه نجول في المدينة عند العصر، لأننا في الوقت المتبقّي كنا نحجز أنفسنا في الفندق، نمارس الحبّ ونحتسي النبيذ الرخيص.

عندما نحبّ أحدًا، لا نكتفي بمعرفة روح هذا الشخص، بل نريد أن نفهم جسمه أيضًا. أضروري؟ لا أعرف، لكنّ الغريزة تشجّعنا على ذلك. لا وقت محدّد لحدوثه، ولا قواعد يجب اتّباعها. لا شيء يضاهي لحظة الرؤيا تلك عندما يستسلم الحياء للجرأة، وتتحوّل التأوّهات الخافتة إلى زعيق وشتم. نعم، شتم. تغمرني حاجة طافحة إلى سماع الأمور المحرّمة «والقذرة» عندما يكون رجل داخلي.

في هذه اللحظات، تُطرح الأسئلة القديمة ذاتها: «هل أشدّ كثيرًا؟»، «هل عليّ أن أسرع أو أتمهّل؟». قد تبدو هذه الأسئلة غريبة أو مُزعجة، لكنّها جزء من فعل الافتتاح هذا، والفهم، والاحترام المتبادل. من المهمّ جدًا التحادث عند تكوين حميميّة مثاليّة. العكس سيعني الإحباط الصامت والكاذب.

ثمّ يأتي الزواج. نحاول الحفاظ على السلوكيّات ذاتها، وأحيانًا ننجح. في حالتي، دامت هذه السلوكيات إلى أن حملت المرّة الأولى، الأمر الذي حدث سريعًا. إلى أن ندرك فجأةً أنّ الأمور قد تغيّرت.

الجنس، من الآن فصاعدًا، يحدث ليلاً فقط، والأفضل قبل النوم مباشرةً. كما لو أنّه كان واجبًا، يقبل الطرفان من دون التساؤل إن كان الآخر في المزاج لذلك. إذا فُوّت الجنس، ينشأ الشكّ. لذا من الأفضل التزام الطقس المعهود.

إذا لم يكن ممتعًا، لا تقل شيئًا، ففي الغد قد يكون. في النهاية، نحن متزوّجان. لدينا الحياة بأكملها أمامنا.

استكشفنا كلّ شيء، ونحاول التلذّذ ما أمكن في الأمور ذاتها. إنّه كتناول الشوكولاتة كلّ يوم، من دون تغيير الماركة أو تذوّق نكهات جديدة: ليست تضحية، لكن ألا يوجد شيء آخر؟

بالطبع يوجد: ألعاب صغيرة يمكن شراؤها من متاجر ألعاب الجنس، نوادي تبادل الشريك، دعوة شخص ثالث إلى العلاقة، أو اتّخاذ فرص مغامرة في حفلات يُقيمها أصدقاء خارجون عن المألوف.

كلّ هذا ينطوي، في نظري، على مجازفة كبيرة. لا نعلم ما ستكون العواقب. من الأفضل أن ندع الأمور وشأنها.

وتمرّ الأيّام. نكتشف بالحديث مع أصدقاء أنّ النشوة المتزامنة المزعومة- أي عندما يثار الثنائي في الوقت نفسه، وهما يداعبان الأجزاء ذاتها، ويتأوّهان معًا- خرافة. كيف لي أن أشعر باللذّة وأنا أتنبّه لما أقوم به؟ لامِس جسدي، دعني أجن ثمّ أفعل الأمر ذاته لك. سيكون هذا طبيعياً أكثر.

لكن الأمر لا يجري على هذا النحو معظم الوقت. على الجماع أن يكون «مثاليًا»، أو بعبارة أخرى، لا وجود له.

وحذارِ التأوّه، لئلا توقظ الأولاد.

كم أنا سعيدة أنّنا انتهينا، كنت تعبة جدًا ولا أدري كيف تدبّرتُ أمري. أنتَ الأفضل! تُصبح على خير.

إلى أن يحلّ اليوم الذي يدرك فيه أحدهما أنّه في حاجة إلى كسر الرتابة. لكن بدلاً من الذهاب إلى نوادي تبادل الشريك، أو متاجر ألعاب الجنس المليئة بالخُردة التي نعجز عن معرفة كيف تعمل بالضبط، أو إلى منزل أصدقاء جامحين يواظبون على استكشاف أمور جديدة، نقرّر أن نقضي بعض الوقت مع الأولاد.

نخطّط لفرصة رومنسيّة. لا مفاجآت فيها. حيث كلّ شيء سيكون مخطّطًا له ومنظّمًا حتمًا وتمامًا.

ونخالها فكرة رائعة.

***

أفتح حسابًا إلكترونيًا زائفًا. لديّ المخدّرات، مجرّبة بحسب الأصول (استتبعها عهدي على نفسي ألاّ أفعل ذلك مطلقًا مرّة ثانية، لأنّها كانت رائعة).

أعرف كيف أدخل إلى الجامعة من دون أن يراني أحد وأدسّ الدليل في طاولة مكتب ماريان. كلّ ما عليَ فعله هو تحديد الدُرج الذي لن تفتحه قريبًا، وهو الجزء الأكثر مخاطرة في خطّتي. لكن هذا ما اقترحه تاجر المخدّرات، وعليَ أن أصغي إلى صوت التجربة.

لا يمكنني أن أطلب إلى طالب المساعدة. عليّ فعل ذلك بنفسي. لكن عدا ذلك، لن يكون عليّ فعل شيء باستثناء تغذية «الحلم الرومنسي» لزوجي وإطلاق وابل من رسائل الحبّ والأمل النصيّة على هاتف جاكوب.

ولّد الحديث مع تاجر المخدّرات لديَ فكرة، أضعها موضع

التنفيذ: كلّ يوم، أرسل رسائل حبّ وتشجيع نصّية. قد يفلح ذلك في طريقتين. الأولى أنّ جاكوب سيدرك أنّني أسانده، وأنّني لست مستاءة ولو قليلاً من لقائنا في نادي الغولف. والثانية، إن فشلت الأولى، احتمال أن تنقّب مدام كونيش في هاتف زوجها.

أدخل الإنترنت، أنسخ شيئًا يبدو ذكيًا، وأضغط زرّ «أرسل».

منذ الانتخابات، لم يحدث أيّ أمر مهمّ في جنيف. لم تعد الصحافة تقتبس عن جاكوب، ولا فكرة لديّ عما يجري معه. أمر أوحد فقط حشد الرأي العام مؤخّرًا: إلغاء المدينة لحفلة عيد رأس السنة أو الإبقاء عليها.

بحسب بعض النوّاب، النفقات «فاحشة». كُلّفتُ الاستقصاء عن معنى ذلك بالضبط. ذهبتُ إلى مجلس البلديّة وكشفت النقاب عن المبلغ: مئة وخمسة عشر ألف فرنك سويسري، أو ما يدفعه شخصان- أنا وزميلي الذي يعمل إلى جانبي مثلاً- من ضرائب.

بعبارة أخرى، بضريبة الدخل المحصّلة من مواطنَين يجنيان مرتّبًا معقولاً لكن ليس استثنائيًا، يمكن لهم إسعاد آلاف الناس. لكن لا. علينا أن ندّخر مالنا، لأنّ لا أحد يعلم ما يخبّئه المستقبل لنا. في هذه الأثناء، تمتلىء خزينة البلديّة. قد ينفد الملح الذي علينا أن نذرّه على الطرقات هذا الشتاء لكي نحول دون تحوّل الثلج إلى جليد والتسبّب بحوادث، أو الأرصفة التي تحتاج إلى الترميم بشكل دائم. حيثما يقع نظرك، ترى أشغالاً على الطرقات وأعمال بناء لا يُمكن لأيّ يكن تفسيرها.

يُمكن للسعادة أن تنتظر. المهمّ «الإبقاء على المظاهر»، التي تعني فعلاً «لا تدع أحدًا يعلم أنّنا فاحشو الثراء».

عليّ أن أنهض باكرًا في الغد وأشرع في العمل. واقع أنّ جاكوب قد تجاهل رسائلي النصّية قرّبني من زوجي. مع ذلك، لا أزال أنوي الانتقام.

صحيح أن لا رغبة عندي تقريبًا في المضي بالأمر الآن، لكنّني أكره أن أتقاعس عن تنفيذ مخطّطاتي في منتصفها. العيش هو اتّخاذ القرارات والتعامل مع العواقب. لم أفعل ذلك منذ وقت طويل، ولعلّ هذا أحد الأسباب التي تجعلني أستلقي الآن في سريري في عزّ الليل محدّقة إلى السقف من جديد.

إرسال الرسائل إلى رجل يصدّني مضيعة للوقت والمال. لم أعد أبالي بسعادته. في الواقع، أريده أن يكون تعيسًا جدًا، لأنّني قدّمت إليه أفضل جزء بي واقترح عليّ اللجوء إلى الاستشارة الزوجيّة.

ولهذا السبب، عليّ أن أزجّ بتلك الساحرة في السجن، حتّى وإن طافت روحي في المَطهر قروناً.

عليّ؟ من أين جاء هذا؟ أنا تعبة، تعبة جدًا، وأعجز عن النوم.

«لدى المتزوّجات إمكانية الإصابة بالاكتئاب أكثر من العزباوات»، هكذا جاء عن مقالة منشورة في صحيفة اليوم.

لم أقرأها. لكن هذه السنة تبدو غريبة، غريبة جدًا.

عندما كنت مراهقة، جرى كلّ ما في حياتي تمامًا كما هو مخطّط له. كنت سعيدة... لكن شيئًا ما حدث.

إنّه كفيروس دخل الحاسوب. بدأ الدمار، ببطء لكن بلا كلل. كلّ شيء يتباطأ. بعض البرامج الكبيرة الحجم تحتاج الآن إلى مساحة ذاكرة أكبر لتفتح. بعض الملفّات- صور، مستندات- اختفت من دون أن تخلّف أثراً.

بحثنا عن السبب ولم نجد شيئًا. سألنا أصدقاء يعرفون أكثر عن هذه الأمور، لكنّهم عاجزون عن كشف المشكلة كذلك. الحاسوب يفرغ، يتباطأ، لم يعد ملكًا لنا. الفيروس الخفي هو من يملكه الآن. من المؤكّد أن بوسعنا الحصول على جهاز آخر، لكن ماذا عن الأمور المحفوظة هنا، الأمور التي استغرقت سنين لتُنظّم؟ هل فُقدت إلى الأبد؟

هذا ظلم.

لا أملك ولو ذرّة سيطرة على ما يجري.

افتتاني السخيف برجل لا بُدّ من أنّه الآن يفكّر أنّه يتعرّض للتحرّش. زواجي من رجل يبدو قريبًا لكنّه لا يُظهر أبدًا مواطن ضعفه وتأثّره. الرغبة في تدمير شخص التقيته مرّة واحدة فقط بذريعة أنّ ذلك سيحرّر أشباحي الداخليّة.

يقول كثير من الناس أنّ الزمن يشفي الجراح كلّها، لكن هذا غير صحيح.

الظاهر أنّ الزمن يشفي الأشياء الجميلة فقط التي نتمنّى الاحتفاظ بها إلى الأبد. يقول لنا الزمن: «لا تنخدعنّ، فهذه الحقيقة». لهذا فالأمور التي أقرأها لأرفع معنويّاتي تغيب عن بالي سريعًا. ثمّة ثقب في روحي يمتصّ كلّ طاقتي الإيجابيّة، ويخلّف الفراغ فقط. أعرف الثقب حقّ المعرفة- عايشته لشهور- لكنّني لا أعرف كيف أفلت من قبضته.

يعتقد جاكوب أنّني في حاجة إلى الاستشارة الزوجيّة. يعتبرني مديري صحافيّة ممتازة. يلاحظ ولداي تغيّرًا في سلوكي،

لكن لا يسألان أيّ شيء. فهم زوجي شعوري فقط بعدما ذهبنا إلى مطعم وحاولت أن أفتح روحي له.

أتناول الآي- پاد عن الطاولة المجانبة للسرير. أضرب ٣٦٥ بـ ٧٠. الجواب هو ٢٥,٥٥٠. هذا متوسّط عدد الأيام التي يحياها الشخص العادي.

الناس من حولي يتذمّرون على الدوام بشأن كلّ شيء. «أعمل ثماني ساعات في اليوم، وإذا تمّت ترقيتي، فسأعمل اثنتي عشرة ساعة». «منذ أن تزوّجت، لم أعد أملك وقتًا لنفسي». «بحثت عن الله والآن عليّ حضور الخدمات الإلهيّة في الكنيسة، والقداديس، والاحتفالات الدينيّة».

كلّ ما نسعى إليه بحماسة قبل بلوغ سنّ الرشد- الحب، العمل، الإيمان- يتحوّل إلى عبءٍ ثقيل جدًا.

ثمّة طريقة وحيدة لتجنّب ذلك: الحبّ. أن تحبّ يعني أن تحوّل العبوديّة إلى حرّية.

لكن الآن، أعجز عن الحبّ. أشعر بالكره فقط.

ومهما بدا ذلك سخيفًا، فهو يسبغ على أيامي معنىً.

أصل إلى المبنى الذي تُدرّس وفيه وماريان حصص الفلسفة- هو مبنى مُلحق يقع، لعجبي، حَرم من حُرُم مستشفى جامعة جنيف. ثمّ أبدأ بالتساؤل: هل يُمكن لهذه المادّة الدراسيّة المقدّرة على سيرتها الذاتية ألاّ تكون سوى مادّة لاصفّية لا ثقل أكاديمي لها البتّة؟

ركنتُ سيّارتي خارج سوبرماركت، ومشيتُ نحو كيلومترٍ لأصل إلى هذه المباني المُربكة المنخفضة المشيّدة فوق مساحة خضراء جميلة تتوسّطها بحيرة صغيرة. تُشير أسهمٌ إلى الاتّجاهات. هناك مؤسّسات تبدو وكأنّها غير مترابطة لكنّ إحداها تكمّل الأخرى متى توقّفت للتفكير فيها: جناح المستشفى المخصّص للعجائز ومستشفى للأمراض العقليّة. والأخير يتّخذ مبنى جميلاً من أوائل القرن العشرين حيث يتخرّج منه الأطبّاء النفسيّون، والممرّضون، وعلماء النفس، والمعالجون النفسيّون من أنحاء أوروبا.

أمرّ بجانب شيء غريب يشبه فنارات التوجيه التي تراها في آخر مدرج المطار. عليّ أن أقرأ اللافتة إلى جانبه لأعرف ما هو. إنّها منحوتة مسمّاة Passage 2000، "أغنية بصرية" مؤلّفة من عشرة قضبان من خطوط عبور سكك حديد، كلّها مجهّزة بأضواء حمراء. أتساءل إن كان الذي صنعها أحد المرضى، فأكتشف وأنا أواصل القراءة أنّها عمل لنحّات مشهور. فلنحترم الفنّ، لكن لا تقل لي إنّ الفنانين طبيعيون.

إنّها ساعة الغداء- وقتي الحرّ الوحيد في النهار، والذي يبدو أنّ أكثر الأمور تشويقًا في حياتي تحدث في خلاله دومًا- كلقاء الصديقات، السياسيين، المصادر، وتجّار المخدّرات.

يجب أن تكون غرف الصفوف خالية. لا يُمكنني الذهاب إلى مطعم حرم الجامعة، حيث ماريان- أو مدام كونيش- تميل على الأرجح شعرها الأشقر إلى جهة واحدة بعفويّة في حين يتخيّل الطلاّب من الفتيان كيف يمكنهم أن يُغروا امرأة مثيرة للاهتمام إلى هذه الدرجة، والفتيات يحدّقن إليها كمثال على الأناقة والذكاء، والسلوك الصحيح.

أتوجّه إلى مكتب الاستقبال وأسأل عن الإرشادات إلى غرفة صفّ مدام كونيش. أُبلّغ أنّها ساعة الغداء (وكأنّه أمر لا أعرفه أصلاً). أقول إنّني لا أريد أن أقاطع وقت استراحتها، لذا سأنتظرها عند الباب خارج غرفة صفّها.

أرتدي ثيابًا عاديّة، مثل شخص تنظر إليه وتنساه من فورك. الأمر المشبوه الوحيد هو ارتدائي نظّارة شمسيّة في يوم غائم. أدع عاملة الاستقبال تلمح الضمّادات الظاهرة من تحت عدستَي النظّارة. ستستنتج بالتأكيد أنّني خضعت مؤخّرًا لعمليّة تجميليّة.

أمشي نحو غرفة الصف حيث تدرّس ماريان، متفاجئة برصانتي. تصوّرتُ أنّني سأخاف، أنّني سأستسلم عند منتصف الطريق، لكنني لم أفعل. أنا هنا وأشعر بالارتياح إلى حدٍّ بعيد. إذا كان لي أن أكتب عن نفسي يومًا، فسأقوم بذلك للسبب نفسه الذي دعا ماري شيلي وشخصيّتها ڤيكتور فرانكنشتاين إلى ذلك: أردت أن أخرج عن الرتابة فحسب، أن أجد سببًا أفضل لحياتي المملّة

الخالية من التحدّيات. كانت نتيجتها وحشًا قادرًا على توريط البريء وإبراء المذنب.

للجميع جانب مظلم. يريد الجميع أن يتذوّقوا طعم النفوذ المطلق. أقرأ قصصًا عن التعذيب والحرب وأجد أنّ مُسبّبي الأذى يُمسون كمن يسوقهم وحش مجهول متى اقتدروا على ممارسة النفوذ، لكنّهم يتحوّلون إلى آباء ودعاء، خدم الحِمى، وأزواج ممتازين عندما يرجعون إلى المنزل.

أتذكّر عندما كنت أصغر، طلب إليّ حبيبي آنذاك أن أعتني بكلبه الپودل. كرهتُ الكلب. كان عليّ أن أتقاسم مع الكلب حبّ الرجل الذي أحببت . وأنا أردتُ كلّ حبّه.

ذات يوم، قرّرت أن أُنزل انتقامي بذاك الحيوان اللامنطقي، حيوان لم يُسهم ولو بأيّ شكل في نماء البشريّة، لكنّ ضعفه أيقظ المحبّة والعطف. أبدأ بمهاجمته بطريقة لن تترك أثرًا عبر نخسه بدبّوس عالق في طرف مكنسة. أنّ الكلب ونبح، لكنّني لم أتوقّف إلّا عندما تعبت.

عندما وصل حبيبي، عانقني وقبّلني كعادته. شكرني على الاعتناء بالپودل. مارسنا الحبّ، واستمرّت الحياة على وتيرتها. الكلاب لا تنطق.

أفكّر في هذا وأنا في طريقي إلى مكتب ماريان. كيف قدرتُ على فعل ذلك؟ لأنّ الجميع قادرون. صادفتُ رجالاً مغرمين بزوجاتهم إلى حدّ الجنون يفقدون عقولهم ويضربونهن، ليعودوا من فورهم ويتوسّلوا المغفرة وهم يبكون.

إنّنا حيوانات مُبهمة.

لكني لـمَ أفعل هذا بماريان، في حين أنّ كلّ ما فعلته هو أنّها تنكّرت لي في حفلة؟ لـمَ قُمت بوضع مخطّط والمجازفة في شراء المخدّرات لدسّها في طاولة مكتبها؟

لأنّها بلغت ما أعجز عن بلوغه: حبّ جاكوب واهتمامه.

وهل هذه إجابة جيّدة بما يكفي؟ إن صحّ ذلك، فسيكون ٩٩,٩٪ من الناس يتآمرون ليدمر واحدهم الآخر في هذه اللحظة.

ربمّا كان السبب أنّني تعبت من التذمّر. لأنّ جنوني يُريحني. لأنّني لن أُضبَط. لأنّني أريد الكفّ عن هوسي بذلك. لأنّني فعلاً سقيمة. لأنّني لستُ الوحيدة. لا يزال فرانكنشتاين يطبع لأنّ الجميع يرى جزءًا من نفسه في كلٍّ من العالِـم والوحش.

أتوقّف. أنا فعلاً سقيمة. إنّه احتمال حقيقي. ربمّا توجّب عليّ أن أغادر هذا المكان الآن وأبحث عن طبيب. عليّ أن أنجز المهمّة التي عزمت على تنفيذها، وسأفعل، حتّى وإن أخبر الطبيب الشرطة عندها - سيحميني بموجب سرّية المرضى، لكن في الوقت نفسه سيفضح عملاً تعسّفيًا.

أصل إلى باب غرفة الصفّ، مُسترجعة بتأمّل الـ«لـمَ» التي عدّدتها في طريقي. أدخل في كلّ الأحوال، بلا تردّد.

أجدُ طاولة مكتب رديئة بلا أدراج. مجرّد سطح خشبيّ بأرجل مبرومة. شيء لوضع بضعة كتب، وحقيبة، ولا شيء آخر.

كان عليّ أن أخمّن ذلك. أشعر بالإحباط والارتياح في آن.

تدبّ الحياة من جديد في الأروقة التي كانت ساكنة. الناس

يرجعون إلى صفوفهم. أرحل من دون أن أنظر إلى الوراء، سائرة في الاتّجاه الذي يأتون منه. ثمّة باب في آخر الرواق. أفتحه وأخرج إلى أعلى هضبة صغيرة مقابل مستشفى العجزة بأسواره الضخمة وحيث تعمل التدفئة بسلاسة، وأنا متأكدة من ذلك. أتوجّه إلى هناك، وأسأل عند مكتب الاستقبال عن شخص لا وجود له. يُقال لي إن الشخص لا بدّ من وجوده في مكان آخر- تملك جنيف على الأرجح دور رعاية عجزة في كلّ متر مربّع أكثر من أيّ مدينة أخرى. تقترح الممرّضة أن تبحث عنه من أجلي. أقول أن لا داعي لذلك، لكنّها تصرّ:

«ما من إزعاج».

ولئلاّ يخامرها الشك، أوافق على أن أدعها تفتّش. فيما هي مكبّة على حاسوبها، أنتقي كتابًا عن المنضدة وأتصفّحه.

«إنّها قصص أطفال»، تقول الممرّضة ذلك من دون أن ترفع بصرها عن الشاشة، وتكمل: «المرضى يحبّونها».

هذا منطقي. أفتح صفحة عشوائيًّا:

كان ثمّة فأر مُكتئب دومًا لخوفه من الهررة. أشفق ساحر عظيم عليه وحوّله إلى هرّ. فأخذ يخاف من الكلاب، ولذا حوّله الساحر إلى كلب. فأخذ يخاف من النمور. كان الساحر صبورًا جدًا، فاستعمل قواه لتحويله إلى نمر. فأخذ يخاف من الصيّادين. أخيرًا، استسلم الساحر وحوّله إلى فأر من جديد، قائلاً:

«لن ينفعك أيّ شيء أفعله، لأنّك لم تفهم نموّك يومًا. الأفضل لك أن تكون ما كُنته دومًا».

تعجز الممرّضة عن إيجاد المريض الوهمي. تعتذر. أشكرها وأهمّ بالرحيل، لكن الظاهر أنّها مسرورة لوجود شخص تتحدّث إليه:

«أتعتقدين أنّ الجراحة التجميليّة نافعة؟».

الجراحة التجميليّة؟ آه، صحيح. أتذكّر قطع الشريط اللاصق الصغيرة تحت النظّارة الشمسيّة.

«معظم المرضى هنا خضعوا لعمليّات تجميليّة. لو كنت مكانك، لما دخلتُ هذا الباب. هي تحدِث اختلالاً بين العقل والجسم». لم أطلب رأيها، لكنّها تبدو مُستغرقة في الواجب الإنساني وتكمل: «تكون الشيخوخة أكثر إيلامًا لأولئك الذين يظنّون أنّ بإمكانهم التحكّم بمرور الزمن».

أسأل عن جنسيّتها: هنغاريّة. بالطبع. فالسويسريّون لا يُعطون رأيهم ما لم يُطلب إليهم ذلك.

أشكرها على تكبّدها العناء وأغادر، مُزيلة النظّارة والضمّادات عن وجهي. نجح التقنّع، لكنّ الخطّة لم تنجح. حرم الجامعة فارغ من جديد. الآن الجميع منشغلون في تعلّم كيف يهتمّون، كيف يفكّرون، وكيف يجعلون الآخرين يفكّرون.

أتّخذ الطريق الطويل للوصول إلى سيّارتي، يُمكنني من مسافة أن أرى مستشفى الأمراض النفسيّة. أيجدر أن أكون فيه؟

أجميعنا هكذا؟ أسأل زوجي بعد أن يكون الولدان قد ناما ونحن نستعدّ للنوم.

«هكذا كيف؟».

مثلي أنا، التي تشعر أنها إمّا على خير ما يرام وإما على شرّ ما يكون.

«أعتقد ذلك. نمارس ضبط النفس دومًا، محاولين منع الوحش من الخروج من مخبئه».

هذا صحيح.

«لسنا ما نريد أن نكونه. نحن ما يستدعيه المجتمع. نحن ما اختاره والدانا. لا نريد أن نخيّب أحدًا؛ وبنا حاجة كبرى إلى أن نُحَبّ. لذلك نقمع أفضل ما بنا. وتدريجًا، يتحوّل نور أحلامنا إلى وحش كوابيسنا. فتُمسي أمورًا غير مُنجَزة، وإمكانيّات غير معيشة».

بحسب فهمي، درج الطبّ النفسي على تسمية ذلك «ذُهان الهوس والاكتئاب»، لكنّهم الآن يُسمّونه «الاختلال ثنائي القطب» ليكون مقبولاً اجتماعيًا. من أين جاءوا بهذه التسميَة؟ هل القطبان الشمالي والجنوبي مختلفان؟ لا بُدّ من أنّها أقلّية...

«بالطبع، أقلّية هي من تُظهر تلك الازدواجيّة. لكنّني أراهن على أن في داخل معظم الأشخاص وحشًا».

من جهّة، أنا امرأة شريرة تذهب إلى حرم جامعي لتجريم شخص بريء من دون فهم داوفع حقدها. ومن جهة أخرى، أنا أمّ ترعى عائلتها بحُبّ، تَجدّ في العمل لئلا يحتاج أحبّتها إلى شيء، وكذلك من دون أن أفهم من أين آتي بالقوّة للحفاظ على شدّة هذه المشاعر.

«أتذكرين دجيكل وهايد؟».

من الواضح أنّ فرانكنشتاين ليس الكتاب الوحيد الذي لا يزال يطبع منذ صدوره الأول. فالقصّة التي ألّفها روبرت لويس ستيفنسون في ثلاثة أيّام: القضية الغريبة للدكتور دجيكل والسيد هايد، تحذو الحذو نفسه. تجري أحداثها في لندن في القرن التاسع عشر. يؤمن هنري دجيكل، عالِم الفيزياء والباحث، بأنّ الخير والشرّ يتعايشان في الناس كلّهم. يعزم على إثبات نظريّته، التي سخّفها معظم من عرفوه، بمن فيهم والده وخطيبته، بياتريكس. بعد العمل بلا كلل في مختبره، يتمكّن من تطوير معادلة. ولأنّه لم يُرد أن يخاطر بحياة أحد، يستخدم نفسه للتجربة.

وبالنتيجة، يَظهرُ جانبه الشيطاني - الذي يُسمّيه السيد هايد. يحسب دجيكل أنّ بوسعه السيطرة على ظهورات هايد وغيابها، لكنّه ما يلبث أن يدركَ أنه مخطىء جدًّا؛ فعندما نُطلِق جانبنا المظلم، يُظلّل تمامًا أفضل ما بنا.

ينسحب ذلك على الناس كلّهم. وهكذا يولد الديكتاتوريّون. في البداية، تكون نيّاتهم صافية كلّيًا بشكل عام، لكن رويداً رويداً، ولكي يفعلوا ما يعتقدون أنّه «لصالح» شعبهم، يستخدمون أسوأ ما في الطبيعة البشريّة: الإرهاب.

أنا مرتبكة، ومرتاعة. أيُمكن أن يحدث هذا لأي إنسان؟

«لا. أقلّية هي التي تفتقر إلى القدرة على التمييز بوضوح بين الصحّ والخطأ».

لا أدري إن كانت هذه الأقليّة قلّيلة إلى هذا الحدّ؛ جرى معي أمر مماثل في المدرسة. كان لي أستاذ، وكان أفضل الناس في العالم، لكن فجأةً تغيّر وأوقعني في حيرة تامّة. عاش جميع التلاميذ في خوفٍ إذْ كان من المستحيل توقّع حاله بين اليوم والآخر. لكن لم يجرؤ أحدٌ على الاشتكاء. ففي النهاية، الأساتذة دومًا على حقّ. خال الجميع أنّه يعاني مشكلة أُسَريّة ما، وأنّها ستُحلّ قريبًا، إلى أن فقد السيد هايد ذاك السيطرة على نفسه وهاجم أحد زملائي في الصفّ. رُفعت القضية إلى مجلس المدرسة، وتمّ صرفه.

منذ ذلك الحين، بِتُّ أخشى الناس الذين يبدون مُفرطي الحساسيّة.

«مثل التريكوتوز؟».

نعم، مثل أولئك النسوة الكادحات اللاتي أردنَ العدل والخبز للفقراء، واللاتي قاومن لتحرير فرنسا من تهتّك لويس السادس عشر. عندما بدأ حكم الإرهاب، كنّ ينزلن منذ الفجر إلى ساحة المقصلة، حاجزات المقاعد الأولى، يَحِكن فيما ينتظرن موت من حُكم عليهم بالموت. كنّ أمّهات على ما يُحتمل، يصرفن باقي يومهنّ يرعين أولادهنّ وأزواجهنّ.

الحياكة، لصرف الوقت بين رأس قُطع وآخر سيليه.

«أنتِ أقوى منّي. لطالما حسدتكِ على هذا. ربّما لهذا السبب لم أُظهر مشاعري يومًا، لئلاّ أبدو ضعيفًا».

هو لا يدري ما يقول. لكنّ هذا الحديث سبق أن انتهى. يستدير في السرير وينام.

وأُترَك وحيدة مع «قوَتي»، مُحدّقة إلى السقف.

بعد أسبوع، أفعلُ ما عاهدتُ نفسي ألاّ أفعله يومًا: رؤية طبيب نفسي.

أُحدّد ثلاثة مواعيد مع ثلاثة أطبّاء مختلفين. جداول مواعيدهم حافلة، وهي إشارة إلى وجود عدد يفوق تصوّري من مُختلّي التوازن في جنيف. أقول إنّ الأمر طارئ، غير أنّ السكريتيرات يُجبن بأنّ كلّ شيء طارئ، ويشكرنني على اهتمامي ويعتذرن. لا يستطعن إلغاء مواعيد مرضى آخرين.

ألجأ إلى الورقة الرابحة دومًا: أقول أين أعمل. يُمكن لكلمة «صحافيّة» السحريّة، يتبعها اسم صحيفة رئيسة، أن تفتح أبوابًا كثيرة كثرة ما ينغلق منها. في هذه الحالة، عرفتُ أصلاً أنّ النتيجة ستكون في صالحي. وحُدّدت المواعيد.

لا أُخبر أحدًا. لا زوجي، ولا مديري. أذهب إلى الطبيب الأوّل، وهو رجلٌ غريب يتحدّث بلكنة بريطانيّة، ويصرّ بعناد على أنّه لا يقبل التأمين الصحّي الوطني. أشتبهُ بأنّه يعمل في سويسرا بشكل غير مشروع.

أشرح، بكلّ ما في العالم من صبر، ما حدث لي. أستخدم مثالَي فرانكنشتاين ووحشه، والدكتور دجيكل والسيد هايد. أتوسّله أن يعينني في السيطرة على الوحش الذي يشبّ ويُنْذِر بالتفلُّت من قبضتي. يسأل ما قصدي. لا أريد أن أعطي تفاصيل قد تضعني في

وضع مُريب، كمحاولتي في جعل امرأة تقع في قبضة الشرطة تعسّفًا للاتجار بالمخدّرات.

أقرّر أن أخبر كذبة: أشرح أنّ أفكارًا جُرميّة تدور في بالي، أفكّر في قتل زوجي وهو نائم. يسأل إن كان لدى أيٍّ منا عشيق أو عشيقة. أقول لا. هو يفهم تمامًا ويعتقد أنّ الأمر طبيعي. من شأن سنة من العلاج، بمعدّل ثلاث جلسات في الأسبوع، أن تخفّف هذا الاندفاع بنسبة خمسين بالمئة.

أنا مصدومة! لكن ماذا لو قتلتُ زوجي قبل ذلك؟ يُجيب بأنّ ما يحدث هو «نقل»، «استيهام»، وأنّ القتلة الحقيقيين لا يلجأون إلى المساعدة أبدًا.

قبل أن أغادر، أدفع أتعابه ٢٥٠ فرنكًا سويسريًا، ويطلب إلى السكريتيرة أن تحدّد لي مواعيد منتظمة بدءًا بالأسبوع التالي. أشكره، أقول له إنّ عليّ التحقّق من جدول مواعيدي، وأغلق الباب، إلى غير رجعة.

يكون الموعد الثاني مع امرأة. تقبل التأمين الصحّي وهيَ أكثر انفتاحًا لسماع ما في جعبتي. أكرّر القصّة نفسها، أنّني أريد قتل زوجي.

تقول لي باسمةً: «حسنٌ، أحيانًا أنا أيضًا أفكّر في قتل زوجي. لكن كلنا نعرف أنّه إذا مضت كلّ امرأة في تحقيق أمانيها السرّية، يمسي معظم الأولاد يتامى. هذا اندفاع طبيعي».

طبيعي؟

بعد محادثةٍ طويلة تشرحُ في خلالها أنّني أتعرّض «للتنمّر» في زواجي، أنّني بلا شك لا أملك «حيّزًا لأنمو»، وأنّ جنسويّتي

«تُسبّب اضطرابات هرمونيّة تتناولها الأدبيّات الطبيّة على نطاق واسع»، تتناول دفتر الوصفات وتدوّن عليه اسم دواء معروف مضادّ للاكتئاب. تُضيف أنّه، إلى أن يُعطي الدواء مفعوله، سأعاني شهرًا بعد من الجحيم، لكن قريبًا لن يكون كلّ هذا سوى ذكرى بغيضة.

ما دمت أثابر على تناول الدواء بالطبع. إلى متى؟

«حسب الظرف. لكنّني أعتقد أنّك في غضون ثلاث سنوات ستتمكّنين من تخفيف الجرعة».

المشكلة الكبرى في استعمال التأمين هي إرسال الفاتورة إلى منزل المريض. أدفع نقدًا، أغلق الباب، وأُقسم ألاّ أرجع إلى هذا المكان، هو أيضًا.

أخيرًا، أذهب إلى الموعد الثالث، رجل آخر في مكتب لا بُدّ من أنّ تأثيثه وتصميمه الداخلي كلّفا ثروة. بخلاف الطبيبين الأوّلين، يُصغي إليّ بانتباه، ويبدو أنّه يوافقني. أنا فعلاً أواجه خطر ارتكاب جريمة قتل زوجي. أنا قاتلة محتملة. أنا أفقد السيطرة على وحش أعجز عن إعادة زجّه في قفصه.

أخيرًا، وبتأنّ كبير، يسأل إن كنت أتعاطى المخدّرات.

أُجيب: مرّة فقط.

لا يُصدّقني. يُغيّر الموضوع. نتكلّم عن النزاعات التي نُجبَر على التعامل معها كلّ يوم، ثمّ يعود إلى أمر المخدّرات.

«عليكِ أن تضعي ثقتك فيّ. لا أحد يتعاطى المخدّرات مرّة فقط. سرّية الطبيب-المريض تحمينا. سأفقد رخصتي الطبّية إن ذكرتُ أيّ أمر حول هذا. من الأفضل أن نتكلّم بصراحة قبل

تحديد موعدك التالي. ليس عليك وحدك أن تتقبلي أني طبيبك، بل عليّ أنا أيضًا أن أتقبل أنك مريضتي. هكذا تجري الأمور».

أُصرّ قائلةً لا. لا أتعاطى المخدّرات. أعرف القوانين ولم آتِ إلى هنا لأكذب. أريد فقط أن أحلّ هذه المشكلة سريعًا، قبل أن أؤذي الناس الذين أحبّهم أو المقرّبين إليّ.

هو بهيّ الطلعة وتخطّط وجهه المتفكّر لحية. يومِىء إيجابًا قبل أن يردّ:

«صرفتِ سنوات تُراكمين هذه الضغوط والآن تُريدين أن تتخلّصي منها بين ليلة وضحاها. لا وجود لذلك في الطب النفسي أو في التحليل النفسي. لسنا شامانات نطرد الأرواح الشرّيرة بالسحر».

بالطبع هو يسخر، لكنّه أعطاني فكرة لتوّه. ها قد ولّت أيام لجوئي إلى المساعدة الطبيّة النفسيّة.

Post Tenebras Lux. بعد الظلمة، نور.

أنا واقفة أمام سور المدينة العتيق، وهو مَعلَمٌ يمتدّ على عرض مئة متر وفيه تماثيل شاهقة لأربعة رجال تحاذيهم تماثيل أصغر إلى اليمين واليسار. يتميّز تمثال واحدٌ منها. رأسه مغطّى وله لحية طويلة ويحمل بيديه ما ضاهى السلاح الحربي في زمنه قوّةً، يحمل الإنجيل.

فيما أنتظر، أفكّر: لو وُلد هذا الرجل في أيامنا، لاعتبره الجميع- وخصوصًا الكاثوليكيين، في فرنسا وفي أرجاء العالم- إرهابيًا. إنّ التكتيكات التي اعتمدها لتطبيق ما آمن بأنّه الحقيقة المطلقة تُذكّرني بعقل أسامة بن لادن المنحرف. كان لهذين الرجلَين الهدفُ نفسه: إنشاء دولة ثيوقراطيّة يُعاقَب فيها كلّ من يعصى ما اعتُبر قانون الله.

ولم يتوانَ الاثنان عن اللجوء إلى الإرهاب لتحقيق أهدافهما.

اسمه جون كالفين، وكانت جنيف مقرّ عمليّاته. حُكم على مئات الناس بالموت وأُعدموا في مكان قريب من هنا. لم يعمد الكاثوليكيّون وحدهم إلى الاعتراض على التفسير الحرفي للإنجيل، ممّن تجرّأوا على صون إيمانهم، بل اعترض علماء أيضًا، بحثًا عن الحقيقة وعلاجات الأمراض. كانت القضيّة الأشهر قضيّة

ميخائيل سيرڤيتوس، الذي اكتشف الدورة الدمويّة التنفّسيّة ومات على المقصلة بسببها.

كلّ من يَعتبر أنّ معاقبة الهرطقين والمجدّفين هو خطأ في حقّهم، يُعتبر شريكًا في جرمهم، ومذنبًا بقدر ذنبهم. سلطان الإنسان ههنا بمنأى عن الشك، إنّ الله من يتكلّم [...]. لذا لا يطلب إلينا ممارسة القسوة بأشدّها، ما لم يكن ليُرينا أنّ الإجلال الواجب لا يُعطى له، بما أنّنا لا نضع خدمته فوق كلّ اعتبار بشري، لئلا ندّخر نسبًا، ودماء أيّ نسب، ونتغافل عن البشريّة جمعاء متى كان الكفاح من أجل مجده.

لم يقتصر الهلاك والدمار على جنيف؛ فقد قام رُسُل كالڤين، الذين يُحتمل أنّ التماثيل الأصغر تعود إليهم، بنشر كلمته وتحجّره عبر أوروبا. عام ١٥٦٦، دُمّرت عدّة كنائس في هولندا وقُتل «المتمرّدون»، أو بمعنى آخر مَن يدينون بدين آخر. رُمي عددٌ هائل من الأعمال الفنّية في النار بذريعة «الوثنيّة». ودُمّر جزءٌ من إرث العالم التاريخي والثقافي وفُقد إلى الأبد.

واليوم، يتعلّم ولداي عن كالڤين في المدرسة كما لو أنّه كان مستنيرًا عظيمًا، رجلاً جاء بفكر جديد «أعتقنا» من عبوديّة الكاثوليكيّة. وكأنّه ثوريّ يستحقّ الوقار من الأجيال المستقبليّة.

بعد الظلمة، نور.

أتساءل ما الذي دار في بال ذاك الرجل؟ هل استلقى صاحيًا في الليل عارفًا أنّ عائلات كانت تُكسح، أنّ أولادًا كانوا يُفصلون عن أهاليهم، أو أنّ الدم قد افترش الأرصفة؟ أو أنّه كان على قناعة بمهمّته، فلم يترك للشكّ مدعاة؟

هل فكّر في تبرير كلّ ما فعله باسم الحبّ؟ لأنّ هذا موضع شكّي، وجوهر مشكلاتي الحاليّة.

الدكتور دجيكل والسيد هايد. مَن عرف كالڤين قال إنّه كان رجلاً صالحًا في الخفاء، قادرًا على اتّباع كلمة يسوع وفعل ما يُذهل من الصنائع المتواضعة. كان مهيبًا، لكنّه كان محبوبًا أيضًا-وأمكنه أن يلهب حشودًا بذلك الحبّ.

ولمّا كان التاريخ يُدوَّن على أيدي الظافرين، لا يتذكّر أحدٌ فظائعه اليوم. اليوم يُرى على أنّه طبيب النفوس، المُصلح العظيم، مُخلّصنا من الهرطقة الكاثوليكيّة، بملائكته، وقدّيسيه، وعذراواته، والذهب، والفضّة، وصكوك الغفران، والفساد.

يصل الرجل الذي أنتظره، مُقاطعًا أفكاري. إنّه شامان كوبي. أشرح أنّني أقنعتُ محرّري بكتابة قصّة عن الطرائق البديلة لعلاج التوتّر. عالم الأعمال مليء بالناس الذين يتصرّفون بسخاء مفرط في لحظة، وفي الأخرى يصبّون جام غضبهم على من هم أضعف منهم. يزداد سلوك الناس إبهامًا.

جدول مواعيد الأطبّاء النفسيّين والمحلّلين النفسيّين ملآن ولا يسعهم رؤية كلّ مريض. ولا يُمكن لأحد أن ينتظر شهورًا أو سنوات لمعالجة الاكتئاب.

يُصغي الرجل الكوبي إليّ من دون التفوّه بكلمة. أسأل إذا كان بوسعنا أن نُكمل حديثنا في مقهى، بما أنّنا نقف في الخارج ودرجة الحرارة انخفضت بشكل ملحوظ.

«إنّها الغيمة»، يقول ذلك مُلبّيًا دعوتي.

تعلق الغيمة الشهيرة في سماء المدينة حتّى شهرشباط/فبراير

أو آذار/مارس، وتتبدّد أحيانًا فقط بسبب ريح الشمال، التي تُجلي السماء لكنّها تزيد من انخفاض درجة الحرارة.

«كيف عثرتِ عليّ؟».

أخبرني عنكَ حارس أمنٍ من الصحيفة. أراد رئيس التحرير أن أُجري مقابلات مع أطبّاء نفسيين، ومحلّلين نفسيين، ومُعالجين نفسيين، لكن هذا حدث مئات المرّات.

أحتاج إلى شيء غير اعتيادي، وقد يكون هو الشخص المناسب فعلاً.

«لا يُمكنك نشر اسمي. التأمين الوطني لا يُغطّي ما أفعله».

أفترض أنّ ما يُحاول قوله لي بالفعل هو: «ما أفعله عمل غير مشروع».

أتكلّم نحو ثلث ساعة، مُحاولةً أن أُريح الرجل الكوبي، غير أنّه يصرف كلّ الوقت في تأمُّلي. هو أسمر السحنة، أشيب الشعر، مربوع القامة ويرتدي بزّة وربطة عنق. لم أتصوّر شامانًا يلبس شيئاً كهذا.

أشرح أنّ كلّ ما يُخبرني به لن يُذاع. نحن مهتمّون فقط بمعرفة إن كان عدد الناس الذين يلجأون إلى خدماته عددًا كبيرًا. حسبما أسمع، لديه قُدرات شفائيّة.

«هذا غير صحيح. لا يُمكنني شفاء الناس. وحده الله على ذلك قدير».

حسنٌ، نحن متّفقان. لكن كلّ يوم، نلتقي شخصًا يتغيّر سلوكه بين لحظة ولحظة. ونتساءل: ما الذي جرى لهذا الشخص

الذي حسبتُ أنّني أعرفه؟ لـمَ يتصرّف بهذه العدائيّة الشديدة؟ هل ضغوط العمل هي السبب؟

وفي اليوم التالي، يعود الشخص إلى طبيعته. ترتاح، ثم يُسحب البساط من تحت قدميك على حين غرّة. وهذه المرّة، بدل أن تسأل الشخص ما خطبه، تتساءل ما الخطأ الذي اقترفته؟

يظلّ الشامان ساكتًا. هو لا يزال غير واثق بي.

هل هو قابل للعلاج؟

«ثمّة علاج، لكنّه في يد الله».

نعم، أعرف، لكن كيف يعالجه الله؟

«حسب الظرف. انظري إلى عينيّ».

أُطيعه، وأدخل في حالةٍ من الانخطاف، عاجزة عن التحكّم بوجهتي.

«باسم القوى التي تُرشد عملي، باسم القدرة التي مُنِحْتُها، أطلب إلى الأرواح التي تحميني أن تُدمّر حياتك وحياة عائلتك إن قرّرتِ أن تُسلّميني إلى الشرطة أو تُبلّغي سلطات الهجرة عنّي».

يلوّحُ بيده مرّات عدة حول رأسي، ما يبدو كأنّه أكثر الأمور السورّياليّة في العالم. أرغب في النهوض والمغادرة. لكن عندما أستعيد وعيي، يكون قد رجع إلى حالٍ عاديّة- لا ودودًا ولا محتاطًا.

«يُمكنك أن تسأليني. أنا أثق بكِ الآن».

أشعر بالذعر قليلاً. لكنني لا أنوي إيذاء هذا الرجل. أطلب كوبًا آخر من الشاي وأشرح ما أريده بالضبط. يقول الأطباء الذين «قابلتهم» إنّ الشفاء يستغرق وقتًا طويلاً. اعتبر حارس الأمن أنّ الله

كان قادرًا على استعمال الشامان قناةً لوضع حدّ لمشكلة اكتئاب خطيرة. أقول هذا وأنا أزن كلماتي بعناية.

«نحن الذين نخلق الفوضى في عقولنا. هي لا تأتي من الخارج. كلّ ما عليكِ فعله هو أن تطلبي العون من الروح الحارس الذي يدخل روحك ويُساعدك على ترتيب الأمور. لكن لم يعد أحدٌ يؤمن بالأرواح الحارسة. هي هنا تسهر علينا، تستميت للمساعدة، لكن لا أحد يستدعيها. يقتضي عملي تقريبها إلى المحتاجين إليها وانتظارها لتقوم بعملها. هذا كلّ شيء».

فلنقل، نظريًا، إن شخصًا في إحدى لحظات العدائيَة تلك، يأتي بخطّة احتياليّة لتدمير شخص آخر، بقدحه وذمّه في العمل.

«يحدث هذا كلّ يوم».

أعرف، لكن عندما تزول هذه العدائيّة، عندما يرجع الشخص إلى طبيعته، ألن يشعر بالذنب؟

«بالتأكيد. وبمرور السنين، يزيد ذلك حالته سوءًا».

هذا يعني أن شعار كالفين - بعد الظلمة نور- شعار خطأ.

«ماذا؟».

لا شيء. كُنت أتسكّع في محيط المَعلم في المتنزّه.

«بلى، ثمّة نور في آخر النفق، إن كان هذا ما تقصدينه. لكن أحيانًا، عندما يعبر الشخص الظلمة ويبلغ الطرف الآخر، يخلّف دمارًا جللًا».

تمام، فلنعد إلى طريقتك.

«ليست طريقتي. استُعملت سنوات عدّة ولا تزال تُستعمل

لمعالجة التوتّر، والاكتئاب، والنـزَق، ومحاولات الانتحار، وكثير من الطرائق التي ابتكرها بنو البشر لإيذاء أنفسهم».

ربّي، وجدتُ الشخص المناسب. لكن عليّ أن أحافظ على هدوئي.

يُمكننا أن نسمّيها...

«...الانخطاف المُستَحثّ ذاتيًا. التنويم المغنطيسي الذاتي. التأمّل. تدعوها كلّ ثقافة باسم مختلف. لكن تذكّري أنّ الجمعيّة الطبيّة السويسريّة لا تستحسن أمورًا مماثلة».

أشرح أنّني أمارس اليوغا وأنّني لا أزال أعجز عن بلوغ الحالة التي تُفرَز عندها المشكلات وتُحلّ.

«أنتحدّث عنكِ أم عن قصّة للصحيفة؟».

كلا الأمرين. أُلقي سلاحي، لأنّني أعرف أنّي مكشوفة أمام هذا الرجل. فقد تيقّنتُ من الأمر لحظة طلب إليّ أن أنظر في عينيه. أشرح أنّ قلقه في شأن عدم ذكر اسمه قلق سخيف. من لا يعرفِ أن منزله في ڤيريبيه يكتظ بالزائرين. فإليه يلجأ الكثيرون، بمن فيهم حرس الأمن في السجن. هذا ما شرحه لي الشاب في الصحيفة.

يقول: «مُشكلتكِ مع الليل».

نعم، هذه مشكلتي. لماذا؟

«ليلاً، ولأنّه ببساطة الليل، نتمكّن من إحياء رُعب طفولتنا: الخوف من البقاء وحيدين، الخوف من المجهول. لكن إذا تمكّنا من إلحاق الهزيمة بتلك الأشباح، سنهزم بسهولة تلك التي تظهر نهارًا. لن نخشى الظلمة لأنّنا شركاء النور».

أشعر كأنّني أجلس برفقة أستاذ مدرسي يشرحُ البديهيّات. أيُمكنني أن أذهب إلى منزلكَ لـ.....

«....طرد الأرواح؟».

لم يخطر لي هذا، لكنّه بالضبط ما أحتاج إليه.

«لا داعي لذلك. أرى ظلمة وارفة فيكِ، ولكني أرى نورًا وارفًا أيضًا. وفي هذه الحال، أنا أكيد أنّ النور سيطغى في النهاية».

أنا على شفير البكاء. يسبر الرجل روحي حقًا، ولا يسعني أن أفسّر كيف يفعل ذلك تحديدًا.

«دعي الليل يرتحل بكِ بين الحين والحين. ارفعي بصرك إلى النجوم وحاولي أن تثملي من حسّ اللانهاية. الليل هو أيضًا، بكلّ أسحاره، درب إلى التنوير. كما لبئر مظلمة مياه تروي الظمأ في القعر، للّيل أيضًا، الذي يقرّبنا غموضه من غموض الله، شعلة قادرة على إنارة روحنا المستترة في ظلاله».

نتحدّث نحو ساعتين. يُصرّ على أنّني لا أحتاج إلى شيء سوى أن أدع نفسي ترتحل- وأنّ أعظم مخاوفي لا أساس لها. أشرح عن رغبتي في الانتقام. يُصغي من دون أن يعلّق على كلمة أو أن يحكم عليّ بها. كلّما أطلنا الحديث، تحسّن شعوري.

يقترح أن نغادر وأن نتمشّى في المتنزّه. عند إحدى بوّاباته، رسم على الأرض للوح شطرنج بمربّعات عدّة بالأبيض والأسود وبيادق ضخمة من البلاستيك. يلعب بعض الناس على الرغم من برودة الطقس.

لا يعقّب على كلامه بالكثير؛ وأواصل الكلام بلا انقطاع، مُمتنّة من حياتي تارةً ولاعنةً إيّاها تارة. نتوقّف أمام أحد ألواح

الشطرنج العملاقة. يبدو أكثر انتباهًا للعبة من كلماتي. أتوقّف عن التذمّر وأبدأ أيضًا بمتابعة اللعبة مع أنّها لا تُثير اهتمامي ولو قليلاً.

يقول: «امضي حتّى النهاية».

أمضي حتّى النهاية؟ أخون زوجي، أضع الكوكايين في حقيبة منافِستي، وأتّصل بالشرطة؟

يضحك.

«أترين اللاعبين؟ عليهم دومًا اتّخاذ الخطوة التالية. لا يُمكنهم التوقّف في منتصف الدرب، لأنّ ذلك يعني تقبّل الهزيمة. يحلّ وقت تكون فيه الهزيمة محتومة، لكنّهم يكونون على الأقلّ قد قاتلوا حتّى النهاية. لدينا بالأصل كلّ ما نحتاج إليه. ما من أمر يستدعي التحسين. أن نفكّر أنّنا صالحون أو طالحون، مُنصفون أو مُجحفون، كلّها ترّهات. نعلم أنّ جنيف اليوم ملبّدة بغيمة قد تستغرق شهورًا لتنجلي، لكن عاجلاً أو آجلاً، ستنجلي. امضي إذًا، أطلقي العنان لنفسك».

ما من كلمة تردعني عن فعل أمر لا يجدر بي فعله؟

«لا. أن تفعلي ما لا يجدر بك فعله، أمر ستُدركينه بنفسك. كما قلت عندما التقينا في المطعم، النور في روحكِ أعظم من ظلمتها. لهذا عليكِ أن تمضي حتّى النهاية كي تنهي اللعبة».

أحسب أنّني في حياتي كلّها لم أسمع يومًا نصيحة متعذّرة مثلها. أشكره على وقته، وأسأل إن كنتُ أدين له بشيء. يقول لا.

في الصحيفة، يسألني المحرّر: لـمَ تأخّرت كلّ هذا الوقت؟ أشرح

أنّ السبب يكمن في طبيعة الموضوع غير التقليديّة. فحصولي على ما أحتاج إليه استغرق وقتًا.

«ولّا كان غير تقليدي جداً، أمِنَ الممكن أن نشجّع فيه على أيّ نشاط غير قانوني؟».

أوَنُشجّع على أيّ نشاط غير قانوني عندما ننهال على الشبّان بـمُحفّزات للاستهلاك المفرط؟ أوَنُشجّع الحوادث عندما نُسوّق للسيّارات الجديدة وإمكانيّة بلوغها سرعة ٢٥٠ كيلومترًا في الساعة؟ أوَنُشجّع على الاكتئاب والميول الانتحاريّة عندما ننشر مقالات حول أشخاص ناجحين، من دون أن نشرح كيف بلغوا النجاح ونجعل الباقين يُقتنعون أنفسهم بأنّهم بلا قيمة؟

لا يريد رئيس التحرير الجدال في ذلك. قد يكون لصالح الصحيفة، التي جاء عنوانها الرئيس لليوم «سلسلة السعادة تجني ٨ ملايين فرنك للبلد الآسيوي». أكتب مقالة من ستمئة كلمة- وهي المساحة الكبرى التي يُخصّصونها لي- وكلّ ما فيها مستقىً من البحث في الإنترنت. لم أتمكّن من استعمال أيّ شيء من حديثي مع الشامان الذي تحوّل إلى جلسة علاج.

جاكوب! قام من بين الأموات للتوّ، وأرسل إلي رسالة نصّية يدعوني فيها إلى تناول القهوة- كما لو أنّ الحياة تخلو من أمور مشوّقة يُمكنني فعلها. أين اختفى متذوّق النبيذ المتحذلق؟ أين الرجل الذي يملك الآن السلطة، مثيرة الشهوة الجنسيّة العظمى في العالم؟

لكن الأهمّ، أين الحبيب السابق المراهق الذي التقيته عندما كان كلّ شيء ممكنًا؟

تزوّج، تغيّر، ويبعث إليّ برسالة يدعوني فيها إلى تناول القهوة. ألم يكن بمقدوره أن يكون أكثر إبداعًا ويقترح أن نقوم بجولة ركض عريانين في «شاموني»؟ قد أهتمّ أكثر في ذلك الحين.

لا أنوي الردّ. أدار لي ظهره وأهانني بصمته لأسابيع متتالية. أيخالني سآتيه ركضًا لمجرّد أنّه تكرّم عليّ بدعوة؟

بعد أن أخلد إلى النوم، أستمع عبر سمّاعة الأذن إلى أحد الأشرطة التي سجّلتها لحديث الشامان الكوبي. عندما كنتُ لا أزال أدّعي بأنّني مجرّد صحافيّة- وليس امرأة ترتاع من نفسها- سألت إن كان التنويم المغنطيسي الذاتي (أو «التأمّل» وهو المصطلح الذي يفضّله) يُمكن أن يُنسي شخصًا ما شخصًا آخر. تناولت الموضوع بطريقة يفهم من خلالها أنّ «الحب» هو «صدمة من تهجّم كلامي»، وهو بالضبط ما كنّا نتحدّث عنه في تلك اللحظة.

ردّ: «هذه منطقة ضبابيّة نوعًا ما. نعم، يُمكننا حثّ النسيان، لكن هذا الشخص مُرتبط بوقائع وأحداث أخرى. عمليًّا سيكون من المستحيل محو أحدهم كليًا. بالإضافة إلى أن النسيان مقاربة خطأ. عليكِ مواجهة الأمور مباشرة».

أستمع إلى الشريط بأكمله، ثمّ أحاول أن أتلهّى، قاطعةً على نفسي عهودًا ومُدوّنةً بعض الأمور الأخرى في روزنامتي، لكن لا شيء ينفع. قبل أن أنام، أُرسل رسالة إلى جاكوب، أقبل فيها دعوته.

أعجز عن ضبط نفسي، هذه مشكلتي.

«لن أقول لكِ إنّني اشتقتُ إليكِ لأنّك لن تصدّقيني. لن أقول لكِ إنّني لم أردّ على رسائلكِ لأنّني أخشى أن أغرم بكِ مجدّدًا».

لا أصدّق أيًّا من هذا فعلاً. لكنّني أدعه يُكمل محاولةً تفسير ما لا يُمكن تفسيره. ها نحنُ، في مقهى عادي، لا شيء مميّز، في «كولونج سو ساليڤ»، قرية على حدودنا مع فرنسا تبعد ربع ساعة عن مكان عملي. وبقية الزبائن ما هم إلّا سائقي شاحنات وعمّال من مقلع قريب.

أنا المرأة الوحيدة، باستثناء العاملة على المشرب، التي تنتقل من طرف إلى آخر، مفرطة التبرّج تمازح الزبائن بنكات طريفة.

«أعيش جحيمًا حيًّا منذ أن ظهرتِ في حياتي، يوم أتيت لمقابلتي في مكتبي، تبادلنا الحميمية».

(«تبادلنا الحميمية») صورة بلاغيّة. لعقت عضوه. هو لم يفعل لي شيئًا.

«لا يسعني القول إنّني تعيس، لكنّني أزداد وحدة، مع أنّ أحدًا لا يعلم. حتّى عندما أكون مع الأصدقاء، حين يكون الجو رائقاً والمشروبات مذهلة والحديث شيّقاً وأنا أبتسم. فجأة، وبلا سبب، أعجز عن التنبّه للحديث. أقول إنّ عندي ارتباطًا وأرحل. أعرف من أفتقده: أنتِ».

آن الأوان لأنتقم: ألا تعتقد أنّك في حاجة إلى الاستشارة الزوجيّة؟

«بلى. لكن سيكون عليّ الذهاب برفقة ماريان، ولا أستطيع إقناعها. ففي نظرها، الفلسفة تفسّر كلّ شيء. لاحظتُ أنّني مختلف، لكنّها تعزو ذلك إلى الانتخابات».

كان الشامان على حقّ عندما قال إن علينا المضي في الأمور حتّى النهاية. في هذه اللحظة، أنقذَ جاكوب زوجته من تهمة خطيرة بالاتجار بالمخدّرات.

«أخذتُ على عاتقي مسؤوليّات كثيرة جدًا ولم آلفها بعد. بحسب قولها، سآلف كلّ شيء قريبًا. ماذا عنكِ؟».

ماذا عنّي؟ ماذا بالضبط تريد أن تعرف؟

تهشّمت كلّ جهودي في المقاومة لحظة رأيته يجلس وحيدًا إلى طاولة في الزاوية أمامه كأس كامپاري مع الصودا، وابتسم حين رآني أدخل. نحن مراهقان من جديد، لكن الفرق هذه المرّة أن بإمكاننا شرب الكحول من دون خرق القانون. أُمسك بيديه، المتجمّدتين من البرد، أو الخوف. لستُ أدري.

أقول إنّني بخير. أقترح أنّ نلتقي في وقت أبكر المرّة المقبلة. انتهى الدوام الصيفي والعتمة تحلّ بسرعة.

يوافقني ويطبع على شفتي قبلة خجولة، قلقًا من لفت انتباه الرجال حولنا.

«أنا أرى أن أسوأ الأمور هي الأيّام الحلوة المشمسة في هذا الخريف. أفتح الستائر في مكتبي وأرى الناس في الخارج، يمشي بعضهم متشابكي الأيدي غير عابئين بالعواقب. أمّا أنا، فأعجز عن إظهار حبّي».

الحبّ؟ هل أشفق ذاك الشامان الكوبي عليّ وطلب العون من أرواح غامضة؟

توقّعتُ كلَ شيء تقريبًا من هذا اللقاء، باستثناء رجل يفتح لي روحه كما يفعل الآن. يخفق قلبي أقوى فأقوى، من الفرح، من الدهشة. لن أسأل لـمَ يحدث ذلك.

«ليس الأمر أنّني أغار من الآخرين. أنا فقط لا أفهم لـمَ يُمكنهم أن يسعدوا ولا يمكنني ذلك».

يدفع قيمة الفاتورة باليورو. نعبر الحدود مشيًا ونسير باتّجاه سيّارتينا المركونتين في الطرف الآخر من الشارع، أي سويسرا.

لـم يعد ثـمّة وقت لعرض العواطف. نتبادل في الوداع قبلًا ثلاثًا على الخدّين ويتّجه كلٌ منا إلى قدره.

كما حدث لي في نادي الغولف، أعجز عن القيادة لدى وصولي إلى السيّارة. أرتدي وشاحًا بقلنسوة لأتّقي البرد وأبدأ بالسير بلا وُجهة في أرجاء القرية. أمرّ بمكتب بريد ومحلّ مصفّف شعر. أرى مشربًا مفتوحًا، لكنّني أرتأي المشي لأروّح عن نفسي.

«أفتح الستائر في مكتبي وأرى الناس في الخارج، يمشي بعضهم متشابكي الأيدي غير عابئين بالعواقب. أمّا أنا، فأعجز عن إظهار حبّي». هكذا قال.

وعندما شعرتُ أنْ لا أحد، لا أحد مطلقًا، قادر على فهم ما يجري في داخلي - لا شامان ولا محلّل نفسي ولا حتّى زوجي- تجسّدتَ أنت لتشرح ذلك لي...

إنّها الوحدة. مع أنّني محاطة بأحبّاء يهتمّون لأمري ويتمنّون لي الأفضل، من المحتمل أنّهم يُحاولون مساعدتي فقط لأنّهم يشعرون بما أشعر به: الوحدة. ولهذا، في لفتة تكافل، سترى هذه الجملة محفورة على حجر: «أنا نافع، وإن كنتُ وحيدًا».

مع أنّ العقل يقول إنّ كلّ شيء بخير، فالروح ضالّة، مرتبكة، لا تدري لـمَ الحياة مُجحفة بحقّها. مع هذا، نستيقظ في الصباح، ونعتني بأولادنا، وأزواجنا، وأحبتنا، ومديرينا، وموظّفينا، وتلاميذنا... لفيف الناس ذاك الذي يجعل يومًا عاديًا نابضًا بالحياة.

وغالبًا ما نرسم البسمات على وجوهنا ونتفوّه بكلمات تشجيع، لأنّ أحدًا لا يسعه تفسير وحدته للآخرين، خصوصًا عندما يرافقنا دومًا ناس أخيار. لكن هذه الوحدة موجودة وتأكل أفضل ما بنا لأنّ علينا جميعًا أن نستهلك طاقتنا كلّها لنبدو سعداء، على الرغم من أنّنا لن نتمكّن يومًا من خداع أنفسنا. لكنّنا نصرّ، كلّ صباح، على إظهار الوردة المتفتّحة فقط، ونخفي ساقها الشوكية التي تجرحنا وتجعلنا ننزف.

وعلى الرغم من معرفتنا أنّ الجميع شعروا في مرحلة ما بوحدة تامّة مطلقة، فإنّها لإهانة أن يقول واحدنا «أنا وحيد، أحتاج إلى الرفقة. عليّ قتل هذا الوحش الذي يخاله الجميع خياليًا كتنّين في حكاية، لكنّه ليس كذلك». لكنّه ليس كذلك. أنا أنتظر وصول فارس أصيل شريف، بكلّ مجده، ليهزمه ويقذف به إلى الهاوية إلى الأبد. لكنّ ذاك الفارس لا يأتي.

مع ذلك، لا يمكن أن نفقد الأمل. نبدأ بفعل أمور لا نفعلها في العادة، مُتجرّئين على تخطّي المعقول والضروري. ستكبر الأشواك أكثر وتكدّرنا أكثر، لكن لا يسعنا أن نستسلم في منتصف الدرب. ينتظر الجميع معرفة النتيجة، كما لو أنّ الحياة لعبة شطرنج ضخمة. ندّعي أنّنا لا نكترث للربح أو الخسارة، التنافس هو المهمّ. نُحيّز مشاعرنا الحقيقيّة لتبقى ظليلة ومحجوبة، لكن عندها...

...بدل البحث عن الرفقة، ننعزل أكثر لكي نبلسم جراحنا في صمت. أو نخرج لتناول العشاء أو الغداء مع أشخاص لا علاقة لهم بحياتنا ونصرف الوقت كلّه ونحن نتكلم كلامًا تافهًا. حتّى أنّنا نتسلّى قليلاً بالشرب والاحتفال، غير أنّ التنين يصمد حتّى يرى المقرّبون إلينا أنّنا نشكو من علّة، ويبدأون بلوم أنفسهم على أنهم لم يحققوا لنا السعادة. يسألون ما المشكلة. ونقول إنّ كلّ شيء بخير، لكن...

كلّ شيء رهيب. أرجوك، دعني وشأني، فقد جفّ دمعي وتحجّر قلبي. أعيش الأرق والفراغ والفتور، وإن أنتَ سألت روحك، لأجابت بأنّها تشعر بمثل شعوري. لكنّهم يُصرّون على أنّها مجرّد مصاعب، مجرد اكتئاب، لأنّهم يخشون استعمال الكلمة الحقيقيّة اللعينة: الوحدة.

في هذه الأثناء، نواصل البحث عن الشيء الوحيد الذي يُسعدنا: الفارس بدرعه اللامع الذي سيذبح التنين، ويقطف الوردة، ويقطع الأشواك. يدّعي كثيرون أنّ الحياة مُجحفة. ويسعد آخرون لاعتقادهم بأنّ هذا بالضبط ما نستحقّه: الوحدة، التعاسة. لأنّنا نملك كلّ شيء وهم لا يملكونه.

لكن ذات يوم، يُصبح الأعمى بصيرًا. ويعرف الحزين السلوان، والمعذّب يجد خلاصه. يأتي الفارس لنجدتنا، وتُصان حياتنا من جديد.

مع هذا، عليكَ أن تكذب وتغشّ، لأنّ الظروف مختلفة هذه المرّة. مَن منّا لم يشعر بالحاجة الملحّة إلى التخلّي عن كلّ شيء والسعي إلى حلمه؟ الحلم محمّل بالمخاطرة دومًا، لأنّ ثمّة ثمنًا ندفعه. الثمن

هو الموت رجمًا في بعض البلدان، أو النبذ الاجتماعي أو اللامبالاة في بلدان أخرى. لكن ثمّة ثمنًا ندفعه على الدوام. وتستمر في الكذب، ويستمر الناس في الادّعاء بأنّهم لا يزالون يصدّقونك، لكنّهم في سرّهم يغارون منك، يغتابونك، يقولون إنّك أخطر الناس وأسوأهم. لا يكون الرجل زانيًا، بل يُغفر له، حتّى أنّه يكون محطّ إعجاب في الغالب؛ أما المرأة، فهي زانية، تخون زوجها المسكين، المتفهّم والمُحِبّ على الدوام...

لكن أنت تعرف وحدك أنّ هذا الزوج عاجز عن ردع الوحدة. لأنّه يفتقر إلى شيء تعجز أنت عن وضع إصبعك عليه، لأنّك تحبّه ولا تريد أن تخسره. لكنّ غواية فارس بهيّ يعدك بمغامرة في بلاد بعيدة أقوى من رغبتك في أن يبقى كلّ شيء على حاله، حتّى لو حدّق إليك الناس في الحفلات وتهامسوا بأن ربط عنقك برحى ورميك في البحر، سيكون أفضل من الإبقاء عليك مثالاً سيّئًا.

وما يزيد الطين بلّة أنّ زوجك يتحمل كل شيء بهدوء. لا يتذمّر ولا تثور ثائرته. يؤمن بأنّ الأمر سيمرّ. تعلم أنتَ أيضًا أنّه سيمرّ، لكنّه الآن أقوى منك.

هكذا تسري الأمور شهر، شهرين، سنة... والكلّ يتحمّلها بهدوء.

لكن لا يتعلق الأمر بطلب الإذن. تسترجع ما مضى في ذهنك وترى أنّك أنت أيضًا كنت تفكّر مثل أولئك الناس الذين يشيرون إليك الآن بإصبع الاتهام. كنت أيضًا تحكم على أولئك الذين عرفت أنهم زُناة وتتخيّل أنّك لو عشتَ في مكان آخر، لكان الرجم هو العقوبة. إلى أن يحلّ اليوم الذي يحدث فيه ذلك لك. فتأتي بالذرائع كلّها لتبرّر سلوكك، وتقول إنّ من حقك أن تكون سعيدًا،

ولو لوقتٍ قصير، لأنّ الفرسان قتلة التنانين موجودون في الحكايات فقط. التنانين الحقيقيّة لا تموت أبدًا، لكن، من حقك أن تعيش حكاية من حكايات الراشدين ولو مرة واحدة في حياتك.

ثمّ تحلّ اللحظة التي حاولت تجنّبها مهما كلفك ذلك من أثمان، لحظةً كنت تؤجّلها منذ زمن: لحظة اتخاذ القرار بأن تبقى مع شريك أو أن تنفصلا إلى الأبد.

لكن يرافق هذه اللحظة الخوف من ارتكاب خطأ، مهما كان قرارك. وتأمل أن يقوم أحدهم بالاختيار عنك، أن يطردك من المنزل أو من الفراش، فمن المستحيل البقاء على هذه الحال. في النهاية، لم نعد شخصًا واحدًا، بِتنا اثنين أو أكثر، والواحد مختلف تمامًا عن الآخر. وبما أنّك لم تمرّ بهذه التجربة من قبل، لا تدري إلي أين ستؤول بك. الواقع أنّك الآن تواجه وضعًا سيسبّب المعاناة لشخص، أو اثنين أو أكثر.

لكن في الغالب، سيدمّرك، مهما كان قرارك.

السير لا يتحرّك. اليوم من بين الأيّام كلّها!

تتصرّف جنيف، بسكّانها الذين يقلّ عددهم عن مئتي ألف، وكأنّها مركز العالم. ثمّة أشخاص يصدّقون ذلك ويأتون على طول الدرب من بلدانهم لاستضافة ما يسمّونه «القمم». تجري هذه اللقاءات في العادة في ضواحي المدينة، ويندر أن تتأثّر بها حركة المرور. نلمح بالأكثر بضع طائرات مروحيّة تحلّق فوق المدينة.

لا أدري ماذا حدث اليوم، لكنّ أحد الطرق الرئيسة مقطوع. قرأت صحيفة اليوم، لكني لم أقرأ الأبواب المتعلّقة بالمدينة والأخبار المحلّية. أعرف أنّ قوىً عالميّة رئيسة تُرسل ممثّليها إلى هنا للتباحث في خطر انتشار الأسلحة النووية، «على أرض حياديّة». وهل يؤثّر ذلك في حياتي؟

كثيرًا. لا يُمكنني أن أتأخّر. كان حريًّا بي أن أستقلّ النقل العام بدل السيارة الحمقاء.

كلّ سنة، تصرف أوروبا نحو سبعة وأربعين مليون فرنك سويسري (أكثر من ثمانين مليون دولار أميركي) على استئجار رجال تحرٍّ خصوصيين مختصّين في تعقّب زوج الزبون أو زوجته، وتصويره وتقديم البرهان على خيانته. ففي حين أنّ باقي القارّة في أزمة والشركات تُشهر إفلاسها وتصرف عمّالها، شهدت سوق الخيانة نموًّا هائلاً.

ليس رجال التحري من يستفيدون فحسب، فقد ابتكر مطوّرو البرامج تطبيقات للهواتف الذكيّة مثل تطبيق SOS Alibi. طريقة عمله بسيطة: في وقت محدّد، يقوم التطبيق بإرسال رسالة لطيفة إلى شريكك وكأنّك لا تزال في مكتبك. أي، بينما يكون الرجل في الفراش يحتسي مع امرأة الشمبانيا أو العكس، تظهر رسالة على هاتف شريكك تُخبره بأنّك ستتأخّر في العمل بسبب اجتماع غير متوقّع. ويُقدّم Excuse Machine وهو تطبيق آخر، سلسلة من الأعذار بالفرنسيّة، والألمانيّة، والإيطاليّة- ويُمكنك أن تختار العذر الأنسب حسب الظروف.

عدا عن رجال التحري والمبرمجين، تحتلّ الفنادق المرتبة الأولى. وفق الإحصائيّات الرسميّة، إذا احتسبنا واحدًا من أصل سبعة راشدين في سويسرا يمارس علاقات خارج الزواج، وأخذنا في الاعتبار عدد المتزوّجين في البلد، نجد أربعمئة وخمسين ألف شخص يبحثون عن غرفة بعيدًا عن الأنظار حيث يُمكنهم التلاقي. لجذب الزبائن، قال مدير أحد الفنادق الفخمة ذات مرّة: «لدينا نظام يُتيح بإظهار المدفوعات عبر بطاقات الائتمان على أنّها فواتير لقاء غداء في مطعمنا». أصبح هذا الفندق مفضّلاً لدى أولئك المستعدّين لرمي ستمئة فرنك سويسري لقضاء فترة بعد الظهر من يوم واحد. وأنا متوجّهة إلى هناك بالضبط.

بعد مرور نصف ساعة من التوتر، أترك سيّارتي مع موظف يهتم بركن السيّارات الخاصّة، وأهرع إلى الغرفة. بفضل خدمة البريد الإلكتروني لديهم، أعرف تمامًا إلى أين عليّ الذهاب من دون أن أضطرّ إلى المرور بمكتب الاستقبال.

من المقهى على الحدود الفرنسيّة إلى حيث أنا الآن، لم أحتج إلى شيء آخر - لا تبريرات، ولا وعود بالحبّ، ولا حتّى تحديد لقاء آخر - لكي نتأكّد من أن هذا ما نريده. خاف كلّ منا من التفكير كثيرًا والتراجع، لذا اتُّخذ القرار من دون أسئلة أو إجابات.

لـم نعد في الخريف، إنّه الربيع. أنا في السادسة عشرة من جديد، وهو في الخامسة عشرة. استعدتُ بغموض عُذريّة روحي (مادام جسدي فُقد إلى الأبد). نتبادل القُبل. إلهي، كُنتُ قد نسيت طعمها على ما أعتقد. كُنت أحيا بحثًا عمّا كنتُ أريده، ما عليّ فعله وكيفيّة فعله، ومتى عليّ التوقّف، وتقبّل الأمر نفسه من زوجي. كان كلّه خطأ. لم يعد واحدنا يستسلم للآخر تمامًا.

قد يتوقّف الآن. لـم نتخطّ التقبيل من قبل. كانت قبلة مطوّلة ولذيذة، تبادلناها في زاوية مخفيّة من المدرسة، مع أنّني أردت أن يراني الجميع ويحسدوني.

لا يتوقّف. طعم لسانه مرّ، كمزيج من الدخان والفودكا. أنا مُحرَجة ومشدودة؛ أعتقد أنّني أحتاج إلى تدخين سيجارة واحتساء بعض الفودكا لنتعادل. أدفعه عنّي بلطف، أتوجّه إلى ثلاّجة المشروبات وأتجرّع قنّينة صغيرة من الجين دفعة واحدة. تحرق الكحول حلقي. أطلب سيجارة.

يُعطيني واحدة، لكن ليس قبل أن يذكّرني بأنّ التدخين ممنوع في الغرفة. خَرْقُ القوانين يولد شعورًا جميلًا جدًّا، حتّى إن كان تافهًا إلى هذه الدرجة! أسحب نفسًا واحدًا وأشعر بالإعياء. لا أدري إن كان الجين هو السبب أو التدخين، أدخل إلى الحمام وأُلقي السيجارة في المرحاض من باب الأمان. يلحق بي، يُمسكني من الخلف،

ويُقبّل مؤخّرة عنقي وأذنيّ. جسمه ملتصق بجسمي، وأشعر بانتصاب قضيبه في ظهري.

أين أخلاقيّاتي؟ ماذا سيحدث عندما أغادر هذا المكان وأستأنف حياتي الطبيعيّة؟

يسحبني إلى الغرفة. أستدير، وأقبّل شفتيه ولسانه الذي له طعم التبغ، واللعاب، والفودكا. أعضّ شفتيه ويلامس نهديّ للمرّة الأولى منذ أن كنّا في الثانويّة. أخلع فستاني وأقذف به إلى الزاوية. أخجل من جسدي هنيهة. لم أعد فتاة أيّام ذاك الربيع في المدرسة. نبقى واقفين. الستائر مفتوحة وبحيرة «ليمان» هي الحاجز الوحيد بيننا وبين الناس في المباني على الضفّة البعيدة.

أتخيّل أحدًا يرانا، ويُهيّجني ذلك أكثر من تقبيله نهديّ. أنا فاسقة، عاهرة استأجرها رجل إداري ليضاجعها في فندق، وهي مستعدّة كليًّا لفعل أيّ شيء.

لكنّ هذا الشعور لا يستمرّ طويلاً. أنا في السادسة عشرة من جديد، يوم كنتُ أستمني عدّة مرّات في اليوم وأنا أفكّر فيه. أشدّ رأسه نحو صدري وأطلب منه أن يعضّ حلمتيّ بشدّة، وأصرخ قليلاً من الوجع واللذّة.

لا يزال مرتديًا ثيابه، وأنا عاريّة كليًّا. أُبعد رأسه وأطلب منه أن يلعق أماكني. لكنّه بدلاً من ذلك، يرمي بي على السرير، يخلع ملابسه، ويجثم فوقي. تبحث يداه عن شيء على الطاولة بجانب السرير. يُخلّ ذلك بتوازننا ونسقط أرضاً. إشارة أكيدة إلى كوننا مبتدئين. لكنّنا فعلاً مبتدئان ولا نخجل من ذلك.

يجد ما يبحث عنه: إنه واقٍ ذكري. يطلب مني أن أضعه بفمي.

أفعل، كمبتدئة غرّة تفتقر إلى البراعة. لا أفهم ما الداعي له. لا أصدّق أنّه يظنني أضاجع الجميع وأنّني قد أكون مصابة بشيء ما. لكنّني أحترم رغبته. لا تزال نكهة المطاط المزعجة في فمي، لكنّني عازمة على تعلّم كيفيّة القيام بذلك. لا أدعه يظن أنّها المرّة الأولى التي أستعمل فيها أحد هذه الأشياء.

عندما أنتهي، يقلبني ويطلب مني أن أجثو على ركبتيّ ويديّ. إلهي! الأمر يحدث! وأنا سعيدة.

لكنّه يبدأ بولوجي من شرجي بدلاً من مهبلي. أرتعب. أسأله ماذا يفعل، لكنّه لا يُجيب، يأخذ شيئًا آخر فحسب من الطاولة بجانب السرير ويمسح شرجي به. أعتقد أنّه ڤازلين، أو شيء شبيه به ثم يطلب أن أستمني. وببطء، يلجني.

أتبع تعليماته، شاعرةً من جديد بأنّني مراهقة ترى في الجنس أمرًا محرّمًا. إنّه مؤلم. آه كم أنّه مؤلم. أعجز عن الاستمناء- أشدّ الملاءات وأعضّ على شفتيّ لئلاّ أصرخ من الألم.

يقول آمرًا: «قولي إنّه مؤلم. قولي إنّك لم تفعلي هذا يومًا. اصرخي».

مرّة أخرى، أطيع أمره. إنّها الحقيقة تقريبًا: فعلتُه أربع مرّات أو خمسًا، لكنّه لم يرقني يومًا.

تشتدّ حركته. يئنّ من اللّذة. وأنا، من الألم. يشدّني من شعري كما يشد حيوانًا أو فرسًا، ويسرّع وتيرته. يسحب قضيبه بحركة واحدة، يمزّق الواقي، يقلبني، ويقذف على وجهي.

يُحاول ضبط أنينه، لكنّه أقوى من سيطرته على نفسه. ينحني

فوقي ببطء. أنا مرتاعة ومذهولة في آن من ذلك كلّه. يذهب إلى الحمام، يرمي الواقي في سلّة المهملات، ويعود.

يتمدّد إلى جانبي، يُشعل سيجارة أخرى ويستعمل كوب الفودكا منفضةً، واضعًا إيّاه على بطني. نحدّق طويلاً إلى السقف، صامتَين. يُداعبني. لم يعد الرجل العنيف الذي كان منذ لحظات، بل الشاب الرومنسي الذي ألِفَ محادثتي عن المجرّات وعلم الفلك في المدرسة.

«لا يُمكننا ترك أيّ روائح».

كلماته عودة قاسية إلى الواقع. على ما يبدو، ليست هذه المرّة الأولى بالنسبة إليه. هذا يُفسّر أمر الواقي والتفاصيل التي تشدّد على إعادة كلّ شيء في الغرفة كما كان قبل أن ندخلها. أشتُمُه في سرّي وأكرهه، لكنّني أقنّع ذلك بابتسامة وأسأله إن كان لديه أيّ نصائح لإزالة الروائح.

يطلب منّي أن أستحمّ عندما أصل إلى المنزل قبل معانقة زوجي. ويقترح كذلك أن أرمي سروالي التحتي لأنّ الفازلين سيبقّعه.

«إذا كان في المنزل، ادخلي راكضة، قائلة إنّك تستميتين للاستحمام».

أقرف من نفسي. انتظرتُ طويلاً لكي أتصرّف مثل نمرة، وانتهى بي الأمر إلى استغلالي مثل فرس. لكنّها الحياة، لا يقرّ بالواقع أبدًا من استيهاماتنا الرومنسية في زمن المراهقة.

تمام، سأفعل ذلك.

«أودّ أن أراكِ مرّة أخرى».

حسنًا. لم يتطلب الأمر سوى تلك الجملة البسيطة لتُحوّل ما

بدا جحيمًا، غلطة، هفوة، إلى نعيم. نعم، أودّ أن أراكَ أنا أيضًا مرّة أخرى. كُنت متوتّرة وخجولة، لكنّ المرّة المقبلة ستكون أفضل.

«في الواقع، كانت رائعة».

نعم، كانت رائعة. أدرك ذلك الآن فقط. نعلم أنّ نهاية هذه القصّة محتومة، لكن لا يهمّ الآن.

لا أضيف كلمة أخرى. أستمتع فقط باللحظة إلى جانبه وأنتظر أن يُنهي سيجارته قبل أن أرتدي ملابسي وأسبقه إلى الأسفل.

سأغادر من الباب نفسه الذي دخلت منه.

سأركب السيّارة نفسها وسأقود إلى المكان نفسه الذي أرجع إليه كلّ ليلة. سأدخل راكضة، قائلة إنّني مصابة بعُسر الهضم وأحتاج إلى قضاء حاجتي. سأستحمّ، مُزيلةً القليل الذي بقي منه عليّ.

وعندئذٍ فقط، سأقبّل زوجي وولديّ.

تعارضت نيّاتنا في غرفة الفندق تلك.

كنتُ أسعى إلى رومنسية مفقودة، وحرّكته هو غريزة صيّاد.

كنتُ أبحث عن الفتى من مراهقتي، وأراد هو المرأة الجذّابة والجريئة التي ذهبت إلى إجراء مقابلة معه قبل الانتخابات.

اعتقدتُ بأنّ حياتي قد تتّخذ اتّجاهًا آخر، وفكّر هو أنّ بعد ظهر ذاك اليوم سيعني شيئًا مختلفًا غير المناقشات المضجرة التي لا تنتهي في المجلس الاتّحادي.

بالنسبة إليه، كان مجرّد لهو بسيط، لكن خطير. بالنسبة إليّ، كان شيئًا وحشيًا لا يُغتفر، عرضًا للنرجسيّة المجبولة بالأنانيّة.

يخون الرجال لأنّ ذلك في شيفرتهم الوراثيّة. وتغشّ المرأة لأنّها لا تملك من الكرامة إلاّ النزر، فبالإضافة إلى تسليم جسدها، ينتهي بها الأمر دومًا إلى تسليم قليل من قلبها. جريمة حقّة. سرقة. إنّها أسوأ من السطو على مصرف، لأنّها إن هي ضُبطت يومًا (وتُضبط دومًا)، ستُلحِق بعائلتها ضررًا لا يُعوّض.

في نظر الرجال هي «غلطة حمقاء». وفي نظر النساء، تبدو وكأنّها جريمة روحيّة بحقّ كلّ من يغمرها بالعطف ويُساندها كأمّ وزوجة.

وأنا مستلقية إلى جانب زوجي، أتخيّل جاكوب مُستلقيًا إلى جانب ماريان. تقلقه مشاغل أخرى: اجتماعات سياسيّة في الغد، مهمّات تستدعي الإنجاز، جدول أعماله الحافل، في حين أنني، أنا البلهاء، أحدّق إلى السقف وأستحضر كلّ ثانية قضيتها في ذاك الفندق، أشاهد الفيلم الإباحي نفسه مرارًا وتكرارًا، حيث كنت البطلة.

أتذكّر اللحظة التي نظرتُ فيها من النافذة وتمنّيتُ لو أنّ أحدًا يراقبنا بمنظاره - لعلّه يستمني أيضًا وهو يراقبني وأنا أقبل الخنوع، والذلّ، وولوجي من الخلف. مجرّد التفكير بذلك هيّجني! أفقدني صوابي ودفعني إلى استكشاف جانب من نفسي كنت غافلة عنه.

أنا في العقد الثالث من عمري. لستُ ولدًا، وحسبت أنني استنفدت كل شيء ولم يعد بي ما يدفع إلى استكشافه؛ فتحتُ بوّابات الفيضان وأريد أن أمضي بعيدًا، أن أجرّب كلّ ما أعلم بوجوده: المازوشيّة، الجنس الجَماعي، الشبق، كلّ شيء.

أعجز عن القول إنّني لا أريد مزيداً، إنّني لا أحبّه، أو إنّ ما حدث كان مجرّد استيهام ولّدته وحدتي.

لعلّني لا أحبّه فعلاً. لكنّني أحبّ ما أيقظه فيَّ. عاملني باحتقار كلّي، وجرّدني من كرامتي. وبلا رادع، فعل بالضبط ما أراد فعله، بينما جهدت مرّة أخرى في محاول إرضاء أحدهم.

يرتحل ذهني إلى مكان سرّي وغير مألوف. هذه المرّة أنا المسيطِرة. هو عارٍ، لكنّني الآمِرة الآن. أوثق يديه ورجليه، وأجلس على وجهه وأُرغمه على تقبيل مهبلي إلى أن أعجز عن تحمّل مزيد من النشوة. ثمّ أقلبه وأُدخل أصابعي في شرجه: واحدًا أولاً، ثمّ اثنين، فثلاثة.

يتأوَه من الألم واللذّة فيما أداعب قضيبه بيدي الأخرى، وأُحسّ بالسائل الساخن يسيل على أصابعي. أقرّبها من فمي، وألعقها، إصبعًا تلو الإصبع، قبل أن أمسح وجهه بها. يتوسّلني طالبًا المزيد. أقول إنّ هذا يكفي. فأنا المسيطِرة!

قبل أن أنام، أستمني وأنتشي مرّتين على التوالي.

إنـه المشهد نفسه اليوم، ككل صباح: يقرأ زوجي الأخبار اليوميّة على جهاز الآي- پاد، يجلس الولدان مُستعدَين للذهاب إلى المدرسة، تتسلّل الشمس من النافذة، وأدّعي القلق وأنا أرتعد خوفًا حتّى الموت من أن يشتبه أحدٌ منهم بشيء.

«تبدين أكثر سعادةً اليوم».

أبدو أكثر سعادة، وأنا كذلك، لكن لا يجدر بي ذلك. كانت تجربة أمس خطرًا على الجميع، خصوصًا عليّ أنا. هل من ريبة مُبطّنة في تعليقه؟ أشكّ في ذلك. هو يصدّق كلّ ما أخبره به. ليس لأنّه أحمق- وهو أبعد ما يكون عن ذلك- بل لأنّه يثق بـي.

وهذا يزيد استيائي. لستُ أهلاً للثقة.

في الواقع، بلى، أنا أهلٌ لها. مضيت إلى ذلك الفندق بحجج كاذبة. هل هذا عذرٌ وجيه؟ لا. إنّه فظيع، لأنّ أحدًا لـم يرغمني على الذهاب إلى هناك. باستطاعتي الادّعاء أنني كنت أشعر بالوحدة ولـم أكن ألقى الاهتمام الذي أحتاج إليه، بل التفهّم والتسامح فقط. باستطاعتي أن أقول لنفسي إنّني احتجتُ إلى من يتحدّانـي، من يواجهني، ومن يُشكّك في ما أفعل. باستطاعتي الادّعاء أنّ ذلك يحدث للجميع، ولو في أحلامهم فقط.

لكن في الصميم، ما جرى بسيطٌ جدًا: ضاجعتُ رجلاً لأنّني

كنت أستميت لمضاجعته. لا أكثر. لا تبرير فكريًا أو نفسيًا. أردتُ أن أمارس الجنس. نقطة على السطر.

أعرف أشخاصًا تزوّجوا طلبًا للأمان، والجاه، والمال. كان الحبّ آخر بند على اهتماماتهم. لكنّني تزوّجت من أجل الحبّ.

لـمَ إذًا فعلت ما فعلت؟

لأنّني أشعر بالوحدة. لـمَ؟

يقول: «جميل جدًا أنا أراك سعيدة».

أقول نعم إنّني سعيدة، سعيدة حقًا. الصباح الخريفي جميل، المنزل مرتّب ونظيف، وأنا مع الرجل الذي أحبّ.

ينهض ويقبّلني. يبتسم الولدان، حتّى ولو أنهما لم يفهما تمامًا فحوى حديثنا.

«وأنا مع المرأة التي أحبّ. لكن لـمَ تقولين لي هذا الآن؟».

ولـمَ لا أقوله الآن؟

«إنّه الصباح. أريد أن تكرّريه هذه الليلة، عندما نكون معًا في الفراش».

يا إلهي، من أنا!؟ لـمَ أقول هذه الأمور؟ لئلاّ يشتبه بشيء؟ لـمَ لا أتصرّف كما أفعل كلّ صباح وأؤدّي دور المرأة الفاعلة التي تهتمّ بمصلحة أسرتها؟ ما معنى عروض العواطف هذه؟ إن أبديت كثيرًا من العطف، فقد يرتاب.

يقول، وهو يرجع إلى مكانه على المائدة: «لا يُمكنني العيش من دونك».

أنا تائهة. لكن الغريب أني لا أشعر بأي ذنبٍ مما حدث أمس.

عندما أصل إلى العمل، يُثني رئيس التحرير عليّ. المقالة التي اقترحتها نُشرت هذا الصباح.

«تلقّينا كثيرًا من الرسائل الإلكترونيّة التي أُرسلَت إلى غرفة الأخبار تُثني على القصّة مع الرجل الكوبي الغامض. يريد الناس معرفة هويّته. إذا سمح لنا بنشر عنوانه، فسيزدهر عمله فترة طويلة».

الشامان الكوبي! إذا قرأ الصحيفة، فسيرى أنّه لم يخبرني قط بأي شيء مما ورد في المقالة. استقيتُ كل ما كتبْته عن الشامانية، من مدوّنات تناولتها. يبدو أن أزماتي لا تقتصر على المشكلات الزوجيّة، بل إنّني أبدأ بالانحطاط مهنيًا.

أذكر لرئيس التحرير اللحظة التي نظر فيها الشامان إلى عينيّ وهدّدني إن كشفت هويّته. يقول إن ما يزعمه الشامان غير قابل للتصديق ويسأل إن كان بإمكاني تزويد زوجته بعنوانه.

«هي متوترة للغاية مؤخّرًا».

الجميع متوتّرون للغاية، بمن فيهم الشامان. لا يسعني أن أعد بأيّ شيء، لكنّني سأتكلّم معه.

يطلب إليّ أن أتّصل به الآن. أتّصل، وأُفاجأ بردّ فعل الرجل الكوبي. يشكرني على صدقي وعلى إبقاء هويّته سرًّا ويمدح

معرفتي الموضوع. أشكره، أخبره عن ردود الفعل على المقالة، وأسأل إن كان بوسعنا تحديد لقاء آخر.

«لكنّنا تحدّثنا ساعتين! والمادة التي في حوزتك يجب أن تكون أكثر من كافية!».

أشرح أنّ العمل الصحفي لا يجري على هذا النحو. ما نُشرَ استَمدَّ إلى القليل من تيك الساعتين. كان عليّ إجراء البحث عن معظم ما نُشر. الآن عليّ أن أقارب الموضوع بطريقة مختلفة.

لا يزال مديري واقفًا إلى جانبي، يستمع إلى حديثي ويؤشّر لي. أخيرًا، عندما يوشك الشامان أن ينهي المكالمة، أصرّ على أنّ المقالة كانت ناقصة. عليّ أن أسبر الدور الأنثوي في هذا المسعى «الروحاني»، وأنّ زوجة مديري تودّ لقاءه. يضحك. لن أفسخ البتّة الصفقة التي أجريتها معه، لكنّني أشدّد على أنّ الجميع يعلمون أين يقطن ودوام عمله.

أرجوك، اقبل أو ارفض. إذا كنتَ لا تريد تكملة الحديث، فسأجد شخصًا يفعل ذلك. كثيرون من يدّعون أنّهم خبراء في علاج المرضى الذين يوشكون أن ينهاروا عصبياً. طريقتهم مختلفة، لكنّك لست الشافي الروحي الوحيد في المدينة. اتّصل بنا كُثُر هذا الصباح، ومعظمهم من الأفارقة، وهم يتطلّعون إلى إبراز عملهم، وجني المال، ولقاء أشخاص مهمّين يُمكنهم حمايتهم في حال الترحيل.

يتردّد الكوبي في البداية، غير أنّ غروره وخوفه من المنافسة يبرزان أخيرًا. نُحدّد اللقاء في منزله في قرية «ڤيرييه». أتوق إلى رؤية أسلوب عيشه، سيُحيي ذلك المقالة.

نحن في غرفة صغيرة من غُرف منزله حُوّلت مكتبًا. على الحائط مخطّطات تبدو كأنّها مستوردة من الهند: مواضع مراكز الطاقة،

أسفل القدمين مع مسارات الطاقة عليها. بلّورات عدة موضوعة فوق قطعة أثاث.

سبق أن أجرينا حديثًا شيّقًا جدًا حول دور المرأة في الطقوس الشامانيّة. يشرح لي أننا نختبر جميعاً عند الولادة لحظات من التجلي، ويشيع هذا بين الإناث أكثر من الذكور. المعروف علمياً أن إلهة الزراعة أنثى دوماً، والأعشاب الطبيّة أدخلتها النساء إلى الكهوف. هنّ أكثر حساسيّة في الأمور المتعلقة بالعالم الروحاني والوجداني، وهذا يجعلهنّ أكثر عرضة للأزمات التي درج الأطبّاء على تسميتها بالهستيريا، وتُسمّى اليوم «ثنائيّة القطب»- النزعة إلى الانتقال من الغبطة المطلقة إلى الحزن العميق مرّات عدّة في اليوم. في نظر الرجل الكوبي، تميل الأرواح إلى محادثة النساء أكثر منها إلى الرجال، لأنّهن يفهمن بشكل أفضل لغة لا يُعبَّر عنها بالكلمات.

أحاول أن أحاكي طريقته في الكلام: هل من المحتمل أن تدفع روح شريرة النساء إلى فعل أمور لا نريد أن نفعلها بفعل هذه الحساسية المفرطة؟

لا يفهم سؤالي. أُعيد صياغته. إذا كانت النساء غير متوازنات عاطفيًا إلى حدّ بعيد للانتقال من السعادة إلى الحزن...

«هل استعملتُ عبارة: غير متوازنات؟ لم أفعل. على العكس. على الرغم من حساسية النساء العالية، فإنّهن أكثر توازنًا من الرجال».

كما في الحبّ مثلاً. يوافقني الرأي. أخبره بكلّ ما جرى لي، وأبدأ بالبكاء. لا يتأثر. غير أنّ قلبه ليس من حجر.

«في شأن الزنى، لا ينفع التأمّل كثيرًا أو لا ينفع البتّة. في هذه

الحال، يكون الشخص سعيدًا بما حدث. هو يُحافظ على الأمان في علاقته في الوقت نفسه الذي يختبر فيه مغامرة. إنّه الوضع المثالي».

ما الذي يدفع الناس إلى الزنى؟

«هذا ليس من اختصاصي. رؤيتي للموضوع شخصيّة جدًا، لكن لا ينبغي أن تنشريها».

أرجوك ساعدني.

يُشعل مزيدًا من البخّور، يطلب إليّ أن أتربّع إزاءه، ثم يجلس هو في الوضعيّة نفسها. هو الذي كان قاسيًا من قبل، يبدو الآن رجلاً حكيماً لطيفاً، يحاول مساعدتي.

«إذا قرّر المتزوّجون، لأيّ سبب يكن، البحث عن شريك آخر، فلا يعني هذا بالضرورة أن علاقة الثنائي لا تجري على ما يرام. ولا أعتقد كذلك أنّ الجنس هو الدافع الأساسي. الأمر يتعلق بالضجر والافتقار إلى الشغف وقلّة التحدّيات أكثر مما يتعلق بالجنس. إنّها توليفة من العوامل».

ولـمَ يحدث ذلك؟

«منذ أن ابتعدنا عن الله، نحيا مجزّئين. نحاول البحث عن الوحدانيّة، لكنّنا نجهل طريق العودة؛ وهكذا، نشعر دائماً بعدم الرضى. يضع المجتمع المحرّمات ويَسُنّ القوانين، لكنّ ذلك لا يحلّ المشكلة».

أشعر بأنّني أخفّ، كأنني امتلكت منظوراً آخر منذ الآن. يُمكنني أن أرى ذلك في عينيه: يعرف ما يقول لأنّه سبق أن مرّ به.

«أعرف رجلاً يكون عاجزًا جنسيًا عندما كان مع حبيبته.

مع ذلك، أحبّ أن يكون قربها، وكانت ترتاح هي أيضًا لوجودها قربه».

أعجز عن لجم نفسي. أسأله إن كان هو هذا الرجل.

«نعم. هجرتني زوجتي لهذا السبب. لكنّه لا يشكّل سببًا لاتّخاذ قرار جذري كهذا».

وما كان ردّ فعلك؟

«كان بإمكاني طلب المساعدة الروحيّة، لكنّني كنتُ سأدفع ثمن ذلك في حياتي التالية. توجّب عليّ أن أفهم لمَ تصرّفت هكذا. ولكي أقاوم التجربة في استعادتها عبر السحر، شرعتُ في دراسة الموضوع».

حُكمًا، تتحوّل هيئة الرجل الكوبي إلى هيئة مهني محترف.

«حاول باحثون من جامعة تكساس في أوستن الإجابة عن السؤال الذي يطرحه كثيرون: لمَ يخون الرجال أكثر من النساء على الرغم من علمهم بأنّ تصرّفًا مماثلاً مدمّر للذات ويُلحق الأذى بمن يُحبّون؟ وخلصوا إلى أنّ الرجال والنساء يملكون رغبةً متساوية في الخيانة. لكن يصدف أنّ النساء يتمتّعن بدرجة أعلى من ضبط النفس».

ينظر إلى ساعة يده. أطلب إليه أن يُكمل- لعلّه فرحٌ بأن يشرّع روحه.

«اللقاءات السريعة التي لا يُبدي فيها الرجل أيّ عاطفة، والتي تهدف حصرًا إلى إشباع الشهوات الجنسيّة، تُتيح الحفاظ على الأجناس وتوالدها. لا يجدر بالنساء الذكيّات لوم الرجال على ذلك. هم يحاولون مقاومة الرغبة، لكنّهم ينزعون إليها بيولوجيًا. هل كلامي اصطلاحيّ جدًا؟».

لا.

«هل لاحظتِ كيف يهاب البشر العناكب والأفاعي أكثر من السيّارات، على الرغم من أنّ الموت بسبب حوادث السير أكثر شيوعًا؟ يحدث ذلك لأنّ عقولنا لا تزال تحيا في زمن أهل الكهف، عندما كانت الأفاعي والعناكب قاتلة. ينسحب ذلك على حاجة الرجل إلى اتّخاذ عدّة نساء. في ذلك الزمن، كان الرجل يصطاد، وعلّمته الطبيعة أنّ الحفاظ على الأجناس أولويّة؛ وأن عليه أن يجعل أكبر عدد ممكن من النساء حوامل».

ألـم تفكّر النساء أيضًا في الحفاظ على الأجناس؟

«بالطبع. لكن في حين أنّ التزام الرجل يدوم إحدى عشرة دقيقة في أقصى حدّ، تلتزم المرأة بالحمل مدة تسعة أشهر. ناهيكِ بوجوب رعاية المولود، وإطعامه، وحمايته من الخطر، كخطر العناكب والأفاعي. لذا تطوّرت غريزة الرجال بشكل مختلف عن غريزة النساء. أصبح العطف وضبط النفس أهمّ».

هو يتحدّث عن نفسه. هو يحاول تبرير ما فعل. أجول بنظري على تلك الخرائط الهنديّة، والبلّورات، والبخّور. في الصميم، كلّنا متشابهون. نقترف الأخطاء نفسها، ونطرح الأسئلة نفسها من دون أن نلقى إجابة.

ينظر الرجل الكوبي إلى ساعة يده مجدّدًا ويقول إنّ وقتنا قد انتهى. سيصل زبون آخر، وهو يحاول ألاّ يلتقي المرضى في غرفة الانتظار. ينهض ويسير معي إلى الباب.

«لا أريد أن أكون فظًا، لكن أرجو ألا تعودي مرة أخرى. لقد قلتُ كلّ ما عندي».

جاء في الكتاب المقدّس:

وفي إحدى الأُمسيات نهضَ داوُد عن سريرهِ وأخذ يتمشّى على سطح قصرهِ، فشاهدَ امرأةً ذاتَ جمالٍ أخّاذٍ تستحمُّ. فأرسلَ داوُد من يتحرّى عنها. فأبلغهُ أحدهم: «هذه بَتْشَبَعُ بنتُ أليعامَ زوجة أوريّا الحثّيّ».

فبعثَ داوُد يستدعيها. فأقبلتْ إليهِ وضاجعها إذْ كانت قد تطهَّرت من طمثها، ثُمّ رجعت إلى بيتها. وحملتِ المرأةُ فأرسلتْ تُبلّغُ داوُد بذلك.

ثمّ أمر داوُد أن يُجعَلَ أوريّا، وهو محارب مخلص له، في خطّ المواجهة في المعركة لإتمام مهمّة خطيرة. قُتل، وذهبت بتشبع للعيش مع الملك في قصره.

داوُد، القدوة العظيمة، المحبوب على مدى الأجيال، المحارب الجَسور، لم يرتكب الزنى فحسب، بل أمر بقتل خصمه طاعنًا إخلاصه وحسن نيّته.

لا أحتاج إلى تبريرات من الكتاب المقدّس في شأن الزنى أو القتل. لكنّني أذكر هذه القصّة من أيّام الدراسة، في المدرسة ذاتها التي تبادلتُ فيها وجاكوب القُبَل ربيعًا.

مرّت سنوات كثيرة قبل أن تتكرر تلك القُبل، وعندما تكرّرت أخيرًا، كانت تمامًا كما لم أتصوّرها. بدت خسيسة، أنانيّة،

منحوسة. لكنّها راقتني في كلّ الأحوال وأردتُ أن تتكرّر من جديد، في أقرب وقت ممكن.

ألتقي جاكوب أربع مرّات في غضون أسبوعين. يتبدّد التوتّر تدريجًا. نُمارس الجنس التقليدي وغير التقليدي. لا أزال عاجزة عن عيش استيهامي في أن أوثقه وأُرغمه على تقبيل أماكني حتّى أعجز عن تحمّل اللذة. لكنّني سأفعل.

رويدًا رويدًا، تفقد ماريان أهمّيتها. أمس، كُنت مع زوجها مجدّدًا، ويُظهِر ذلك مدى صغر شأنها في كلّ ما يجري. لم أعد أريد أن تكتشف مدام كونيش أمرنا أو أن تفكّر في الطلاق، لأنّه بهذه الطريقة، أستطيع التلذّذ بوجود عشيق من دون أن أضطرّ إلى التخلّي عن كلّ ما حقّقته بالعمل الجاد وضبط النفس: أعني ولديّ، وزوجي، وعملي، وهذا المنزل.

ماذا سأفعل بالكوكايين الذي خبّأته، الكوكايين الذي يُمكن أن يُعثر عليه في أي لحظة؟ أنفقت كثيراً من المال عليه. لا أستطيع أن أحاول إعادة بيعه؛ سأكون على بُعد خطوة واحدة من سجن «ڤاندُڤِر». قطعت على نفسي وعدًا ألاّ أتعاطاه بعد الآن. يُمكنني أن أقدّمه هديّة لمن أعرف أنّهم يحبّونه، لكن قد تتأثّر سمعتي، أو يحدث ما هو أسوأ من ذلك، قد يسألون إن كان بإمكاني تأمين المزيد.

تحقيقي لحلمي في استدراج جاكوب إلى فراشي رفعني إلى أعالٍ شاهقة، لكنّه عاد وهبط بي إلى الواقع. اكتشفتُ أنّ ما أشعر به مجرّد افتتان، مقدّر له أن ينتهي في أيّ لحظة، على الرغم من اعتقادي بأنّه حبّ. لستُ مهتمّة ولو قليلاً بصونه: سبق أن خضتُ المغامرة، وحصلتُ على لذّة التعدّي، على التجارب الجنسيّة الجديدة،

على الفرح. كلّ ذلك من دون أن أشعر بأي ندم. أنا أقدّم لنفسي الهديّة التي أستحقّها بعد أن كنتُ صالحة سنوات كثيرة.

أنا في سلام. على الأقلّ بقيتُ هكذا حتّى هذا اليوم.

بعد أيّام كثيرة من النوم الهنيء، أشعر كأنّ التنّين قد انبعث مجدّدًا من الهاوية التي كان قد أُقصي إليها.

هل الشكلة تكمن في داخلي أم في اقتراب عيد الميلاد؟ إنّه الوقت الذي يُغرقني في الاكتئاب أكثر من سواه، ولا أقصد اضطرابًا في الهرمونات أو نقصًا في مواد كيميائيّة معيّنة من جسمي. أنا مسرورة لأن الأمور لا تُجاوز حدّها في جنيف كما يحدث في بلدان أخرى. قضيتُ عطلة الأعياد في نيويورك ذات مرّة. عمّت الأضواء، والزينة، والمرنمون، والواجهات المزيّنة، والرنّة، والأجراس، والنُدَف الثلجيّة الاصطناعيّة، والشجر الذي تكسوه زينة من كل الحجوم والألوان، والابتسامات الملتصقة على وجوه الجميع في كلّ مكان... أمّا أنا، فمن المؤكد أنّني كنتُ مِسخًا وكنت الوحيدة التي شعرت بأنّها دخيلة كليًا. مع أنّني لم أتعاطَ الـ«ل إس دي» يومًا، أعتقد أنّكَ تحتاج إلى جرعة ثلاثيّة لكي تتمكّن من رؤية كلّ تلك الألوان.

هنا، أكثر ما نراه بعض الزينة في الشارع الرئيس، والأرجح أنّها للسيّاح (تبضّعوا! خذوا شيئًا لأولادكم من سويسرا!). لكنّني لم أقصده بعد، لذا لا يُعقل أن يكون عيد الميلاد خلف شعوري. ليس هناك بابا نويل واحد مُعلّق على موقد مدخنة، ليُذكّرنا بوجوب أن نكون سعداء طوال شهر كانون الأول/ديسمبر.

أتقلّب في سريري كالعادة. زوجي نائم كالعادة. مارسنا الحبّ الليلة. أضحت ممارستنا له أكثر تواترًا مؤخّرًا، ولا أدري إن كان ذلك لإخفاء علاقتي الغراميّة، أو لأنّ شهوانيّتي قد ازدادت. في

الحقيقة، أصبح يُثيرني جنسيًا أكثر. لا يطرح عليّ الأسئلة عندما أرجع إلى المنزل في وقتٍ متأخّر، ولا يُظهر أنّه غيور. باستثناء المرّة الأولى، عندما اضطررتُ إلى الإسراع إلى الحمّام منفّذةً تعليمات جاكوب في محو كلّ أثر للروائح والملابس الملطّخة. الآن، أجلب معي دومًا سروالاً داخليًا إضافيًا، أستحمّ في الفندق، وأدخل المصعد متبرّجة على أتمّ وجه. لا أُبدي أيّ عصبيّة ولا أُثير الشكوك. صادفتُ مرّتين أشخاصًا أعرفهم، وحرصتُ على إلقاء التحيّة عليهم وتركهم يتساءلون: «هل تُواعد أحدًا؟».هذا مفيد للأنا وآمِنٌ كليًا. في النهاية، إذا كانوا في مصعد فندق في المدينة نفسها التي أعيش فيها، فهم مذنبون بقدر ذنبي.

أغفو ثمّ أصحو مجدّدًا بعد بضع دقائق. خلق ڤيكتور فرانكنشتاين وحشه، وسمح الدكتور دجيكل لوحشه بالظهور. لا يُخيفني ذلك حتّى الآن، لكن ربـمّا عليّ أن أشرع في وضع بضع قواعد لسلوكي.

في داخلي جانب صريح، ولطيف، ومُحبّ، ومحترف، وقادر على الحفاظ على رباطة الجأش في اللحظات الصعبة، خصوصًا في خلال المقابلات، عندما يُظهر بعض الأشخاص العدائيّة أو يتملّصون من أسئلتي.

لكنّني في صدد اكتشاف جانب أكثر عفويّة، وأقلّ صبرًا، وأكثر جموحًا، جانب لا يقتصر على غرفة الفندق حيث ألتقي جاكوب، جانب بدأ يؤثّر في نمطي اليومي. أغتاظ الآن بسهولة عندما يثرثر بائع مع زبون على الرغم من وجود صفّ من الناس في الانتظار. الآن، أذهب إلى السوبرماركت للضرورة فقط، ولم أعد

أنظر إلى الأسعار وتاريخ الصلاحيّة. عندما يقول أحدهم شيئًا لا أوافق عليه، أعتبر أنّ الردّ ضروري. أُناقش في شؤون السياسة. أدافع عن أفلام يكرهها الجميع وأنتقد تلك التي يحبّها الكلّ. يروقني أن أُفاجئ الناس بآراء سخيفة وفي غير محلّها. باختصار، لم أعد المرأة الرصينة.

بدأ الناس يُلاحظون ذلك. يقولون: «أنتِ مختلفة!». وهم في قولهم هذا على قيد أنملة من قول «أنت تُخفين شيئًا»، الذي لا يلبث أن يتحوّل إلى «ليس عليك أن تخفي شيئًا إلاّ إذا كنت تفعلين أمرًا لا يجدر بك فعله».

قد أكون أعاني نوبة ذعر فقط. لكن اليوم أشعر وكأنني شخصان مختلفان.

كل ما كان على داود فعله هو إصدار الأمر لرجاله لكي يأتوه بتلك المرأة. لم يحتج إلى التبرير. وعندما نشأت المتاعب، أرسل زوجها إلى خطّ المواجهة في الجبهة. الأمر مختلف في حالتي. على الرغم من حشمة السويسريين، يُمسون مختلفين في وضعين اثنين:

الأوَل في زحمة السير. إذا تباطأ أحدهم هنيهة كي يستأنف سيره عندما تُضيء الإشارة الخضراء، نُطلق زمّورنا فورًا. إذا غيّر أحدهم خط سيره، حتّى لو كانت إشارة الانعطاف تومض، سيتلقّى دومًا نظرات احتقار إن نظر في مرآته الخلفيّة.

والثاني في حال التغيُّر الخطير، أقصد تغيير منزلنا، أو وظيفتنا، أو سلوكنا. هنا، كلّ شيء مستقرّ، يسلك الجميع السلوك المتوقَّع منهم. أرجوك لا تحاول أن تكون مختلفًا أو تُعيد ابتكار نفسك فجأة،

لأنّك ستُهدّد مجتمعنا بأكمله. عَمِلَ هذا البلد جاهدًا لبلوغ وضعه «المُنجز»؛ لا نُريد أن نعود إلى وضع «قيد الترميم».

أنا وأُسرتي كلّها في المكان الذي قُتل فيه وليام، شقيق ڤيكتور فرانكنشتاين. على مدى قرون، كانت هذه البقعة مستنقعًا. بعد أن حوّلت يدا كالڤين الهمجيّة جنيف إلى مدينة محترمة، كان المرضى يُجلبون إلى هنا، إمّا ليموتوا من الجوع في العادة وإما من التعرّض لعوامل الطبيعة، وهكذا تبقى المدينة بمنأى من الأوبئة.

«پلانپاليه» شاسعة، هي البقعة الوحيدة في وسط المدينة الخالية من الخضرة. في الشتاء، تنخر الريح العظام لبرودتها. في الصيف، تُذيبنا الشمس عرقًا. يا للسخافة. لكن منذ متى كان وجود الأمور يحتاج إلى تعليل؟

إنّه السبت وثمّة تجّار أثريّات منتشرون بأكشاكهم في كلّ مكان. أصبحت هذه السوق قبلة السيّاح، حتّى أنّها تظهر في أدلّة السفر على أنّها من «الأمور الجيّدة التي يجب فعلها». تختلط أثريّات من القرن السابع عشر بأجهزة الفيديو. تُعرض منحوتات برونزيّة من أماكن نائية في آسيا إلى جانب أثاث رائع من الثمانينيات. يعجّ المكان بالناس. قلّة من العارفين الضُّلَع يُعاينون بصبر قطعة ما ويتحدّثون مطوّلاً مع البائعين. تجد الغالبيّة، من السيّاح والمتفرّجين، أشياء لن يحتاجوا إليها أبدًا، لكن ينتهي بهم الأمر إلى شرائها لأنّها بخسة الثمن للغاية. يرجعون إلى المنزل، يستعملونها مرّة، ثمّ يضعونها في مرأب السيّارة، وهم يفكّرون: «لا نفع منها أبدًا، لكن كانت لقطة».

عليّ أن أضبط الولدين طوال الوقت؛ يريدان لمس كلّ شيء، من الزهريّات الكريستاليّة القيّمة إلى الألعاب الفاخرة من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لكن على الأقلّ هما يتعلّمان أنّ الحياة الذكيّة تتخطّى ألعاب الفيديو.

يسأل واحد منهما إذا كان بإمكاننا شراء مهرّج حديدي متحرّك الشفتين والأعضاء. يعرف زوجي أنّ اهتمامهما باللعبة سيدوم مسافة الطريق إلى المنزل فقط. يقول إنّها «قديمة» وبإمكاننا شراء شيء جديد في طريق عودتنا. في الوقت نفسه، يُشتّت انتباههما بضع علب من الكُلل، التي درج الأولاد على اللعب بها في الحديقة الخلفيّة.

أحدّق إلى لوحة صغيرة، لامرأة عارية، مستلقية في الفراش، وملاك يهمّ بالابتعاد والرحيل. أسأل البائع عن كلفتها. قبل أن يذكر ثمنها (وهو زهيد)، يشرح أنّها نسخة عن الأصل نفّذها رسّام محلّي غير معروف. يراقبنا زوجي من دون التفوّه بكلمة، وقبل أن يتسنّى لي شكر الرجل على المعلومات وأمضي، يكون قد سدّد ثمنها.

لـمَ فعلتَ هذا؟

«هي تمثّل أسطورة قديمة. عندما نصل إلى المنزل سأخبرك القصّة».

أريد أن أُغرم به مجدّدًا. لم أكفّ عن حبّه- لطالما أحببته وسأحبّه دومًا - لكنّ حياتنا معًا على حافة الرتابة. يُمكن للحبّ أن يصمد إزاءها، لكنّها قاتلة للشهوة.

أمرُّ بوقت عصيبٍ للغاية. أعرف أنّ علاقتي بجاكوب لا مستقبل لها، وأنّني أدرتُ ظهري للرجل الذي بنيتُ حياةً معه.

يكذب من يقول إنّ «الحب كافٍ». لم يكن كذلك يومًا ولن يكون أبدًا. المشكلة الكبرى هي أنّ الناس يُصدّقون ما يقرأونه في الكتب ويرونه في الأفلام: طرفا الثنائي اللذان يسيران على الشاطئ، ويداهما متشابكتان، يُحدّقان إلى الغروب، ويُمارسان الحبّ الشغوف كلّ يوم في فنادق جميلة تُطلّ على جبال الألپ. فعلتُ وزوجي كلّ هذا، غير أنّ السحر يدوم سنة فقط أو سنتين على الأكثر.

ثمّ، يأتي الزواج. اختيار المنزل وتأثيثه، التخطيط لغرفة الأولاد الذين سننجبهم، تبادل القبلات، والأحلام، تناول نُخب من الشمپانيا في غرفة المعيشة الفارغة التي ستصبح قريبًا تمامًا كما تصوّرناها - كلّ شيء في مكانه. بعد سنتين على ولادة الولد البكر، يمتلىء المنزل، وإن أضفنا شيئًا، نخاطر في أن نبدو كأنّنا نحيا للتأثير في الآخرين وسنقضي باقي حياتنا نشتري الأثريّات وننظّفها (التي سيبيعها ورثانا لاحقًا لقاء أغنية ما وسينتهي بها الأمر في سوق «پلانپاليه»).

بعد ثلاث سنوات من الزواج، يعرف الواحد مسبقًا مُراد الآخر وما يفكر فيه. في حفلات العشاء، نُجبر على الاستماع إلى القصص نفسها التي سمعناها مرارًا وتكرارًا، مُدّعين التفاجؤ بها على الدوام، وتأكيدها أحيانًا. ينتقل الجنس من كونه شغفًا إلى واجبٍ، ولهذا تتباعد ممارسته بشكل متزايد. وما يلبث أن يقتصر على مرّة في الأسبوع، هذا إن حدث. تتسكّع النسوة ويتفاخرن بنار أزواجهنّ المتأجّجة، وهي ليست سوى كذبة صرف. يعلم الجميع ذلك، لكنّ أحدًا لا يودّ أن يتعرّض للنبذ.

ثمّ يحين وقت العلاقات الغراميّة خارج الزواج. النسوة يتكلّمن

عن عشّاقهن وعن نارهم المتأجّجة. ألا يفعلن ذلك!؟ ثمّة جانب من الحقيقة في ذلك، لأنّه يحدث في الغالب في إطار عالم الاستمناء الساحر. إنّه واقعيّ واقعيّة عالم النسوة اللواتي يطلقن العنان لأنفسهن كي يستميلهن أوّل رجل، بغضّ النظر عن صفاته. يشترين ملابس باهظة الثمن ويدّعين التواضع، مع أنّهن يُبرزن من الشهوانيّة ما يفوق شهوانيّة فتاة في السادسة عشرة من العمر. الفرق الوحيد أنّ الفتاة على دراية بالقوّة التي تملكها.

أخيرًا، يحين وقت الاستسلام للرتابة. يصرف الزوج ساعات بعيدًا عن المنزل، منهمكًا في العمل، وتُكرّس الزوجة وقتًا أطول من اللازم لرعاية الأولاد. نحن في هذه المرحلة، وأنا مستعدّة لفعل أيّ شيء لتغييرها.

الحبّ وحده لا يكفي. أحتاج إلى أن أُغرم بزوجي مجدّدًا.

ليس الحبّ مجرّد شعور، إنّه فنّ: بقدر ما هو إلهام، هو جدٌّ ومثابرة.

لمَ يبتعد الملاك ويترك المرأة وحدها في الفراش؟

«ليس ملاكًا. هو إيروس، إله الحبّ الإغريقي. والفتاة في الفراش معه هي سايكه».

أفتح زجاجة نبيذ وأملأ كأسينا. يضع اللوحة فوق الموقد غير المشتعل - هو في أغلب الأحيان مجرّد زينة في المنازل المجهّزة بتدفئة مركزيّة. ثمّ يبدأ:

«كان ما كان، كان هناك أميرةٌ حسناء افتُتن بها الجميع، لكنّ أحدًا لم يجرؤ على الزواج منها، يئس والدها الملك من زواجها فاستدعى الإله أبولو. طلب منه أن تُلبس سايكه ثوب الحداد وتُترك

وحيدة عند قمّة جبل. قُبيل السَحَر، سيأتي ثعبان إليها ويتزوّجها. أطاع الملك، وانتظرتِ الأميرة ظهور زوجها طوال الليل، وهي تموت خوفًا وتتجمّد بردًا. أخيرًا، غطّت في نوم. عندما استفاقت، وجدت نفسها وقد تُوّجت ملكةً في قصرٍ بديع. كان زوجها يدخل عليها كلّ ليلة ويمارسان الحبّ، لكنّه وضع شرطًا واحدًا: يُمكن لـ«سايكه» أن تحصل على كلّ ما ترغب فيه، لكن عليها أن تضع ثقتها الكاملة فيه».

أفكّر في مدى فظاعة ذلك، لكنّني لا أجرؤ على مقاطعته.

«عاشت الشابّة سعيدةً زمنًا طويلاً. حصلت على الراحة، والعطف، والفرح، وكانت مغرمة بالرجل الذي كان يدخل عليها كلّ ليلة. لكن، بين الحين والآخر كانت تخشى أنّها تزوّجت ثعبانًا بشعًا. في صباح أحد الأيام، فيما كان زوجها نائمًا، أشعلت مصباحًا ورأت إيروس، رجلاً رائع الجمال ينام إلى جانبها. أيقظه النور، وإذْ رأى إيروس أنّ المرأة التي أحبّها لم تلبّ طلبه الأوحد، اختفى. وإذ استماتت سايكه لاستعادة محبوبها، عزمت على تنفيذ جملة من المهمّات التي كلفتها إياها أفروديت والدة إيروس. غني عن القول أنّ حماة سايكه كانت تحسدها على جمالها حسدًا جمًّا وفعلت كلّ ما يمكنها لتُحبط وفاق الزوجين. في إحدى المهمّات، فتحت سايكه صندوقًا جعلها تغطّ في نوم عميق».

أتلهّف لسماع نهاية القصّة.

«كان إيروس مغرمًا بزوجته وندم على قسوته تجاهها. تمكّن من دخول القصر وإيقاظها برأس سهمه. قال لها: «أوشكتِ أن تموتي بسبب فضولك. بحثتِ عن الأمان في المعرفة ودمّرت علاقتنا». لكن

في الحبّ، لا يُدمَّر شيء إلى الأبد. وإذْ غمرتهما هذه القناعة، ذهبا إلى زوس، أبي الآلهة، وتوسّلاه ألاّ يُحلّ رباطهما يومًا. دافع زوس بشغف عن قضية العاشقين مُستعملاً حججًا وتهديدات متينة إلى أن كسب مناصرة أفروديت. منذ ذلك اليوم، بقيت سايكه (الجانب الواعي، ولكن المنطقي فينا)، وإيروس (الحبّ) معًا إلى الأبد».

أسكبُ كأس نبيذ أخرى. أحني رأسي على كتفه.

«أولئك الذين لا يتقبّلون ذلك، والذين يحاولون دومًا إيجاد تفسير للعلاقات الإنسانيّة السحريّة والغامضة، سيفوّتون الجزء الأفضل من الحياة».

اليوم، أشعر بما شَعَرَت به سايكه على المنحدر، أشعر بالبرد والخوف. لكن إذا تمكّنتُ من تخطّي هذه الليلة والاستسلام للغموض والإيمان بالحياة، فسأستفيق في قصر. الوقت هو كلّ ما يلزمني.

يحلّ أخيرًا اليوم الكبير الذي سيجتمع فيه الثنائيّان في حفل استقبال يُقيمه مقدّم تلفزيوني مهمّ في محطّة محلّية. تحدّثنا عن ذلك أمس في الفراش في الفندق فيما دخّن جاكوب سيجارته المعهودة قبل أن نرتدي ملابسنا ونغادر.

لم أتمكّن من رفض الدعوة لأنّني كنت قد أكّدت حضوري. فعل هو الأمر نفسه، وتغيير رأيه الآن لن يكون في مصلحة مسيرته المهنيّة.

أصلُ مع زوجي إلى المحطّة التلفزيونيّة، ونبلَغ بأنَ الحفل يُقام في الطابق الأخير. يرنّ هاتفي قبل أن نبلغ المصعد، وأُضطرّ إلى ترك خطّ المصطفّين والبقاء في الردهة، لأتحدّث مع مديري، فيما آخرون يصلون، يبتسمون لي ولزوجي، ويومئون برؤوسهم بحشمة. الظاهر أنّني أعرف الجميع.

يقول مديري إنّ مقالتَيّ عن الشامان الكوبي- والتي نُشرت ثانيتهما أمس على الرغم من أنّها كُتبت منذ ما يفوق الشهر- تلقيان نجاحًا باهرًا. عليّ أن أكتب مقالةً أخرى لإتمام السلسلة. أشرح أنَ الرجل لم يعد يودّ التحدّث إليّ. يطلب إليّ أن أجد شخصًا آخر في «المجال» نفسه، لأنّ الآراء التقليديّة هي الأقلّ تشويقًا بالمطلق (علماء النفس، علماء الاجتماع، وسواهم). لا أعرف أحدًا في «المجال» نفسه. أعده بالتفكير في الأمر لأن عليّ أن أنهي المكالمة.

يمرّ جاكوب ومدام كونيش بجانبنا ويُلقيان علينا التحيّة بإيماءة من الرأس. كان مديري يوشك أن يُنهي المكالمة، لكنّني أقرّر أن أستمرّ في الحديث. من المستحيل أن نركب معهما المصعد نفسه! أقترح عليه: «ماذا لو جمعنا بين راعي ماشية وقسٍ بروتستانتي؟ ألن يكون من المشوّق أن نسجّل حديثهما عن كيفيّة تعاملهما مع التوتّر والضجر؟». يقول المدير إنّها فكرة رائعة، لكنّه سيكون من الأروع أن أجد شخصًا في «المجال» نفسه كالشامان. صحيح، سأحاول. انغلقت الأبواب واختفى المصعد. أستطيع أن أنهي المكالمة بلا خوف.

أشرح لمديري أنّني لا أريد أن أكون آخر الواصلين إلى الحفل. أنا متأخّرة عن الموعد دقيقتين. فنحن في سويسرا، حيث الساعات فائقة الدقة دومًا.

نعم، لقد تصرّفتُ بغرابة على مدى الأشهر القليلة الفائتة، لكنّ شيئًا واحدًا لم يتغيّر: مقتي لارتياد الحفلات. لا يسعني أن أفهم ما يدعو الناس إلى الاستمتاع بها.

نعم، يستمتع الناس بها. حتّى لو كانت أمرًا مهنيًا مثل الكوكتيل الرسميّ هذه الليلة - صحيح، كوكتيل وليس حفلة- هم يتأنّقون، يتبرّجون، ويُخبرون أصدقاءهم، من دون أي سأم، بأنّهم سيكونون للأسف مشغولين الثلاثاء بسبب الحفل الذي يُقام بمناسبة مرور عشر سنوات على برنامج Pardonnez-moi الذي يُقدّمه «داريوس روشبان»، المقدّم الوسيم والفطِن واللامع. وسيحضر الجميع، أيًّا يكونوا، وعلى البقيّة الاكتفاء بالصور التي ستُنشر في مجلّة المشاهير الوحيدة المخصّصة لمواطني سويسرا الناطقين بالفرنسية.

يوفر لكَ ارتياد حفلات مماثِلة أن تكون من أصحاب الجاه. تُغطّي صحيفتنا أحيانًا هذا النوع من الأحداث، ونتلقّى في اليوم التالي اتّصالات هاتفيّة من معاوني أشخاصٍ مهمّين، يسألون إن كانت الصور التي يظهرون فيها ستُنشر ويقولون إنّهم، إن حصل ذلك، فسيكونون شاكرين للغاية. ومن المحاسن الأخرى لتلقّي دعوة هو أن ترى حضورك يحصد الأضواء التي يستحقّها. ولا شيء يُضاهي برهنة ذلك أكثر من الظهور في الصحيفة وأنت ترتدي لباسًا صُمّم خصّيصًا للمناسبة (مع أنّ من يرتديه لا يعترف بذلك أبدًا) وترتسم على وجهك الابتسامة نفسها التي ابتسمتها في الحفلات الساهرة وحفلات الاستقبال الأخرى جميعها. من الجيّد أنّني لستُ محرّرة العمود الاجتماعي، فلو كنت كذلك في وضعي الحالي، وحش ڤيكتور فرانكنشتاين، لكنت طُردت.

يفتح باب المصعد. ثمّة مصوّران أو ثلاثة في الردهة. نتقدّم إلى القاعة الرئيسة، التي تُطلّ على المدينة من كلّ جوانبها. يبدو أنّ الغيمة السرمديّة قرّرت التعاون مع داريوس ورفعت حجابها الرمادي، فبإمكاننا رؤية أضواء البحر في الأسفل.

أقول لزوجي إنّني لا أريد أن أُطيل البقاء. وأبدأ بالدردشة للتخفيف من التوتّر.

يُقاطعني: «سنغادر متى شئتِ».

في اللحظة التالية، ننشغل بتحيّة عددٍ لامتناهٍ من الناس الذين يعاملونني كأنّني صديقة مقرّبة. أُبادلهم التحيّة مع أنّني أجهل أسماءهم. إذا طالت المحادثة، ألجأ إلى حيلة مضمونة: أعرّف بزوجي ولا أقول شيئًا. يُعرّف بنفسه ويسأل عن اسم الشخص. أستمع إلى

الإجابة وأكرّر، بصوتٍ عالٍ وواضح: «عزيزي، ألا تذكر فلانًا وفلانًا؟»..

يا للمَكر!

أنْهي إلقاء التحيّات، ونذهب للوقوف في إحدى الزوايا حيث أتذمّر: لمَ يطرح الناس عادة السؤال إن كنّا نذكرهم؟ فلا شيء أكثر إحراجًا من ذلك. جميعهم يعتبرون أنفسهم مهمّين إلى درجة أن يكونوا محفورين في ذاكرتي، على الرغم من أنّني ألتقي أشخاصًا جددًا كلّ يوم بحكم وظيفتي.

«كوني أكثر تسامحًا. الناس يستمتعون».

لا يعلم زوجي ماذا يقول. الناس يدّعون أنّهم يستمتعون. ما يبحثون عنه حقًا هو أن يحضروا هذه المناسبات. يبحثون عن الانتباه، وبين الحين والآخر ينتهزون فرصة لقاء أحدهم لعقد صفقة. إنّ مصير الأشخاص، الذين يعتقدون أنّهم جذابون وذوو نفوذ فيما يسيرون على السجّادة الحمراء، بين يدي شاب من قسم الأخبار يتقاضى أجرًا متدنيًا. يتلقّى المصفّح الصوَر عبر البريد الإلكتروني ويقرّر مَن يظهر أو لا يظهر في عالمنا الصغير القائم على التقاليد والأعراف. هو من يضع صور الأشخاص المثيرين للاهتمام في الصحيفة، تاركًا مساحة صغيرة للصورة الشهيرة التي تُظهر إطلالة على الحفلة (أو الكوكتيل، أو العشاء، أو حفل الاستقبال). فيها، وبقليل من الحظّ، قد تتمكّن من التعرّف إلى هذا الشخص أو ذاك بين الناس المجهولين الذين يعتبرون أنفسهم مهمّين جدًا.

يعتلي داريوس المنصّة ويبدأ بالتحدّث عن تجربته مع كلّ الأشخاص المهمّين الذين أجرى مقابلات معهم في برنامجه في خلال

سنواته العشر. أتمكّن من الاسترخاء قليلاً والتوجّه إلى إحدى النوافذ مع زوجي. سبق أن رصد راداري الداخلي جاكوب ومدام كونيش. أريد البقاء على مسافة، وأظن أنّ جاكوب يريد ذلك أيضًا.

«هل تشْكين من شيء؟».

كنت أدري. يقصد، هل أنتِ الدكتور دجيكل أو السيد هايد اليوم؟ ڤيكتور فرانكنشتاين أو وحشه؟

لا يا حبيبي. أنا أتجنّب ببساطة الرجل الذي ضاجعته أمس. أشتبه بأنّ كلّ من في القاعة على علم بذلك، وأنّ كلمة «عاشق» مكتوبة على جبين كل منا.

أبتسم وأقول أمرًا سَئِمَ من سماعه، إن شخصًا بمثل سنّي لم يعد يناسبه حضور الحفلات. أودّ لو أكون في البيت الآن، أعتني بولدينا بدلاً من تركهما مع جليسة أطفال.

لا أحتسي الخمرة بانتظام. بدأ هؤلاء الناس الذين يلقون عليّ التحية ويحادثونني يُشوّشون ذهني. عليّ أن أدّعي الاهتمام بما يقولونه وأردّ بسؤال قبل أن أتمكّن أخيرًا من وضع المقبّلات في فمي والانتهاء من مضغها من دون أن أبدو فظّة.

تُسدَلُ شاشة ويبدأ عرض فيلم فيديو، فيه أهم الضيوف الذين حلّوا على البرنامج. عملتُ مع بعضهم، لكنّهم بمعظمهم أجانب يزورون جنيف. كما نعلم جميعًا، ثمّة شخص مهمّ دومًا في المدينة، والظهور في البرنامج ضروري.

«فلنغادر إذًا. لقد رآكِ. أدّينا واجبنا الاجتماعي. فلنستأجر فيلمًا ونستمتع بباقي الليلة معًا».

لا. سنبقى قليلاً بعد، لأنّ جاكوب ومدام كونيش هنا. قد

نثير الشكّ في مغادرة الاحتفال قبل انتهائه. يبدأ داريوس بدعوة بعض ضيوف برنامجه إلى المنصّة. يقدّمون تصريحًا عن تجربتهم. أكاد أموت ضجرًا. يبدأ الرجال الذين لا ترافقهم سيّدات بالنظر من حولهم، يبحثون خفيةً عن نساء عازبات. وبدورهنّ، تنظر إحداهنّ إلى الأخرى: ماذا يرتدين، بم يتبرّجن، هل هنّ مع أزواجهنّ أو مع عشّاقهن.

أنظر إلى المدينة، تائهة في أفكار غائبة، أنتظر ببساطة مرور الوقت لكي نرحل بهدوء من دون إثارة الشكوك.

«إنه يذكركِ أنتِ».

أنا؟

«حبيبتي، هو يذكر اسمكِ».

دعاني داريوس للتوّ إلى المنصّة ولم أسمعه. نعم، ظهرتُ في برنامجه إلى جانب الرئيس السابق لسويسرا للتحدّث عن حقوق الإنسان. لكنّني لستُ على هذا القدر من الأهمّية. لم أتصوّر ذلك يومًا، لم يتمّ تدبير الأمر، ولم أُعدّ أيّ شيء لأقوله.

غير أنّ داريوس يومىء لي بيده. ينظر الناس جميعًا نحوي، مبتسمين. أسير نحوه. استعدتُ رباطة جأشي وأنا سعيدة في سرّي، لأنّ ماريان لم تُستدعَ، ولن تُستدعى. لم يُستدعَ جاكوب أيضًا، لأنّ فكرة السهرة هي أن تكون ممتعة، لا مليئة بالخطابات السياسيّة.

أصعد إلى المنصّة المنصوبة لهذه المناسبة - سلّم يربط بين مساحتي القاعة في أعلى برج المحطّة- أقبّل داريوس، وأبدأ بإخبار قصّة غير مشوّقة عن ظهوري في البرنامج. يواصل الرجال صيدهم،

وتواصل النسوة رشق النظرات. أُسمّرُ عينيّ على زوجي؛ فعلى كلّ من يتكلّم أمام جمهور أن يختار شخصًا يجعل منه سندًا له.

في خضمّ خطابي المرتجل، أرى أمرًا لا ينبغي أن يحدث مطلقًا: يقف جاكوب ومدام كونيش إلى جانب زوجي. لا بُدّ من أنّ ذلك حدث في أقلّ من الدقيقتين اللتين استغرقهما وصولي إلى المنصّة وبدء الخطاب الذي لم يثر كثيرًا من الاهتمام فبدأ الندل يتجولون في المكان وأشاح معظم الضيوف أنظارهم عن المنصة بحثًا عن شيء يجذب انتباههم.

أقول شكرًا بأسرع ما يمكنني. يصفّق الضيوف. يُقبّلني داريوس. أحاول الوصول إلى زوجي وآل كونيش، لكنّني أقع في أيدي ناس يمدحونني على أمور لم أقلها ويدّعون أنّني رائعة. هم فرحون فرحًا عارمًا بسلسلة المقالات عن الشامانيّة، يقترحون عليّ موضوعات، ويعطونني بطاقات العمل التعريفيّة، ويعرضون أنفسهم بتكتّم كـ «مصادر» لشيء قد يكون «مثيرًا جدًا للاهتمام». يستغرق كلّ هذا نحو عشر دقائق. عندما أدنو أخيرًا من وجهتي، أرى الثلاثة يبتسمون. يُهنّئونني، يقولون إنّني متحدّثة رائعة، ويزوّدونني بالأخبار السيّئة:

يقول زوجي: «شرحتُ لهما أنّك تعبة وأنّ لدينا مع جليسة الأطفال، غير أنّ مدام كونيش تصرّ على أن نتناول العشاء معًا».

تقول ماريان: «نعم أصرّ. أفترض أنّ أحدًا من بيننا لم يتناول العشاء بعد».

يرسم جاكوب ابتسامة مصطنعة على وجهه ويوافق، كحَمَلٍ يُساق إلى النحر.

للحظة، يمرّ في فكري ألفا عذر. لكن لمَ؟ لديَ كمّية لا بأس بها

من الكوكايين جاهزة للاستعمال في أي لحظة، وليس هناك أفضل من هذه «الفرصة» لكي أرى إن كنتُ سأنفّذ خطّتي.

يبلغ فضولي حدّ المرض لأعرف كيف سيجري هذا العشاء.

سيكون شرفًا لنا، مدام كونيش.

تختار ماريان المطعم في «أوتيل ليزارمور»، وهذا ينمّ عن نوعٍ من قلّة الابتكار، لأنّه المطعم الذي يصطحب الجميع الأجانب إليه. الجبنة المذوّبة ممتازة فيه، ويجتهد طاقم العمل في النطق بكلّ لغة ممكنة، وهو يقع في قلب المدينة القديمة...لكن شخصًا يعيش في جنيف، لا يرى فيه تغييرًا قطعًا.

نصل بعد وصول آل كونيش. جاكوب في الخارج، يتحمّل البرد باسم إدمانه النيكوتين. سبق لماريان أن دخلت. أقترحُ على زوجي الدخول أيضًا والبقاء برفقتها فيما أنتظر أن يُنهي السيد كونيش التدخين. يقول إنَ العكس أفضل، لكنّني أصرّ. لن يكون من اللائق ترك امرأتين وحدهما إلى الطاولة، ولو دقائق قليلة.

يقول جاكوب حين يذهب زوجي: «باغتتني الدعوة».

أحاول التصرّف كأنّ كلّ شيء على ما يرام. أتشعر بالذنب؟ أأنتَ قلِق من احتمال انحلال زواجك التعيس (وأودّ أن أضيف: مع تلك الساقطة، الجامدة جمود الحجر)؟

«ليس الأمر كذلك. إنّه...».

تُقاطعنا الساقطة. بابتسامة شيطانيّة عريضة، تُسلّم عليّ (مجدّدًا!) طابعةً على وجنتيّ القبل الثلاث التقليديّة وتأمر زوجها بإطفاء سيجارته والدخول. أقرأ ما بين السطور: أنا أشتبه بأمركما

وأظن أنكما تخططان بالتأكيد لشيء ما، لكن اسمعا، أنا ذكيّة، أذكى ممّا تتصوّران.

نطلب المعتاد: الجبنة المذوّبة والراكليت. يقول زوجي إنّه سئم تناول الجبنة ويختار شيئًا مختلفًا: طبق نقانق موجود على قائمة الزوّار. نطلب النبيذ أيضًا، غير أنّ جاكوب لا يشتمّه، أو يدوّره في كأسه، أو يتذوّقه، أو يومىء إيجابًا برأسه- كانت تلك طريقة غبيّة للتأثير بي في اليوم الأوّل. ونحن ننتظر أن يجهز الطعام ونتحدّث حديثًا عاديًّا، نُنهي الزجاجة الأولى، ولا تلبث أن تأتي الثانية. أطلب إلى زوجي ألاّ يشرب المزيد وإلاّ سنضطرّ إلى ترك السيّارة مرّة أخرى، ونحن الآن أبعد عن المنزل من المرّة السابقة.

يصل الطعام. نفتح زجاجة نبيذ ثالثة. يُواصل الحديث العادي، عن نمط حياة جاكوب الجديد باعتباره عضوًا في المجلس الاتّحادي، تهانئ على مقالتيَ حول التوتّر (مقاربة غير عاديّة نوعًا ما)، وإن كان صحيحًا أنّ أسعار العقارات ستنخفض لأن السريّة المصرفيّة تزول، وإن كان آلاف المصرفيين سيزولون معها أيضًا. هم ينتقلون إلى سينغافورة أو دبي، حيث نقضي موسم الأعياد.

أظلّ أنتظر أن يدخل الثور إلى الحلبة. لكنّه لا يفعل، فأُلقي بسلاحي. أحتسي من الشراب أكثر قليلاً ممّا يجدر بي وأشعر بالاسترخاء والبهجة. ثمّ، ينفتح الباب على مصراعيه.

تقول ماريان كونيش: «كنتُ أتكلّم ذاك اليوم مع بعض الأصدقاء عن شعور الغيرة التافه. ما رأيكم به؟».

ما رأيكم بموضوع لا يناقشه أحدٌ عند العشاء؟ تُحسن الساقطة اختيار كلماتها. لا بُدّ من أنّها صرفت اليوم بطوله

سمّت الغيرة «شعورًا تافهًا»، وهي عازمة على تركي مكشوفة هشّة.

يقول زوجي: «نشأتُ وأنا أشهد عروض غيرة رهيبة في المنزل».

ماذا؟ هو يتحدّث عن حياته الخاصّة؟ وإلى غريبة؟

«لذا، قطعتُ وعدًا على نفسي بألاّ أدع هذا يحدث لي إذا ما تزوّجت. كان الأمر شاقًّا في البداية، لأنّ غريزتنا تتحكّم بكلّ شيء، حتّى بما لا يُمكن التحكّم به، مثل الحبّ والوفاء. لكنّني فعلت. وزوجتي، التي تلتقي آخرين كلّ يوم وأحيانًا ترجع إلى المنزل في وقتٍ متأخّر خلافًا للعادة، لم تسمع يومًا انتقادًا أو تلميحًا منّي».

لم أسمع هذا الشرح يومًا. لم أعرف أنّه نشأ والغيرة تحيط به. تتدبّر الساقطة أمرها في جعل الكلّ يُطيعونها: فلنتعشّ، فلنطفىء السيجارة، فلنتحدّث في الموضوع الذي انتقيته.

ثمّة سببان لما قاله زوجي للتو. الأوّل أنّ دعوتها مريبة في نظره وهو يحاول حمايتي. والثاني: هو يُعرِبُ لي، أمام الجميع، عن مدى أهمّيتي عنده. أمدُّ يدي وألامس يده. لم أتصوّر هذا يومًا. خلتُ ببساطة أنّه لم يكن مهتمًّا بما أفعله.

«وماذا عنك يا ليندا؟ ألا تغارين على زوجك؟».

أنا؟

بالطبع لا. أنا أثق به كلّ الثقة. أعتقد أنّ الغيرة هي للأشخاص المعتلّين، غير المطمئنّين، المفتقرين إلى تقدير الذات، أشخاص يشعرون بالدونيّة ويعتقدون أنّ أي شخص يهدّد علاقتهم. وأنتِ؟

تقع ماريان في الحفرة التي حفَرَتْها.

«كما قلت، أعتقدُ أنّه شعور تافه».

نعم، سبق أن قلتِ هذا. لكن إن اكتشفتِ أنّ زوجك يخونك، ماذا تفعلين؟

يشحب لون جاكوب. ويلجم نفسه عن تجرّع كلّ ما في كأسه.

«أعتقدُ أنّ زوجي يلتقي كلّ يوم أشخاصاً غير مطمئنّين لا بُدّ من أنّهم يتململون ضجرًا في زواجهم وقدرهم أن يحيوا حياةً عاديّة متواترة. أتصوّر أنّ في مجال عملك أيضًا بعض الأشخاص من نوع الذين ينتقلون مباشرة من كونهم صحفيين من الدرجة الثانية إلى التقاعد...».

«كثيرون»، أردّ بنبرة تخلو من أيّ انفعال. أتناول مزيدًا من الجبنة المذوّبة. تُحملق في عينيّ مباشرةً. أعرف أنّك تتكلّمين عنّي، لكنّني لا أريد أن يشكّ زوجي في شيء. لا أبالي ولو قليلاً بها وبجاكوب، الذي لا بُدّ أنّه اعترف لها بكلّ شيء، عاجزًا عن تحمّل الضغط.

أُفاجأ ببرودة أعصابي. لعلّه النبيذ، أو الوحش، يستمتع بكلّ هذا. لعلّها اللذّة الغامرة في العجز عن مواجهة امرأة تخال أنّها عليمة بكلّ شيء. أقول، وأنا أغمّس قطعة الخبز في الجبنة المذوّبة: «تابعي».

«كما تعلمون جميعًا، هؤلاء النسوة المفتقرات إلى الحبّ لا يُشكّلن تهديدًا لي. بخلافكِ، لا أضع كلّ ثقتي في جاكوب. أعرفُ أنّه خانني مرّات قليلة. الجسد ضعيف...»

يضحك جاكوب بعصبيّة ويتناول رشفة نبيذ أخرى. الزجاجة فارغة؛ تومىء ماريان إلى النادل كي يأتي بأخرى.

«...لكنّني أحاول أنا أراه جزءًا من علاقة طبيعيّة. لو لم يكن زوجي مرغوبًا وملاحَقًا من أولئك الفاسقات، لكان مملًّا كليًّا. بدلاً من الغيرة، أتعرفين بـمَ أشعر؟ بالتهيّج. غالبًا ما أخلع ملابسي، أدنو منه عارية، أُباعد بين ساقيّ، وأطلب إليه أن يضاجعني تمامًا كما ضاجعهنّ. أحيانًا، أطلب إليه أن يخبرني كيف كُنّ، ويجعلني هذا أنتشي مرّات كثيرة».

يقول جاكوب، ما لا يُقنِع: «هذا كلّه في استيهامات ماريان. هي تختلق هذه الأمور. سألتني ذاك اليوم إذا كنت أرغب في الذهاب إلى نادٍ لتبادل الشريك الجنسي في لوزان».

هو لا يمزح طبعًا، لكن يضحك الجميع، حتّى هي.

أكتشف ويا للهول أنّ جاكوب يستمتع بنعته «الذكر الخائن». يبدو زوجي مهتمًّا جدًّا بإجابة ماريان ويطلب إليها أن تستمرّ قليلاً في الحديث عن الهيجان الذي ينتابها لمعرفتها في شأن العلاقات الغراميّة خارج إطار الزواج. يطلب عنوان نادي تبادل الشريك الجنسي ويرمقني بنظره، وفي عينيه بريق. يقول إنّ الأوان قد حان لنجرّب شيئًا مختلفًا. لا أدري إن كان يحاول تحمّل الجو الذي لم يعد محتملاً على المائدة، أو إن كان حقًّا مهتمًّا بالتجربة. تقول ماريان إنّها لا تعرف العنوان، لكن إن هو أعطاها رقم هاتفه، فسترسله إليه في رسالة نصّية.

حان الوقت للتحرّك. أقول إن الذين يغارون يحاولون، عمومًا أن يظهروا في العلن بهيئة معاكسة تمامًا لما هم عليه. يروقهم أن يُلقوا تلميحات ويروا إن كان بإمكانهم الحصول على بعض المعلومات حول سلوك شريكهم، لكنّهم سذّج ليفكّروا في أنّهم سينجحون. أنا

على سبيل المثال قد أكون على علاقة غراميّة بزوجك ولن تعرفي الأمر أبدًا، لأنّني لستُ حمقاء إلى درجة الوقوع في ذاك الفخ.

تتغيّر نبرة صوتي قليلاً. ينظر زوجي إليَّ، متفاجئًا بإجابتي.

«حبيبتي، ألا تعتقدين أنّ الأمر يخرج قليلاً عن حَدّه؟».

لا، لا أعتقد ذلك. لستُ مَن بدأ الحديث ولستُ أدري إلامَ ترمي السيدة كونيش. لكن منذ أن وصلنا إلى هنا، لم تكفّ عن التلميح إلى أمور، وقد ضقتُ ذرعًا بذلك. على فكرة، ألاحظتَ كيف كانت ترشقني بنظرها طوال الوقت الذي كنّا نتحدّث فيه عن أمر لا يهمّ أيّ شخص على الطاولة باستثنائها؟

تنظر ماريان إليَّ، مصعوقة. أعتقد أنّها لم تتوقّع ردّ فعلٍ لأنّها تألف التحكّم بكلّ شيء.

أقول إنّني التقيت كثيرًا من الناس الذين سيّرهم هوس الغيرة، لأن واحدهم يحسب أنّ شريكه يرتكب الزنى، بل لأنّهم يودّون أن يكونوا محور الاهتمام كلّ الوقت، فيما هم ليسوا كذلك. يستدعي جاكوب النادل ويطلب الفاتورة. مذهل. في النهاية، هما من دَعوانا، وعليهما تكبّد النفقات.

أنظر إلى ساعتي وأدّعي بأنّني متفاجئة جدًا؛ لقد تخطّى الوقت موعد عودتنا الذي أعلمنا جليسة الأطفال به! أنهض، أشكرهما على العشاء، وأتوجّه إلى حجرة المعاطف لجلب معطفي. سبق أن انتقلنا بالحديث إلى الأولاد، ومسؤولياتنا تجاههم.

أسمع ماريان تقول لزوجي: «أتعتقد أنّها ظنّت حقًا أنّني كنتُ أقصدها؟».

«بالطبع لا. لا سبب يدعوها إلى ذلك».

نخرج إلى الصقيع، من دون قول الكثير. أنا غاضبة، قلقة، وأقول طوعًا وبلا استئذان نعم إنها كانت تقصدني، وإن تلك المرأة عصابيّة إلى درجة أنّها يوم الانتخابات لمّحت تلميحات عدّة أيضًا. تريد أن تتباهى على الدوام - لا بُدّ من أنّها تموت غيرة على الأبله الذي تتحكّم بـ«سلوكه الحسن» بقبضة من حديد لكي يتسنّى له أن يحقق مستقبلاً سياسيًا ناجحًا، مع أنّها هي في الحقيقة من يودّ أن يكون مكانه.

يقول زوجي إنّني أفرطتُ في الشرب وعليّ أن أهدأ.

نسير أمام كاتدرائيّة. عاد السديم يغطّي المدينة من جديد ويجعل كلّ شيء يبدو وكأنّنا في فيلم رعب. أتخيّل ماريان تتربّص بي عند زاوية ما وبيدها خنجر، كما الوضع حين كانت جنيف مدينة من القرون الوسطى وفي معركة مستمرّة مع الفرنسيين.

لا البرد ولا المشي يُهدّئانني. نصل إلى السيّارة، وعندما نصل إلى المنزل، أتوجّه توًا إلى غرفة النوم وأبتلع حبّتين من الفاليوم فيما يدفع زوجي أجر جليسة الأطفال ويضع الولدين في سريريهما.

أنام عشر ساعات متواصلة. في اليوم التالي، عندما أنهض لأمارس عاداتي الصباحية، أفكّر في أن زوجي أكثر برودة مما كان عليه. مع هذا، أزعجه شيء ما أمس. لا أدري ماذا عليّ أن أفعل. لم أتناول يومًا حبّتي مهدّىء دفعة واحدة، وأنا أعاني خمولاً لا يُشبه، لا من قريب ولا من بعيد، ذاك الذي تسبّبه الوحدة والتعاسة.

أغادر البيت للذهاب إلى العمل وأتحقّق من هاتفي تلقائيًا. ثمّة رسالة نصّية من جاكوب. أنا متردّدة في أن أفتحها، لكنّ الفضول أعظم من الحقد.

أُرسِلت هذا الصباح، في وقت مبكر جدًا.

«لقد أفسدتِ الأمر. لـم تكن تملك فكرة عن حدوث شيء بيننا، لكنّها متيقّنة الآن. وقعتِ في فخّ لـم تنصبه هي».

عليّ أن أمرّ بالسوبرماركت اللعين لشراء البقالة، وأنا أشعر بأنّني محبطة ومكروهة. ماريان على حقّ؛ لستُ سوى سلوى جنسيّة لذاك الكلب الذي ينام في سريرها. أقود بتهوّر لأنّني أعجز عن حبس بكائي، ودموعي تـحولُ دون رؤيتي السيّارات الأخرى بوضوح. يتناهى إلى سمعي صوت الزمامير والتذمّرات. أحاول أن أُبطىء؛ فأسمع مزيدًا من الزمامير والتذمّرات.

كان من البلاهة أن أدع الشك يُخالج ماريان، وكان من البلاهة أكثر أن أجازف بكلّ ما لديّ: زوجي، وعائلتي، وظيفتي.

أدرك، وأنا أقود سيارتي تحت التأثير المتأخر للمهدئات، وأعصابي مرهقة، أنّني أجازف بحياتي أيضًا. أركن سيّارتي في شارع ثانوي وأبكي. يعلو انتحابي حتّى أنّ أحدهم يقترب منّي ويسألني إنْ كنت أحتاج إلى المساعدة. أقول لا، فيبتعد. لكنّني في الحقيقة أحتاج إلى المساعدة، أحتاج كثيرًا. أغوص بالعمق إلى ذاتي الداخليَة، إلى بحرها الموحِل، وأعجز عن السباحة.

الحقد يُعمي بصري. أتصوّر أن جاكوب تخطّى ما حدث في عشاء الأمس، ولن يرغب في رؤيتي من جديد أبدًا. الذنب ذنبي لأني رغبت في أن أتجاوز حدودي، ظانة دومًا أنّ سلوكي مريب، أنّ الجميع يعلم ما أفعله. لعلّها فكرة جيّدة أن أتّصل وأعتذر، لكنّني

أعرف أنّه لن يُجيب. لعل من الأفضل أن أتّصل بزوجي وأرى إن كان بخير؟ أعرفه من صوته. أعرف متى يكون غاضبًا ومشدودًا، مع أنّه يُجيد ضبط النفس. لكنّني لا أريد أن أعرف. أنا خائفة حقًا. معدتي منكمشة، ويداي مشدودتان إلى عجلة القيادة. أدع نفسي تنتحب، تصرخ، تثور في المكان الآمن الوحيد على وجه الأرض: في سيّارتي. الشخص الذي اقترب منّي، يختلس النظر من بعيد، يخشى أن أُقدِم على فعلة خرقاء. لا، لن أفعل شيئًا. أريد أن أبكي فقط. هل هذا كثير؟

أشعر كأنّني استجلبتُ هذا الإذلال على نفسي. أريد أن أرجع بالزمن، لكن ذلك مستحيل. عليّ أن أضع خطّة لأعوّض عن الهزيمة، لكنّني أعجز عن التفكير تفكيرًا سويًا. كلّ ما أقدر عليه هو البكاء، والشعور بالعار والحقد.

كيف أكون على هذا القدر من السذاجة؟ أن أخال ماريان تنظر إليّ وتقول ما أعرفه مسبقًا؟ هذا لأنّني أشعر بالذنب، مثلما يشعر المجرم. أردتُ أن أذلّها، أن أدمّرها أمام زوجها لئلا تراني مجرّد أداة لهو. أعرف أنّني لا أحبّه، لكنّه كان يُعيد إليّ تدريجًا بعضًا من الفرح الذي كنت فقدته، مُبعدًا إياي عن حفرة الوحدة التي كنت أغرق فيها حتّى رأسي. والآن، أُدركُ أنّ تلك الأيّام ولّت إلى الأبد. عليّ أن أرجع إلى الواقع، إلى السوبرماركت، إلى الأيّام المتشابهة جميعها، وإلى أمان منزلي، وهو شيء كان ذات يوم يومًا مهمًّا للغاية في نظري، لكنّه أخذ يبدو سجنًا. عليّ أن أستجمع نفسي. وربمًا أعترف لزوجي بكلّ ما جرى.

أعرف أنّه سيتفهّم. هو رجل طيّب وذكي، العائلة أولويّة عنده

على الدوام. لكن ماذا لو لم يتفهّم؟ ماذا لو قرّر أنّه اكتفى، أنّنا بلغنا حدّنا وقد أعياه العيش مع امرأة بدأت تتذمّر من الاكتئاب والآن تنتحب على ترك عشيقها لها؟

يتلاشى انتحابي وأبدأ بالتفكير. العمل ينتظرني، ولا يسعني أن أقضي اليوم بطوله في هذا الشارع المليء ببيوت أزواج سعداء يضعون زينة الميلاد على أبوابهم، بناس يذهبون ويأتون من دون أن يلاحظوا وجودي. لا يسعني أن أرى عالمي ينهار وأن أقف مكتوفة الأيدي إزاءه.

أحتاج إلى التفكير مليًا. عليّ أن أضع لائحة بالأولويّات. هل سأتمكّن في الأيّام، أو الشهور، أو السنوات المقبلة، من الادّعاء بأنّني زوجة متفانية بدلاً من حيوان جريح؟ لم يكن الانضباط يومًا مكمن قوّتي، لكن لا يسعني التصرّف وكأنّني مضطربة.

أجفّف دموعي وأنظر أمامي مباشرةً. هل حان الوقت لتشغيل السيّارة؟ ليس بعد. أنتظر قليلاً. إن كان ثمّة سبب واحد، كي أكون مسرورة بما جرى، فسيكون أنّني سئمتُ من عيش كذبة. كم كان الأمر ليطول قبل أن يشتبه زوجي بشيء؟ أيمكن للرجال أن يحزروا متى اصطنعت زوجاتهم النشوة؟ ممكن، لكن لا سبيل لي لكي أعرف.

أترجّل من السيّارة وأدفع مقابل ركنها وقتًا إضافيًا غير ضروري. هكذا، يمكنني أن أسير على غير هدى. أتّصل بمكان العمل وأقدّم عذرًا واهيًا: أحد الولدين أُصيب بالإسهال وعليّ اصطحابه إلى الطبيب. يُصدّقني مديري؛ ففي النهاية، السويسريون لا يكذبون.

لكنّني أكذب. كنت أكذب كلّ يوم. فقدتُ احترامي لنفسي ولم أعد أعرف وجهتي. يحيا السويسريون في العالم الحقيقي. وأحيا

أنا في عالم وهمي. يعرف السويسريون كيف يحلّون مشكلاتهم. ولم أقدر على حلّ مشكلتي، فأوجدتُ وضعًا أملك فيه الأُسرة المثلى والعشيق المثالي.

أجول في المدينة التي أحبها، أنظر إلى المحالّ والأعمال التي تبدو وكأنّها تجمّدت في الخمسينيّات، باستثناء الأماكن السياحيّة ولا تنوي أبدًا مواكبة الحداثة. الطقس بارد، لكن ما من ريح فيه، الحمدلله، ممّا يجعل الحرارة محتملة. أحاول أن أتلهّى وأهدأ، أدخل مكتبة، وملحمة، ومتجر ألبسة. كلّ مرّة أعاود فيها الخروج إلى الشارع، أشعر كأنّ درجات الحرارة المنخفضة تساعدني على إخماد النار المشتعلة التي تحوّلتُ إليها.

أيمكنكَ تدريب نفسك على حبّ الرجل المناسب؟ بالطبع يمكنك. المشكلة هي في نسيان الرجل الخطأ، عابر السبيل الذي دخل بلا استئذان من باب تُركَ مفتوحًا.

ماذا أردتُ من جاكوب بالضبط؟ عرفتُ منذ البداية أنّ علاقتنا محكومة بالانتهاء، مع أنّني لم أتصوّر أن تنتهي بهذه الطريقة المُذلّة. ربّما أردتُ فقط ما حصلتُ عليه: المغامرة والفرح. أو ربّما أردتُ أكثر: أن أعيش معه، أن أساعده على نماء مسيرته المهنية، وأن أكون له السند الذي يبدو أن زوجته لم تعد تكونه، والعطف الذي تذمّر من الافتقار إليه في أحد لقاءاتنا. أردتُ أن أنتزعه من منزله، كما تنتزع زهرة من حديقة شخص آخر، على الرغم من معرفتك أنّ الزهر لا يعيش في ظلّ معاملة مماثلة.

أنا مصابة بموجة من الغيرة، لكن هذه المرّة لا دموع فيها، بل الغضب فقط. أتوقّف عن المشي وأجلس على مقعد عند نقطة وقوف

حافلات اخترتها عشوائيًا. أراقب الناس يأتون ويذهبون، جميعهم منشغلون للغاية بعالمهم، الصغير بما يكفي ليُلائم إطار شاشة الهواتف الذكيّة التي يعجزون عن رفع بصرهم وسمعهم عنها.

تأتي حافلات وتذهب. يترجّل ناس ويسرعون الخطى، ربّما بسبب البرد. يصعد آخرون ببطء، غير راغبين في الذهاب إلى المنزل أو العمل أو المدرسة. لكن أحدًا لا يُبدي الغضب أو الحماسة؛ هم ليسوا سعداء ولا حزانى، مجرّد أرواح مسكينة تُنفّذ آليًا المهمّة التي رسمها الكون لهم يومَ وُلدوا.

بعد وقتٍ قصير، أتمكّنُ من الاسترخاءِ قليلاً. حزرتُ بضع قطع من الأُحجية في داخلي. إحداها هو السبب وراء مجيء هذا الحقد وذهابه، كالحافلات في نقطة الوقوف هذه. قد أكون خسرتُ الشيء الأهمّ في حياتي: عائلتي. مُنيتُ بالهزيمة في المعركة من أجل السعادة، وليس هذا مذلًّا لي فحسب، بل هو يُغشي الدرب أمامي.

وزوجي؟ أحتاج إلى محادثته بصراحةِ الليلة والاعتراف بكلّ شيء. أشعر كأنّ هذه البئر قد أعتقتني، حتّى وإن كنتُ سأتحمّل العواقب. سئمتُ الكذب، الكذب عليه، وعلى مديري، وعلى نفسي.

لا أريد التفكير في هذا الآن. تنهش الغيرة أفكاري أكثر من أيّ أمر آخر. أعجز عن مغادرة نقطة وقوف الحافلات هذه كما لو أنّ سلاسل توثق جسمي. هي ثقيلة ومن الشاقّ جرّها.

يروقها أن يخبرها عن خياناته فيما تطارحه الفراش، وأن يفعل لها الأمور نفسها التي فعلها لي؟ كان يجدر بي أن أدرك أنّه على علاقة بأخريات عندما تناول ذاك الواقي من الطاولة بجانب السرير. كان يجدر بي أن أعرف أنّني رقم إضافيّ فقط، من الطريقة التي ولجني

فيها. غادرتُ ذاك الفندق اللعين مرّات عدة وأنا أشعر بذلك، قائلةً لنفسي إنّني لن أراه مجدّدًا، على الرغم من وعيي بأنّ تلك أكذوبة أخرى من أكاذيبي وبأنّني سأكون مستعدّة للقائه دومًا إن اتّصل بي، حيثما يريد وحين يريد.

نعم، عرفتُ ذلك كلّه. ومع هذا، حاولت الاقتناع بأنّني كنتُ أسعى إلى الجنس فقط وبعض المغامرة. لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا. اليوم أدركُ أنّني أُغرمت به، على الرغم من إنكاري ذلك في كلّ سهدي وأيامي الخاوية، أنّني متيّمة بحبّه.

لا أدري ماذا عليّ أن أفعل. أعتقد - بل في الواقع أثق - أنّ لكلّ متزوّج محبوبًا سرّيًا دائمًا. هذا حرام، والارتباط بعلاقة غراميّة محرّمة هو ما يجعل الحياة مشوّقة. لكن قلّة من الناس تمضي قُدُمًا في الأمر، واحد من سبعة فقط يقوم بذلك، بحسب مقالة قرأتها في الصحيفة. وأعتقد أنّ واحدًا من مئة يُصاب بما يكفي من الاضطراب لكي يدع الاستيهام يستحوذ عليه، كما فعلت. بخصوص الأكثريّة، الأمر مجرّد علاقة مؤقّتة، شيءٌ تعلم من البداية أنّه لن يدوم طويلاً. تشويقٌ بسيط لجعل الجنس أكثر إباحيّة، وسماع كلمة «أحبّك» لحظة بلوغ النشوة. لا أكثر.

وماذا لو كان لزوجي عشيقة؟ كيف كنت سأتصرّف؟ كنتُ أقدمتُ على ما لا يُمكن لعقلٍ تصوُّره. كنتُ قلتُ إنّ الحياة مجحفة، إنّني عديمة القيمة، وإنّني أتقدّم في السنّ. لكنتُ صرختُ أشدّ صراخ، كنتُ بكيت بلا انقطاع من الغيرة، التي يمكن أن تكون حسدًا في الواقع، هو يمكنه وأنا لا يمكنني. كنت رحلت، صفقت الباب خلفي، مصطحبةً الولدين إلى منزل أهلي. بعد شهرين أو

ثلاثة، سأكون قد ندمتُ على فعلتي وحاولتُ اختلاق عذرٍ ما للعودة، متصوّرة أنّه يريد الأمر نفسه. بعد أربعة أشهر، سيحلّ الخوف من أن أبدأ بكل شيء من جديد. بعد خمسة أشهر، سأكون قد وجدتُ سبيلاً إلى طلب العودة «من أجل الولدين»، لكنّ الوقت يكون قد فات: سيكون مع عشيقته وهي، امرأة أكثر صباً مني بكثير، وأجمل ومليئة بالطاقة، تضفي المتعة على حياته من جديد.

يرنّ الهاتف. يسأل مديري عن حال ابني. أقول إنّني في نقطة وقوف حافلات وأعجز عن سماعه جيدًا، لكنّ كلّ شيء بخير وسأكون قريبًا في الصحيفة.

يعجزُ الخائف عن رؤية الواقع، ويُفضّل الاختباء في استيهاماته. لا يسعني أن أمضي على هذا النحو أكثر من ساعة. عليّ أن أتمالك نفسي. وظيفتي تنتظرني، والعمل قد يساعدني.

أغادر نقطة وقوف الحافلات وأهمّ بالعودة إلى سيّارتي. أنظر إلى الأوراق اليابسة على الأرض. في باريس، سبق أن كُنّست على ما أظنّ. لكن في جنيف، هي لا تزال هنا، مع أنّ هذه المدينة أكثر ثراءً من الأولى.

يومًا ما، كانت هذه الأوراق جزءًا من شجرة، شجرة هي الآن في مرحلة انطواء، تتهيّأ لموسم من الراحة. هل قدّمت الشجرة أيّ اعتبار للدِثار الأخضر الذي غطّاها، وغذّاها، وأتاح لها أن تتنفّس؟ لا. هل فكّرت في الحشرات التي عاشت فيه وساعدت على لقاح الزهر والإبقاء على الطبيعة نابضة؟ لا. فكّرت الشجرة بنفسها فقط، بعض الأمور، مثل الأوراق والحشرات، يتّم التخلّص منها عند الاقتضاء.

أنا كإحدى تلك الأوراق على أرض المدينة، التي عاشت وهي

تظنّ أنّها ستخلد، وماتت من دون أن تعرف السبب، والتي أحبّت الشمس والقمر، والتي شاهدت مطوّلاً تلك الحافلات والسيّارات المزمجرة تمرّ بها، ومع هذا لم يتمتّع أحد قط بالكياسة ليخبرها بوجود الشتاء. عاشته إلى أن بدأت ذات يوم تصفرّ، وودّعتها الشجرة.

لم تقل لها «أراكنّ لاحقًا» بل «وداعًا»، وهي تعرف أنّ الأوراق لن ترجع يومًا. وطلبتُ من الريح العون كي تُرخيها عن الأغصان وتحملها بعيدًا. تعلم الشجرة أنّ بإمكانها النمو إن هي استراحت. وإن نمت، فستُحترم. ويُمكنها أن تولّد زهرًا أكثر جمالاً.

كفى. العمل هو أفضل علاج ما دمت استنزفتُ دموعي كلّها وفكّرت بالأشياء كلّها التي احتجتُ إلى التفكير فيها. لكنّني لا أزال عاجزة عن التحرّك.

أصل إلى الشارع حيث ركنتُ سيّارتي وأنا في وضع آلي، فأجد حارسًا يلبس زيًا أحمر وأزرق يمسح لوحة سيّارتي بآلة.

«هل هذه سيّارتك؟».

نعم.

يواصل عمله. لا أقول شيئًا. سبق أن أُدخِلت اللوحة إلى النظام وأُرسِلت إلى المكتب الرئيس لتنفيذ المعاملة وإرسال رسالة ممهورة بختم الشرطة الحصيف وموضوعة في الجيب الشفّاف لغلّف رسمي. لديّ مهلة ثلاثين يومًا لتسديد ١٠٠ فرنك، لكن يُمكنني أيضًا الاعتراض على الغرامة وإنفاق ٥٠٠ فرنك لقاء أتعاب محامين.

«جاوزتِ وقت الركن بثلث ساعة. الوقت الأقصى هنا هو نصف ساعة».

أومىء برأسي فقط. أرى أنّه متفاجىء- أنا لا أطلب منه الرحمة

أو التوقّف والقول إنّني لن أكرّر فعلتي، ولم أهرع إلى إيقافه عندما رأيتُه. لـم آتِ بردود الفعل التي يعهدها.

تخرج بطاقة المخالفة من الآلة كما لو أنّنا في سوبرماركت. يضعها في مغلّف بلاستيكي (لحمايتها من عناصر الطبيعة) ويتوجّه نحو زجاج السيّارة الأمامي ليضعه خلف المسّاحة. أضغط الزرّ في مفتاحي وتومض الأضواء، مُشيرةً إلى أنّ بابًا تُرك مفتوحًا.

يُدرك حماقة ما سيفعله، لكنّه على غراري، يعمل على الوضع الآلي. بعد أن يجفل من صوت الأبواب عند فتح قفلها، يسير نحوي، ويعطيني بطاقة المخالفة. يغادر كل منا سعيدًا. لـم يُضطرّ إلى التعامل مع أيّ تذمّر؛ وحصلتُ أنا على قليلٍ ممّا أستحقّه: حصلت على عقاب.

سأكتشفُ قريبًا إن كان زوجي يبذل قصاراه في ضبط النفس أو إن كان لا يُبالي فعلاً بـما جرى.

أصل إلى البيت في الوقت المعتاد بعد يوم آخر من جمع المعلومات حول توافه الأمور في العالم: التدرّب على الطيران، فائض في شجر الميلاد في السوق، وإدخال أدوات التحكّم الإلكترونيّة على تقاطع السكك الحديد. منحني ذلك السعادة القصوى، لأنّني لـم أكن في وضع جسدي أو ذهني يسمح لي بالتفكير كثيرًا.

أُعدّ العشاء كما لو كان هذا المساء مساءً آخر من بين الآلاف التي قضيناها معًا. نصرف بعض الوقت في مشاهدة التلفاز فيما يصعد الولدان إلى غرفتهما، مولعين بلوحيهما الإلكترونيين أو الألعاب الإلكترونيّة التي يقتلون فيها الإرهابيين أو الجنود بحسب اليوم.

أضع الصحون في الجلاّية. سيحاول زوجي أن يضع الولدين في فراشهما. حتّى الآن، لـم نتحادث سوى في أمر واجباتنا اليوميّة. لا يسعني أن أعرف إن كنّا على هذا النحو دومًا ولـم ألاحظه يومًا، أو أنّ اليوم غريب على وجه التحديد. سأكتشف قريبًا.

هو في الطابق العلوي، وأنا أوقد المدفأة للمرّة الأولى هذه السنة. مشاهدة النار تُهدّئني، ومع أنّني في صدد الإفصاح عن أمر أتوقّع أنّه على علم مسبق به، أنا في حاجة إلى كلّ العون الذي يمكنني الحصول عليه. أفتح زجاجة نبيذ وأُعدّ طبقًا من الجبنة المشكّلة.

أتناول رشفتي الأولى وأُحدّق إلى اللّهب. لا ينتابني القلق أو الخوف. حسبي هذه الحياة المزدوجة. مهما يحدث اليوم فسيكون أفضل لي. إذا كان على زواجنا أن ينتهي، فليكن؛ سينتهي في مساءٍ خريفي قبل عيد الميلاد، ونحن نشاهد نار المدفأة ونتحادث مثل أناس متحضّرين.

ينزل، يرى المشهد الذي أعددته، ولا يسأل شيئًا. يجلس فحسب إلى جانبي على الأريكة ويشاهد النيران أيضًا. يحتسي نبيذه. أهمُّ في إعادة ملء كأسه، لكنّه يلوّح لي بيده، مشيرًا إلى أنّه اكتفى.

أعلّق تعليقًا أخرق: هبطت درجة الحرارة اليوم إلى ما تحت الصفر. يُومِئ برأسه.

يبدو أن عليّ أن أبادر.

أنا نادمة فعلاً على ما حدث عند العشاء ليلة أمس...

«لم يكن الذنب ذنبك. تلك المرأة غريبة حقًا. أرجوك لا تقومي بدعوتي بعد اليوم إلى أمور مماثلة».

في صوته هدوء. لكنّ الجميع يتعلّمون في صغرهم أنّ ما قبل هبوب العاصفة، تحلّ دومًا لحظة تهدأ فيها الريح ويبدو كلّ شيء طبيعيًا تمامًا.

أشدّد على المسألة. أظهرت ماريان غيرتها المستترة خلف قناعها العصري والمتحرّر.

«صحيح. تقول لنا الغيرة: قد تفقد كلّ ما جهدت لتحقيقه. هي تُعمي أبصارنا عن كلّ أمر آخر، عن اللحظات التي اختبرناها بفرح، عن الأوقات السعيدة والروابط التي أقمناها في خلال تلك المناسبات. كيف للحقد أن يمحو تاريخ زوجين محوًا كاملاً؟».

هو يمهّد لكي أقول كلّ شيء أحتاج إلى قوله. يتابع:

«يمرّ الجميع بأيّام يقولون خلالها: «لا ترقى حياتي تمامًا إلى توقّعاتي». لكن إن سألتكِ الحياة ماذا فعلتِ من أجلها، ماذا ستقولين؟».

هل السؤال موجّه إليّ؟

«لا، أنا أتساءل. لا يحدث شيء بلا جهد. عليكِ أن تتحلّي بالإيمان. ولفعل ذلك، عليكِ أن تهدمي حواجز الأحكام المسبقة، وهذا يتطلّب شجاعة. ولامتلاك الشجاعة، لا بُدّ لكِ من أن تهزمي مخاوفك، وهلمّ جرًّا. فلنتصالح مع أيّامنا. لا يُمكننا التغافل عن وجود الحياة إلى جانبنا. فلنساعدها!».

أسكب لنفسي كأس نبيذ أخرى. يلقم النار مزيدًا من الحطب. متى سأمتلك الشجاعة للاعتراف؟

لكنّه يبدو كأنّه لا يريد أن يدعني أتكلّم.

«ليس الحلم بالبساطة التي يبدو عليها. فعلى العكس، قد يكون خطيرًا جدًّا. عندما نحلم، نُشغّل محرّكات قويّة، ونعجز بعد ذلك عن حجب المعنى الحقيقي لحياتنا عن ذواتنا. عندما نحلم، نقوم أيضًا باختيار الثمن الذي سندفعه».

الآن. كلّما أطلتُ الوقت، زادت اللوعة التي سأسبّبها لكلّ منا.

أرفع كأسي، أقترح نخبًا، وأقول له إن ثمة أمرًا يكدّر روحي. يُجيب بأننا تحادثنا في الأمر عند العشاء تلك الليلة التي فتحتُ فيها قلبي وأخبرته عن خوفي من أن أكون مصابة بالاكتئاب. أشرح أنّ ما أشير إليه مختلف. يُقاطعني ويتابع:

«أن نسعى وراء حلم مكلف قد يعني التخلّي عن عاداتنا، قد يجعلنا نقاسي مشقّات، أو قد يُفضي بنا إلى خيبة الأمل، وما إلى ذلك. لكن مهما كان باهظًا، فلن يكون أبدًا بقدر الثمن الذي سيدفعه الأشخاص الذين لم يحيوا حياتهم. لأنّهم ذات يوم، سينظرون إلى الماضي، ويسمع كل منهم قلبه يقول: أهدرت حياتي».

هو لا يسهّل عليّ الأمور. فلنفترض أن ما عليّ قوله ليس ترّهات، أنّه شيء ملموس، حقيقيّ مُهدّد.

«سيطرتُ على الغيرة التي تنتابني من أجلكِ، وأنا سعيد لذلك. أتعرفين لمَ؟ لأن عليّ دومًا أن أُظهر لكِ أنّني أهل لحبّكِ. عليّ أن أكافح من أجل زواجنا، من أجل وصالنا، بطرُقٍ لا دخل لها بولدينا. أحبّكِ. سأتحمّل أيّ شيء، أيّ شيء بالمطلق، لكي أبقيكِ إلى جانبي دومًا. لكن لا يسعني أن أمنعك من الرحيل ذات يوم. لذا، إذا حلّ ذلك اليوم، فأنت حرّة في أن ترحلي وتسعي إلى سعادتك. حبّي لكِ أقوى من أيّ شيء، ولن أمنعك أبدًا من أن تسعدي».

تغرورق عيناي بالدمع. حتّى الآن، لستُ واثقة بما يقوله فعلاً، ماذا لو كان هذا مجرّد حديث عن الغيرة أو أنّه يبعث إليّ برسالة.

يتابع: «لا أهاب الوحدة. أهاب خداع نفسي، بالنظر إلى الواقع كما أريده أن يكون وليس كما هو في الحقيقة».

يُمسك بيدي.

«أنتِ برَكة في حياتي. قد لا أكون الزوج الأفضل في العالم، لأنّني أطمس مشاعري. وأعلم أنّكِ تحتاجين إلى أن أُبديها. أعلم أيضًا أنك قد تظنين لهذا السبب أنّك غير مهمّة في نظري، قد تشعرين

بعدم الاطمئنان، أو بأمور مماثلة. لكنّ الأمر ليس كذلك. علينا أن نجلس قبالة النار ونتحادث في كلّ الأمور باستثناء الغيرة. لأنّني لا أكترث لذلك. لعلّ من المستحسن أن نسافر معًا، نحن الاثنين فقط. أن نقضي عشيّة رأس السنة في مدينة مختلفة أو حتّى في مكان سبق أن زرناه».

«لكن ماذا عن الولدين؟».

«أنا واثق بأن جدّيهما سيفرحان فرحًا كبيرًا للاعتناء بهما».

ويختم:

«عندما يحب الزوجان أحدهما الآخر، يكونان مستعدّين لأيّ شيء. لأنّ الحبّ مثل الـمِشكال، الذي كنّا نلهو به ونحن صغار. هو في حركة مستمرَة ولا يجترّ نفسه. إذا لم تفقهي ذلك، فستكونين محكومة بالمعاناة من أجل شيء يقتصر وجوده على إسعادنا. وهل تدرين ما أسوأ الأمور؟ أشخاص مثل تلك المرأة، يقلقون على الدوام بشأن ما يظنّه الآخرون في زواجهم. هذا لا يهمّني. الأمر الوحيد المهمّ هو ما تظنّينه أنت».

أحني رأسي على كتفه. كلّ ما كان عندي لأقوله فقد أهمّيته. هو على علم بما يجري وقادر على التعامل مع الوضع بطريقة لن أتمكّن منها أبدًا.

«الأمر بسيط؛ ما دمت لا تقوم بأيّ عملٍ غير مشروع، يكون جني المال وخسارته في السوق الماليّة جائزْين».

يُحاول ملك المال السابق الحفاظ على مكانته كأحد أثرى الرجال في العالم. لكنّ ثروته تبخّرت في أقلّ من سنة بعد أن اكتشف الخبراء الماليّون أنّه كان يبيع أحلامًا. أحاولُ أن أُبدي اهتمامًا بما يقول. في النهاية، أنا من طلبَ إلى مديري أن يغفل سلسلة المقالات حول البحث عن حلول نهائيّة للتوتّر.

مرّ أسبوع على تلقيّ رسالة جاكوب التي يقول فيها إنّني أفسدتُ كلّ شيء. أسبوع على هيامي في الشوارع على غير هدى، وهي لحظة ستذكّرني بها قريبًا بطاقة المخالفة المروريّة. أسبوع على ذاك الحديث مع زوجي.

يتابع ملك المال السابق: «علينا دومًا أن نعرف كيفيّة بيع الفكرة. هذا ما يحقق نجاح الفرد. أن يعرف كيف يبيع ما يريد بيعه».

رفيقي العزيز، على الرغم من أبّهتك كلّها، وهالتك الجدّية، وجناحك في هذا الفندق الفخم؛ على الرغم من هذا المنظر المطلّ الأخّاذ، وبزّتك المشتراة من لندن والمخيطة بإتقان تام، وابتسامتك، وشعرك المصبوغ بعناية فائقة ليُبرز بعض الشيب فقط، بحيث يولّد انطباعًا بأنه طبيعي؛ وعلى الرغم من الثقة التي تتكلّم بها، ثمّة أمر

أفهمه أفضل منك: بيع فكرة ليس كلّ شيء. عليكَ أن تجد شاريًا. وينسحب هذا على الأعمال، والسياسة، والحبّ.

أتصوّر، أيّها المليونير السابق العزيز، أنّك تفهم مقصدي: لديك رسوم بيانيّة، ومساعدون، وملفّات عروض...لكنّ النتائج هي ما يريده الناس.

الحبّ أيضًا يريد نتائج، مع أنّ الجميع يصرّون على العكس، على أنّ فعل الحبّ يبرّر نفسه. هل هذا صحيح؟ حريٌّ بي أن أكون في الحديقة الإنجليزيّة، أتنزّه، مرتدية معطفي الفرو الذي ابتاعه لي زوجي عندما ذهبنا إلى روسيا، أجول بنظري على الخريف، أبتسم للسماء وأقول: «أحبّك، وحسبي ذلك». أيُمكن أن يصحّ ذلك؟

بالطبع لا. أنا أحبّ، لكن في المقابل، أريد شيئًا محسوسًا- تشابك الأيدي، القبلات، الجنس المحموم، التشارك في حلم، فرصة أن أوجد عائلة جديدة وأربّي أولادي، فرصة أن أَعمّرَ إلى جانب شخص أحبّه.

«نحتاج إلى هدف شديد الوضوح لاتّخاذ أيّ خطوة»، يقولها هذا الشخص المثير للشفقة إزائي، بابتسامة واثقة ظاهريًا.

لا بُدّ من أنّني أُقبِلُ على الجنون مجدّدًا. أربط كلّ شيء أسمعه أو أقرأه بوضعي الوجداني، حتّى هذه المقابلة المملّة مع هذا الرجل الكاريكاتوري المُزعج. أفكّر في الأمر أربعًا وعشرين ساعة في اليوم- فيما أسلك الشارع، أو أطهو، أو أصرف لحظاتٍ ثمينة من حياتي أستمع إلى أمور تدفع بي إلى أعمق، إلى الهاوية التي أنحدر إليها، بدلًا من أن تُلهيني.

«التفاؤل مُعدٍ...».

لا يستطيع ملك المال السابق التوقّف عن الكلام، متيقّنًا من أنني سأغيّر رأيي وأنّني سأنشر هذا في الصحيفة، وسيُردّ اعتباره. من الرائع إجراء مقابلات مع أشخاص مثله. علينا أن نطرح سؤالاً واحدًا فقط، وسيتكلّمون لساعة. بخلاف حديثي مع الشامان الكوبي، لا أولي كلمة واحدة انتباهًا. المسجّلة تعمل، ولاحقًا سوف أشذّب هذا الحديث الأحادي ليبلغ ستمئة كلمة، وهو يعادل أربع دقائق تقريبًا من مدّة الحديث.

يقول: التفاؤل مُعدٍ.

إذا كانت هذه الحال، فكل ما سيكون عليك فعله هو مقاربة الشخص الذي تحبّه بابتسامة عريضة جدًّا على وجهك، تملأك المخطّطات والأفكار، ومعرفة كيفيّة تقديم هذه الحزمة له. هل يُفلح ذلك؟ لا. ما يُعدي فعلاً هو الخوف، الخوف المستمرّ في ألّا تجد يومًا شخصًا يرافقنا حتّى نهاية أيّامنا. وبإسم هذا الخوف نستطيع أن نقوم بأي شيء، بما فيه قبول الشخص غير المناسب والاقتناع بأنّه المناسب الوحيد، الوحيد الذي وضعه الله على دربنا. وفي غضون وقت قصير جدًا، يتحوّل البحث عن الأمان إلى حبٍّ حارّ، وتُمسي الأمور أقلّ مرارة، وأصعب. ويُمكن أن نودع مشاعرنا صندوقًا، ونزجّه في عمق الخزانة في أذهاننا، حيث سيبقى إلى الأبد، دفينًا لامرئيًّا.

«يقول بعض الناس إنّني أحد الرجال الأوسع صِلات في بلادي. أعرف متعهّدي أعمال، سياسيين، صناعيين. ما يجري لشركاتي مؤقّت. قريبًا ستشهدون عودتي».

أنا أيضًا شخص واسع الصِلات، وأعرف أصناف الناس أنفسهم

الذين يعرفهم. لكنّني لا أريد الإعداد لعودة. أريد فقط خاتمة متحضّرة مع إحدى هذه «الصِلات».

كل ذلك لأنّ الأمور التي لا تنتهي بوضوح تترك على الدوام بابًا مفتوحًا، احتمالاً بِكرًا، فرصة أنّ كلّ شيء قد يرجع إلى ما كان عليه من قبل. لا آلف هذه الأمور، لكنّني أعرف أشخاصًا كثيرين يحبّون أن يكونوا في وضع مماثل.

ما الذي أفعله؟ مقارنة الاقتصاد بالحبّ؟ محاولة إرساء صلة بين العالم المالي والعالم الوجداني؟ مرّ أسبوع على آخر خبر من جاكوب.

مرّ أسبوع أيضًا على تلك الليلة أمام المدفأة، عندما عادت علاقتي بزوجي إلى طبيعتها. هل سنتمكّن من إعادة بناء زواجنا؟

حتّى حلول فصل الربيع هذا، كنتُ شخصًا طبيعيًّا. اكتشفتُ ذات يوم أنّ كلّ شيء ملكته قد يختفي في لمح البصر، وبدل أن أتصرّف كإنسانة ذكيّة، ذُعِرت. أدّى ذلك إلى الجمود. الفتور. العجز عن التصرّف والتغيّر. وبعد كثير من ليالي السهد، وكثير من الأيام التي فقدت فرح الحياة، فعلت بالضبط أكثر ما خشيته: مشيتُ في الاتّجاه المعاكس، على الرغم من المخاطر. أعرف أنّني لستُ الوحيدة، فالناس ينزعجون من التدمير الذاتي. بالمصادفة، أو لأنّ الحياة أرادت أن تمتحنّي، وجدتُ شخصًا شدّني من شعري- حقيقةً ومجازًا - وهزّني، ونفض عنّي الغبار الذي كان يتراكم، وجعلني أتنفّس من جديد.

وكلّ ذلك خطأ صرف. إنّه نوع السعادة التي لا بُدّ من أنّ المدمنين يعرفونها عندما يتعاطون المخدّرات. عاجلاً أو آجلاً، يزول مفعول المخدّر، ويتفاقم اليأس.

يشرع ملك المال بالتحدّث عن المال. لم أطرح عليه أيّ سؤال في هذا الشأن، مع ذلك، يتكلّم. لديه حاجة هائلة إلى القول إنّه ليس فقيرًا، إنّ بإمكانه الاستمرار في أسلوب عيشه لعقود آتية.

لا أطيق البقاء هنا أكثر. أشكره على المقابلة، أُطفىء المسجّلة، واذهب لإحضار معطفي.

يقول مقترحًا: «هل أنتِ حُرّة هذا المساء؟ بإمكاننا أن نحتسي كأسًا ونُنهي الحديث».

ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها ذلك. في الواقع، إنّه من المسلّمات تقريبًا في حالتي. مع أنّ مدام كونيش لن تُقرّ بالأمر، فأنا فاتنة وذكيّة، وقد استعملتُ سحري لأدفع بعض الأشخاص إلى قول أمور لن يقولوها في العادة لصحافيين، حتّى بعد تحذيري لهم بأنّني قد انشر كلّ شيء. لكن الرجال...آه من الرجال! يفعلون كلّ ما بإمكانهم لإخفاء مواطن ضعفهم في حين أن بوسع أيّ فتاة في الثامنة عشرة من العمر أن تتلاعب بهم بجهد قليل.

أشكره على الدعوة وأقول إنّ لديّ مخطّطات مسبقة لهذا المساء. يغريني أن أسأله عن ردّ فعل آخر حبيباته على موجة الإعلام السلبي وانهيار إمبراطوريّته. لكن أستطيع أن أتصوّر الردّ مسبقًا، وهو لا يهمّ الصحيفة.

أغادر، أجتاز الشارع، وأتوجّه إلى الحديقة الإنجليزيّة، حيث، منذ لحظات، تخيّلتُ نفسي أتنزّه فيها. أذهب إلى متجر المثلّجات عند زاوية شارع «٣١ ديسمبر». أحبّ اسم الشارع لأنّه يذكّرني بأن سنة أخرى ستنتهي عاجلاً أو آجلاً، ومرّة أخرى، سأضع قرارات للسنة التالية.

أطلب مقدار مغرفة واحدة من البوظة بالفستق والشوكولاته. أسير نحو الرصيف وأتناول مثلّجاتي فيما أراقب رمز جنيف: النافورة التي يشبّ ماؤها في السماء ويولّد ستارًا من قطرات الماء أمامي. يقترب السيّاح ويلتقطون صورًا ستظهر خفيفة الإضاءة. ألن يكون من الأسهل شراء بطاقة بريديّة مصوّرة فحسب؟

زُرت معالم كثيرة في العالم، كثيرًا من نُصُبِ الرجال الذين نُسيت أسماؤهم منذ زمن، لكنّهم سيظلّون منتصبين على ظهور خيولهم الجميلة إلى الأبد. نُصُب نساء، يرفعن تيجانهنّ أو سيوفهنّ إلى السماء، يرمزن إلى النصر الذي لم يعد يظهر حتّى في الكتب المدرسيّة. نُصُب أولادٍ وحيدين، مجهولين، حُفروا من حجر، وقد ضاعت براءتهم إلى الأبد في خلال الساعات أو الأيّام التي أُكرهوا فيها على المثول أمام فنّان، هو أيضًا سَحَقَ التاريخُ اسمَه.

في ما عدا استثناءات قليلة جدًا، لا تتجلّى معالم مدينة ما في تماثيلها، بل في أمورها اللامتوقّعة. عندما بنى إيفيل برجًا لمعرضه العالمي، لم يحلم حتّى يومًا بأنّه سيؤول إلى اعتباره رمز باريس- يُطلّ على متحف اللوڤر، وقوس النصر، وحدائقه البهيّة. تفاحة تُمثّل نيويورك. وجسرٌ قليل الاكتظاظ هو رمز سان فرانسيسكو. وجسرٌ آخر، يعلو نهر تاجه، مطبوع على البطاقات البريديّة المصوّرة في لشبونة. وتتّخذ برشلونة كاتدرائيّة غير مُنجزة شعارًا من أعظم شعاراتها.

وينسحب الأمر على جنيف. تلتقي بحيرة «ليمان» ونهر «الرون» في هذه النقطة بالذات، مولّدة تيّارًا قويًا جدًّا. بُنيت محطّة توليد كهرومائيّة هنا لاستغلال القوّة المائيّة (نحن سادة في استغلال

الأمور)، لكن عندما كان العمّال يرجعون إلى منازلهم ويقفلون الصمّامات، كان الضغط يشتدّ جدًّا، فانتهى الأمر بالتوربينات إلى التفجّر.

إلى أن خطرت الفكرة لمهندس بوضع نافورة محلّها، ما يسمح لفائض الماء بالتدفّق.

مع الوقت، حلّ مهندسون المشكلة وباتت النافورة غير ضروريّة. غير أنّ سكّان المدينة صوّتوا في استفتاء للإبقاء عليها. كانت النوافير كثيرة في المدينة أصلاً، وتقع هذه النافورة في وسط بحيرة. فكيف لهم إبرازها أكثر؟

هكذا وُلد المَعلم المتحوّل. تمّ تركيب مضخّات قويّة، والآن تقذف نافورة جبّارة خمسمئة لتر من الماء في الثانية الواحدة، بسرعة مئتي متر في الساعة. يقولون إنّ رؤيتها على ارتفاع نحو تسعة آلاف متر من الطائرة أمرٌ ممكن، وقد تأكّدتُ من ذلك. ليس لها اسم مميّز؛ تُسمّى «جيه دو» فحسب (نافورة الماء)، هي المَعلم الرمزي للمدينة على الرغم من وجود كلّ التماثيل، من رجال على أحصنة، ونساء بطلات، وأولاد وحيدين.

سألتُ دينيز ذات يوم، وهي عالِمة سويسريّة، عن رأيها في «جيه دو».

«الجسم، بمعظمه تقريبًا، مكوّن من الماء الذي تمرّ عبره التفريغات الكهربائيّة، موصِلةً المعلومات. تسمّى إحدى هذه المعلومات الحبّ، ويُمكنها أن تتعرّض للكائن الحيّ بأكمله. الحبّ دائم التغيّر. أعتقد أنّ «جيه دو» أبهى المعالم التي ترمز إلى الحبّ المولود من فنّ الإنسان، لأنّه هو أيضًا لا يبقى على حاله أبدًا».

آخذ هاتفي وأتّصل بمكتب جاكوب. بإمكاني طبعًا أن أطلب رقمه الشخصي، لكنني لا أفعل. أكلّم مساعدته وأبلغها بأنّني سأجتمع به.

مساعدته تعرفني. تطلب إليّ أن أبقى على الخطّ في حين تؤكّد الاجتماع. بعد دقيقة، تعود وتعتذر قائلةً إنّ جدول مواعيده ملآن تمامًا. ربّما في السنة الجديدة؟ أقول لا، أحتاج إلى لقائه على الفور، الأمر طارئ.

«الأمر طارئ» عبارة لا تفتح على الدوام كثيرًا من الأبواب، لكن في هذه الحالة، أنا واثقة أنّ فرصتي كبيرة. هذه المرّة، تستغرق المساعدة دقيقتين من الوقت. تسأل عن إمكانية أن يكون بداية الأسبوع المقبل. أبلغها بأنّني سأصل في غضون ثلث ساعة.

أقول شكرًا وأنهي المكالمة.

يطلب إليّ جاكوب أن أرتدي ملابسي بسرعة. في النهاية، مكتبه مكان عام، ويُدفَع أجره من مال الحكومة. إذا حدث أن اكتشف أحدهم ما جرى فقد يُسجن. أُعاين بدقّة الجدران المكسوة بألواح من الخشب المنقوش وتصاميم الجصّ البهيّة في السقف. لا أزال مستلقية على الأريكة الجلدية الرثّة، عارية كلّيًا.

إنّه يتوتّر. هو يرتدي بزّة وربطة عنق، ينظر بقلق إلى ساعة يده. انتهت ساعة الغداء. سبق لسكريترته الخاصة أن عادت، طرقت بهدوءٍ الباب وسمعت «أنا في اجتماع»، ولم تُصرّ. مرّت أربعون دقيقة منذ ذلك الوقت، إلى جانب بضع جلسات استماع ومواعيد أُلغيت على ما يُحتمل.

عندما وصلتُ، حيّاني جاكوب بطبع القبل الثلاث على وجنتيّ. وأشار بنبرة رسميّة إلى الكرسي أمام مكتبه. لم أحتج إلى حدسي الأنثوي لأعرف أنّه كان مرتعبًا. ما الداعي إلى هذا الاجتماع؟ ألا أستوعب أنّ جدول مواعيده محشور؟ ستبدأ العطلة البرلمانيّة قريبًا، ويحتاج إلى حلّ مسائل عدّة مهمّة. ألم أقرأ الرسالة التي بعث بها إليّ، قائلاً إن زوجته مقتنعة الآن بأنّ شيئًا ما يجري بيننا؟ تحتاج إلى أن ننتظر قليلاً وندع الأمور تهدأ قبل أن نُعاود الالتقاء.

«بالطبع أنكرتُ كلّ شيء. ادّعيتُ أنّني صُدمت أشدّ صدمة من تلميحاتها. قُلتُ إنّها أهانت كرامتي. إنّني سئمتُ عدم ثقتها بي

وإنّ بإمكانها سؤال من تشاء عن سلوكي. ألم تكن هي من قال إنّ الغيرة إشارة إلى الدونيّة؟ فعلتُ ما أمكنني، وردّت ببساطة: كُفّ عن سُخفك. أنا لا أتذمّر من أيّ شيء، أنا أقول فقط إنّني عرفتُ لماذا كُنت تتصرّف بغاية اللطف واللباقة مؤخّرًا. كان...».

لم أدعه يُكمل جملته. نهضتُ وشددته من ياقته. ظنّ أنّني كُنت سأبطش به. لكن بدلاً من ذلك، قبّلته قبلة مطوّلة. لم يستجب جاكوب مطلقًا، لأنه كان يتصوّر أنّني أتيت إليه لتفور عليه قِدري. لكنّني واصلتُ تقبيل شفتيه ورقبته فيما حللتُ ربطة عنقه.

دفعني عنه، فصفعته.

«أحتاج فقط إلى قفل الباب أولاً. اشتقتُ إليكِ أنا أيضًا».

أجتاز المكتب المفروش بذوق بأثاث يعود إلى القرن التاسع عشر، وأدار المفتاح في القفل. عندما عاد، كنتُ قد تعرّيتُ من ملابسي كلّها تقريبًا، مُبقيَة على سروالي الداخلي فقط.

فيما مزّقتُ ملابسه، شرع في لعق نهديَّ. تأوّهتُ من اللذّة، أطبقَ فمي بيده، لكنّني هززتُ رأسي وواصلتُ التأوّه بهدوء.

خلال ذلك الوقت، توقّفت مرّة واحدة للقول: سُمعتي على المحكّ، كما بإمكانك أن تتصوّر. لا تقلقي.

جثوتُ على ركبتيّ وأخذتُ ألعقُ عضوه. مجدّدًا، أمسكَ برأسي، مُتحكّمًا بالوتيرة، أسرع فأسرع. لكنّني لم أُرد أن يقذف في فمي. أبعدته عنّي وتوجّهتُ إلى الأريكة الجلديّة، تهالكتُ عليها وباعدتُ بين ساقيَّ. ركع، وراح يلعق أسفلي. عندما انتشيتُ النشوة الأولى،

عضضتُ يدي لألجم صراخي. بدت موجة اللذّة كأنّها لن تنتهي. واصلتُ عضّ يدي.

ثمّ ناديته باسمه، قائلةً له إنّني أريده داخلي وله أن يفعل ما يريده. ولجني، جذبني من كتفيَّ بشدّة، وهزّني مثل متوحّش. أبعد بين ساقيَّ لكي يلجني أعمق. اشتدّت الوتيرة، لكنّني أمرته ألاّ يقذف عندها. احتجتُ إلى مزيدٍ، ومزيدٍ، ومزيد.

جعلني على الأرض، على يديَّ وركبتيّ، مثل كلبةٍ، ضربني، وولجني مرّة أخرى فيما حرّكتُ خصري بعنف. عرفتُ من أنينه المخنوق أنّه كان سيبلغ الذروة، أنّه لم يعد قادرًا على التحكّم بنفسه. جعلته ينسحب منّي، استدرتُ، وطلبتُ إليه أن يدخلني مجدّدًا وهو ينظر إلى عينيّ ويتفوّه بالكلمات البذيئة التي أحببنا تبادلها عندما مارسنا الحبّ. تفوّهتُ بأفحش ما يُمكن لامرأة التفوّه به لرجل. ناداني مردّدًا اسمي بنعومة، يتوسّل أن أقول له إنّني أحبّه. لكنّني كنت قد تفوّهت بكلّ دنسٍ وطلبتُ إليه أن يعاملني معاملة المومس والغريبة ويستغلّني استغلال الجارية والإنسانة التي لا تستحق الاحترام.

اقشعرّ بدني كلّه. جاءتني اللذّة على موجات. انتشيتُ، وانتشيتُ، فيما ضبط نفسه لإطالة الأمر ما أمكن. اصطدم جسدانا بعنف، محدِثين دويًا. لا بُدّ من أنّه لم يعد يكترث إن سمعه أحدهم عبر الباب.

تسمّرت عيناي عليه، مُصغيةً إلى ترداده اسمي مع كلّ حركة؛ أدركتُ أنّه لم يكن يضع واقيًا ذكريًا وأنّه كان على

وشك أن يقذف. مرّة أخرى، تنحّيتُ، وأنا أدفعه إلى الانسحاب. طلبتُ إليه أن يقذف على وجهي، في فمي، وأن يقول لي إنّه يحبّني.

فعل جاكوب ما قلته بالضبط، فيما استمنيت وانتشيتُ أنا أيضًا. ضمّني إليه، حنى رأسي على كتفه، ومسح زاويتَي فمي بيده. قال مجدّدًا وتكرارًا إنّه يحبّني وإنّه حقًا اشتاق إليّ.

لكنّه الآن يطلب إليّ أن أرتدي ملابسي، لكنّني أبقى بلا حراك. عاد إلى حالة الفتى الحسن السلوك الذي يلقى إعجاب الناخبين. يُحسّ بأنّ ثمّة خطبًا، لكنّه لا يعرف ماهيّته. يروح يدرك بأنّني لستُ هنا لمجرّد أنّه عشيق مذهل.

«ماذا تريدين؟».

أريد خاتمة. أحتاج إليها وإن كانت تفطر قلبي وتتركني محطّمة وممزقة إلى أشلاءَ، أحتاج إلى إنهاء ما بيننا، إلى النظر في عينيك إلى القول انتهينا. إلى الأبد.

المعاناة التي قاسيتها الأسبوع الفائت كانت أبعد من الاحتمال إلى حدّ بعيد. ذرفتُ دموعًا جافّة، وتهتُ في الأفكار التي راودتني، بأنني أُحمل إلى حرم الجامعة حيث تعمل زوجتك وأودع المصحّ العقلي التابع للمستشفى. خلتُ أنّني أخفقتُ في كلّ شيء، باستثناء العمل ودوري الأمومي. كُنت على بُعد خطوة من العيش والموت كلّ دقيقة، أحلم بكلّ ما كان يمكن لنا الحصول عليه لو كنّا لا نزال مراهقَين ينظران إلى المستقبل معًا، مثل المرّة الأولى. لكن حلّت لحظة فهمتُ عندها أنّني بلغتُ حدود اليأس، ولا يسعني الغوص إلى أعمق. وعندما رفعتُ بصري إلى أعلى، كانت ثمّة يد واحدة ممدوة لي: يد زوجي.

لا بُدّ أنّه عرف الأمر أيضًا، لكنّ حبّه كان أقوى. حاولتُ أن أكون صريحة وأخبره بكلّ شيء لأرفع ذاك الحِمل عن كاهلي، لكنّني لم أحتج إلى ذلك. أفهمني أنّه، بغضّ النظر عن خياراتي التي اتّخذها في حياتي، سيكون دومًا إلى جانبي، لذا كان حِملي خفيفًا.

أدركتُ أنّني كُنت ألوم نفسي، وأعاقبها على أثر أمور لم يكن يتّهمني بها أو يلومني عليها. قلتُ لنفسي: «لستُ جديرةً بهذا الرجل، هو لا يعلم مَن أنا».

لكنّه يعلم. وهذا ما يسمح لي باستعادة احترامي وتقديري لذاتي. لأنّه إذا كان رجل مثله يريد البقاء إلى جانبي، رجل لن يصعب عليه البتّة إيجاد شريكة جديدة في اليوم التالي للانفصال، فهذا لأنّني ذات قيمة، ذات قيمة كبيرة.

اكتشفتُ أن بإمكاني أن أرجع وأنام إلى جانبه من دون الشعور بأنّني قذرة أو أفكّر بأنّني أخونه. شعرتُ بأنّني محبوبة وأنّني استحققت هذا الحبّ.

أنهض، ألتقط ثيابي وأتوجّه إلى حمّامه الخاص. هو يعرف أنّها المرّة الأخيرة التي سيراني فيها عارية.

أقول عندما أعود: أمامي مسيرة شفاء طويلة. أعتقد أنّك تعيش الشعور نفسه، لكنّني واثقة بأن جلّ ما تريده ماريان هو أن تنتهي هذه العلاقة العابرة، وتتمكّن من معانقتك مجدّدًا بالحبّ والأمان المعهودين.

«نعم، لكنّها لن تقول لي شيئًا. عرفت ما كان يجري وانطوت على نفسها أكثر. لم تكن يومًا عاطفيّة، والآن هي مثل إنسانة آليّة، أكثر تفانيًا في العمل من أيّ وقتٍ مضى. إنّها طريقتها في الهروب».

أُعدّل وضعيّة تنوّرتي، أنتعل حذائي، أُخرج رزمةً من حقيبتي، وأتركها على طاولة مكتبه.

«ما هذا؟».

كوكايين.

«لم أعرف أنّك...».

أفكّر في أنّه لا داعي ليعرف كلّ شيء. لا داعي ليعرف المدى الذي كنتُ مستعدّة لبلوغه للنضال من أجله، هو الرجل الذي تُيّمت بحبّه. لا يزال الشغف موجودًا، لكنّ الشعلة تذوي كلّ يوم. أعرف أنّها ستنطفىء في النهاية. كلّ انفصال مؤلم، وأستطيع أن أشعر بهذا الألم في كلّ نسيج من جسمي. إنّها المرّة الأخيرة التي سأراه فيها وحده. سنلتقي من جديد في حفلات كوكتيل وعشاء رسميّة، في الانتخابات والمؤتمرات الصحفيّة، لكنّنا لن نكون يومًا كما كنّا اليوم. كان من الرائع أننا مارسنا الحبّ هكذا وانتهينا كما بدأنا، كلانا مستسلم للآخر تماماً. عرفتُ أنّها المرّة الأخيرة؛ هو لم يعرف، لكن لم أستطع قول شيء.

«ماذا يُفترض أن أفعل بها؟».

ارمِها. كلّفتني ثروة ضئيلة، لكن ارمِها. عندها ستحرّرني من إدماني.

لا أفسّر الإدمان الذي أقصده. لأنّ له اسمًا: جاكوب كونيش.

أرى تعابير تفاجئه وأبتسم. أقول وداعًا طابعةً القبلات الثلاث على وجنتيه وأرحل. في الردهة، أستدير ناحية معاونه وألوّح له. يُشيح بنظره عنّي، مُدّعيًا التركيز في كومة من الأوراق، ويُتمتم الوداع فقط.

عندما أصل إلى الرصيف، أهاتف زوجي وأقول له إنّني أفضّل قضاء عشيّة رأس السنة في المنزل، مع الولدين. إذا أراد أن نسافر، فليكن ذلك في عيد الميلاد.

«هلّا نتمشّى قبل العشاء؟».

أومِىء بالإيجاب، لكنّني ألازم مكاني. أُحدّق إلى المتنزّه مقابل الفندق، وخلفه «يونغفرو» المكتسية قمّته ثلجاً على الدوام والمُشعّ بنور شمس بعد الظهر.

العقل البشري مُذهل؛ ننسى عبقًا ما إلى أن نشتمّه من جديد، نمحو صوتًا ما من ذاكرتنا إلى أن نسمعه من جديد، وحتّى العواطف التي بدت مدفونة إلى الأبد، تستيقظ عندما نرجع إلى المكان نفسه.

أسترجع يوم كنّا في «إنترلاكن» للمرّة الأولى. حينذاك، نزلنا في فندق رخيص، وانتقلنا مشيًا من بحيرة إلى أخرى، وكأنّنا كنّا نكتشف دربًا جديدًا في كلّ مرّة. كان زوجي مشاركًا في ذاك الماراثون المجنون الذي كان معظم دربه عبر الجبال، كنت فخورة بروحه المُغامِرة، برغبته في قهر المستحيل وتحدّي جسمه على الدوام.

لم يكن المجنون الوحيد الذي يقوم بذلك؛ جاء أناس من نواحي العالم كلّه، ملأوا الفنادق واختلطوا في كثير من المشارب والمطاعم في هذه البلدة الصغيرة التي يسكنها خمسة آلاف شخص. لا أدري كيف تكون «إنترلاكن» شتاءً، لكن الآن كما تبدو من نافذتي، هي أكثر فراغًا، أكثر انسحابًا.

هذه المرة ننزل في فندق أفضل. لدينا جناح جميل. بطاقة المدير على الطاولة، يُرحّب بنا ويقدّم إلينا زجاجة من الشمبانيا التي سبق أن أفرغناها.

يناديني باسمي. أرجع إلى الواقع وننزل السلالم لنتمشّى في الشوارع قبل حلول الظلام.

إذا سألني هل كلّ شيء على ما يرام؟ فسوف أكذب، لأنّني لا أريد أن أفسد عليه سعادته. لكنّ الحقيقة أنّ الجراح في قلبي يستغرق شفاؤها وقتًا طويلاً. يُشير بإصبعه إلى الشاطئ حيث جلسنا ذات صباح لشرب القهوة ودنا منّا ثنائي أجنبي من الهيبيين الجدد يطلب المال. نمرُّ أمام إحدى الكنائس فيما يقرع جرسها، يقبّلني وأردّ القبلة، أفعل ما بوسعي لإخفاء ما أشعر به.

نسير متشابكي الأيدي بسبب البرد. أكره ارتداء القفّازات. نتوقّف عند مشرب جميل ونحتسي بعض المشروب. نذهب إلى محطّة القطار. يشتري التذكار نفسه الذي اشتراه المرة الماضية، قدّاحة عليها رمز المدينة. يومها، كان يدخّن ويركض في الماراثون.

اليوم، هو لا يدخّن ويعتقد أنّ نَفَسه ينقطع أكثر يومًا بعد يوم. هو يلهث دومًا عندما نمشي مسرعين، ومع أنّه يحاول إخفاء ذلك، لاحظت أنّه شعر بتعبٍ أكثر من المعتاد عندما قمنا بجولة الركض تلك حول البحيرة في «نيون».

هاتفي يرجّ. أفتّش عنه مطوّلاً في حقيبة يدي قبل أن أجده. وعندما أجده أخيرًا، يكون الشخص قد أقفل الخطّ. يظهر على الشاشة أنّها صديقتي، التي كانت مكتئبة، والتي استعادت سعادتها، بفضل الأدوية.

«لا أمانع إن كنتِ تريدين معاودة الاتصال بها».

أسأل لـمَ عليّ معاودة الاتصال. ألا تسرّه رفقتي؟ أيريد أن يُقاطعنا أشخاص سيصرفون ساعات في الثرثرة على الهاتف؟

يغتاظ منّي هو أيضًا. ربـمّا كان تأثير زجاجة الشمپانيا فحسب، يرافقها كأسان من مشروب أكواڤـيت. يُهدّئني غيظه ويريحني؛ فأنا أمشي إلى جانب إنسان، بانفعالات ومشاعر.

أقول إنّ «إنترلاكن» غريبة من دون الماراثون. تبدو كمدينة أشباح.

«ما من منحدرات تزلّج هنا».

ولا يمكن أن تكون. نحن في وسط وادٍ، تحيط به جبال شاهقة من جانبيه وبحيرات من طرفيه.

يطلب كأسين من مشروب الجين. أقترح أن نتنقّل بين المشارب، لكنّه عازم على محاربة البرد بالكحول. لـم نفعل ذلك منذ وقت طويل.

«أعرف أنّها عشر سنوات فقط، لكن عندما جئنا إلى هنا للمرّة الأولى، كنتُ شابًا. كانت لي طموحات، أحببت الهواء الطلق، ولـم أكن أسمح للمجهول بأن يخيفني. هل تغيّرتُ كثيرًا؟».

لا تزال في العقد الرابع فقط. هل أنت عجوز فعلاً؟

لا يجيب. يتجرّع مشروبه دفعة واحدة ويُحدّق إلى الفراغ. هو لـم يعد الزوج المثالي، وبغرابة، يُسعدني هذا.

نغادر المشرب ونرجع إلى الفندق مشيًا. نرى على دربنا مطعمًا جميلاً وساحرًا، لكن سبق أن حجزنا في مكان آخر. لا يزال الوقت

باكرًا. تُشير اللافتة إلى أنّ تقديم العشاء لا يبدأ قبل السابعة مساءً.

«فلنحتسِ كأسًا أخرى من الجين».

مَن هذا الرجل إلى جانبي؟ هل أيقظت «إنترلاكن» ذكريات منسيّة وفتحت صندوق پاندورا؟

لا أقول شيئًا. بدأت أشعر بالخوف.

أسأل إن كان علينا أن نلغي الحجز في المطعم الإيطالي ونتناول العشاء هنا.

«لا يهمّ».

لا يهمّ؟ هل يشعر فجأةً بكلّ ما خَبِرتُه عندما ظننت أنّني مكتئبة؟

بل يهمّني. أريد أن نرتاد المطعم الذي حجزنا فيه. المطعم نفسه الذي تبادلنا فيه وعود الحبّ.

«كانت هذه الرحلة فكرة فظيعة. أفضّل العودة في الغد. كانت نيّاتي حسنة: أردتُ أن نُحيي الأيّام الأولى لعلاقتنا. لكن هل هذا ممكن؟ بالطبع لا. نحن راشدان. نعيش في ظلّ ضغوط لم تكن موجودة من قبل. نحتاج إلى تلبية حاجات أساسيّة مثل التعليم، والرعاية الصحيّة، والمأكل. نحاول أن نستمتع بوقتنا في عطل نهاية الأسبوع لأنّ هذا ما يفعله الجميع، وعندما لا نشعر بالرغبة في مغادرة المنزل، نعتقد أنّنا نشكو من أمرٍ ما».

لم أرد ذلك يومًا. أفضّل ألاّ أفعل شيئًا.

«أنا كذلك. لكن ماذا عن الولدين؟ هما يريدان أمرًا مختلفًا

عنّا. لا يمكن أن نحتجزهما برفقة حاسوبيهما. هما لا يزالان صغيرين على ذلك. لذا نُجبر أنفسنا على اصطحابهما إلى مكان آخر، والقيام بالأمور نفسها التي فعلها والدانا، وهو الأمر نفسه الذي فعله جدّانا مع والدينا. حياة عادية. نحن أُسرة ذات تركيبة عاطفيّة حسنة. إن احتاج الواحد منّا إلى المساعدة، يكون الآخر مستعدًا على الدوام لفعل أي شيء من أجله».

أفهم. كالقيام برحلة مثلاً إلى مكان مليء بالذكريات.

كأس أخرى من الجين. يلزم الصمت قليلاً قبل أن يجيب.

«صحيح. لكن أتعتقدين أنّ للذكريات أنْ تملأ الحاضر؟ لا. في الواقع، هي تخنقني. أنا في صدد الاكتشاف أنّني لم أعد الشخص نفسه. كان كلّ شيء بخير، حتى جئنا إلى هنا واحتسينا زجاجة الشمبانيا تلك. أُدرك الآن كم بعيد أنا عن الحياة التي حلمت بأن أحياها عندما زرت «إنترلاكن» للمرّة الأولى».

بمَ حلمت؟

«كان حلمًا سخيفًا. لكنّه مع ذلك كان حلمي. وكان بإمكاني أن أحقّقه».

لكن ما كان؟

«أن أبيع كلّ شيء امتلكته، أشتري قاربًا، وأجول في العالم معك. ولكن هذا كان سيغضب أبي لأني في ذلك لا أحذو حذوه. غير أن هذا لم يهمني. كنّا سنرسو في موانىء، ونشغل وظائف غريبة إلى أن نجني ما يكفينا من المال لاستئناف الترحال، ومتى جنينا ما يكفي من المال، نُبحر مجدّدًا. وكنت أحلم برفقة أشخاص لم نرهم من

قبل ونكتشف أماكن غير واردة في الأدلّة السياحيّة. المغامرة. أمنيتي الوحيدة كانت المغامرة».

يطلب كأسًا أخرى من الجين ويتجرّعها بسرعة غير مسبوقة. أكفّ عن الشرب لأنّني أشعر بالغثيان؛ لم نكن قد أكلنا شيئًا. أودّ أن أقول لو أن أمنيته تحقّقت كنت سأصبح أسعد امرأة في العالم. لكن كان من الأفضل أن ألزم الصمت وإلا سيزداد شعوره سوءًا.

«ثمّ أتى الولد الأوّل».

وإن يكن. فثمة ملايين الازواج لديهم أولاد ويفعلون بالضبط ما أشار إليه.

يتأمّل قليلاً.

«لن أقول ملايين. ربّما آلاف».

تتغيّر نظراته؛ لم تعد تعكس العدائيّة، بل الحزن.

«ثمّة أوقات يجدر بنا أن نتوقّف عندها لكي ننظر إلى الصورة بأكملها: ماضينا وحاضرنا. ما تعلّمناه، والأخطاء التي ارتكبناها. كنت أخشى تلك اللحظات على الدوام. أحتال على نفسي، وأقول إنّني اتّخذتُ من الخيارات أفضلها، ولم يتعيّن عليّ إلا تقديم قليل من التضحيات. لا شيء مهمّ».

أقترح أن نتمشّى قليلاً. تتّشح نظراته بالغرابة والتثاقل.

يضرب الطاولة بقبضته. تبدو النادلة مذعورة، وأطلب لنفسي كأسًا أخرى من الجين. ترفض. إنّه وقت إقفال المشرب لأنّ تقديم العشاء سيبدأ قريبًا. وتُحضر الفاتورة.

أتساءل كيف سيتصرّف زوجي. لكنّه يُخرج محفظته فحسب، ويرمي ببعض المال على المنضدة. يُمسك بيدي ونخرج إلى البرد.

«أخشى إن فكّرت كثيرًا بكلّ ما كان يمكن أن يحدث ولم يحدث، أنّني سأقع في ثقب أسود...».

أعرف هذا الشعور. تحادثنا عن ذلك في المطعم، عندما فاتحتك بأمري.

يبدو أنّه لا يسمع.

«...في عمق أعماقي صوت يقول لي: لا شيء من هذا منطقي. نشأ الكون منذ مليارات السنين، وسيواصل بقاءه إلى ما بعد مماتك. نعيش في جزء مجهري من لغزٍ عملاق، ولا نزال نجهل الإجابات عن أسئلة من طفولتنا: هل ثمّة حياة على كوكب آخر؟ إن كان الله خيّرًا، فلِم يسمح بمعاناة الآخرين ووجعهم؟ والأسوأ من ذلك أنّ الزمن يواصل مروره. غالبًا، بلا سبب ظاهر، أشعر بارتياع شديد. أحيانًا عندما أكون في العمل، وأحيانًا في السيارة، وأحيانًا عندما أضع الولدين في الفراش. أنظر إليهما بحبّ، خائفًا: ماذا سيحلّ بهما؟ يعيشان في بلد يؤمّن السلام والأمان، لكن ماذا عن المستقبل؟».

نعم، أفهم ما تقول. أتصوّر أنّنا لسنا الوحيدَين اللذين يفكّران بهذه الطريقة.

«ثمّ أراكِ تُعدّين الفطور أو العشاء وأحيانًا أفكّر في أننا بعد خمسين سنة من اليوم، أو ربّما أقلّ، سينام أحدنا وحيدًا، يبكي كلّ ليلة لأنّنا كنّا سعيدين يومًا. سيكون الولدان قد كبرا وابتعدا. وسيكون من بقي منّا على قيد الحياة مريضًا، مُحتاجًا إلى عون غرباء على الدوام».

يكفّ عن الكلام، ونمشي بصمت. نمرُّ بجانب لافتة تُعلن عن إقامة حفلة رأس السنة. يركلها بعنف. ينظر إلينا مارّان أو ثلاثة.

«سامحيني. لـم أقصد قول كلّ ذلك. اصطحبتكِ إلى هنا ليتحسّن شعورك بعيدًا عن كلّ الضغوط اليوميّة. الذنب ذنب الكحول!».

أنا مصدومة.

نـمرّ بجانب مجموعة من الشبّان والشابات يتحادثون بحماسة وعبوات البيرة منتشرة في كلّ مكان. يدنو زوجي منهم، وهو الخجول والجدّي عادة، ويدعوهم إلى تناول كأس أخرى.

يبدو الذعر عليهم. أعتذر، مُلمّحةً إلى أننا ثملان، وأن نقطة كحول أخرى قد تؤدّي إلى كارثة. أُمسكه من ذراعه ونـمضي.

كـم من الوقت مضى منذ أن فعلتُ ذلك؟ كان هو الحامي على الدوام، الـمُعين، حلاّل المشكلات. الآن، أنا من يُحاول ردعه عن الانزلاق والسقوط. تبدّل مزاجه مرّة أخرى، والآن هو يغنّي أغنية لـم يسبق لي أن سمعتها، لعلّها أغنية تقليدية من تلك المنطقة.

عندما نقترب من الكنيسة، يقرع الجرس مجدّدًا.

أقول إنّـها إشارة جيّدة.

«أُصغي إلى الأجراس. هي تمثّل صوت الله. لكن هل يُصغي الله إلينا؟ نحن في العقد الرابع من العمر، ولـم تعد الحياة ممتعة. لو لـم يكن ذلك من أجل ولدينا، فـما الهدف من كلّ هذا؟».

أستعدّ لقول شيء. لكنّني لا أملك إجابة. نصل إلى المطعم حيث تبادلنا كلمات الحبّ الأولى، وتناولنا عشاءً على ضوء الشمعة الخافت، في إحدى أجمل مدن سويسرا وأغلاها.

عندما أستيقظ، يكون نور النهار قد طلع في الخارج. نمتُ ملء جفوني ولم أستفق وسط الليل. أنظر إلى الساعة: التاسعة صباحًا.

لا يزال زوجي نائمًا. أدخل الحمّام، أغسل أسناني، وأطلب الفطور. أرتدي برنسًا وأتوجّه نحو النافذة لصرف الوقت فيما أنتظر وصول خدمة الغرف.

عندئذ، ألاحظ شيئًا: السماء ملأى بالمظلّيين! هم يهبطون في المتنزّه قبالة الفندق. معظمهم يرافقهم مدرب خلفهم يوجّه المظلّة. هي تجربتهم الأولى.

كيف لهم أن يفعلوا أمرًا بهذا الجنون؟ هل بلغنا مرحلة تكون فيها المجازفة بحياتنا الشيء الوحيد الذي يفكّ قيود الضجر عنّا؟

يهبط مظلّي آخر، وآخر. يُصوّر الأصدقاء كلّ شيء، يبتسمون مبتهجين. أتساءل كيف يبدو المنظر من فوق، لأنّ الجبال المحيطة بنا مرتفعة، مرتفعة جدًا.

مع أنّني أحسد كلّ واحد من هؤلاء الناس، لن أتحلّى يومًا بالشجاعة للقفز.

يرنّ جرس الباب. يدخل النادل وبيديه صينيّة فضّية، وزهريّة بوردة، وقهوة (لزوجي)، وشايًا (لي)، والكرواسان، والخبز المحمّص الساخن، وخبز الجويدار، والمربّى بنكهات مختلفة، والبيض، وعصير البرتقال، والصحيفة المحلّية، وكلّ أمر آخر يُسعدنا.

أوقظه بقبلة. لا أذكر آخر مرّة فعلتُ فيها ذلك. يجفل، ثمّ يبتسم. نجلس إلى الطاولة ونتلذّذ بالأطايب أمامنا. نتحدّث قليلاً عن إسرافنا في الشرب الليلة الماضية.

«أعتقد أنّني كنتُ في حاجة إلى ذلك. لكن لا تأخذي ما قلته على محمل الجدّ. عندما ينفجر بالون منفوخ، يجفل الكلّ، لكنّ هذا كلّ ما في الأمر: بالون منفجر. لا يؤذي».

أريد أن أقول إنّه كان من الرائع اكتشاف كلّ مواطن ضعفه، لكنّني أبتسم فحسب وأتابع تناول الكرواسان. يلاحظ هو أيضًا المظلّيين. تبرق عيناه. نرتدي ملابسنا وننزل للاستمتاع بالصباح.

نتوجّه إلى مكتب الاستقبال مباشرةً. يقول إنّنا سنرحل اليوم، يطلب إليهم أن يُنزلوا حقائبنا، ويسدّد الفاتورة.

هل أنتَ متأكد؟ ألا يُمكننا البقاء حتى صباح الغد؟

«أنا متأكّد. كانت الليلة الماضية كافية لأفهم أن من المستحيل العودة بالزمن».

نتوجّه إلى الباب، نعبر الردهة الطويلة بسقفها الزجاجي. قرأت في أحد المنشورات أنّ شارعًا كان قائمًا هنا، الآن، جُمع المبنيان اللذان حدّاه من جانبيه. لا بُد أنّ السياحة مزدهرة، حتّى من دون وجود منحدرات تزلّج.

يتجه زوجي يسارًا ويقترب من البوّاب بدلاً من الخروج من الباب.

«كيف نقفز بالمظلّات؟».

نقفز؟ لا نيّة لديّ البتّة لفعل ذلك.

يعطيه البواب منشورًا ذُكر فيه. كلّ شيء.

«وكيف لنا بلوغ القمّة؟».

يشرح البوّاب أنّنا لسنا مضطرّين إلى الذهاب إلى الأعالي. الدرب غدّار جدًا. كلّ ما علينا فعله هو تحديد وقت، وسيمرّون بنا لاصطحابنا من الفندق.

أليس الأمر شديد الخطورة؟ القفز بين سلاسل جبال إلى العدم من دون أن نكون قد فعلنا ذلك مسبقًا؟ من المسؤول؟ هل تفرض الحكومة ضوابط على المدرّبين ومعدّاتهم؟

«سيّدتي، أنا أعمل هنا منذ عشر سنوات. أمارس القفز بالمظلّة مرّة في السنة على الأقلّ. لم أشهد مطلقًا حادثًا واحدًا».

هو يبتسم. لا بُدّ من أنّه كرّر تلك الكلمات آلاف المرّات عبر تلك السنوات العشر.

«هلاّ انطلقنا؟».

ماذا؟ لِمَ لا تذهب وحدك؟

«يُمكنني الذهاب وحدي بالطبع. ويُمكنك أن تنتظريني هنا في الأسفل مع آلة التصوير. لكنّني أحتاج إلى هذه التجربة في حياتي وأريدها. لطالما أرهبتني. أمس بالذات تحدّثنا عن الأمور، عندما تعلق في الرتابة وكيف أنّنا نكفّ عن امتحان حدودنا. أحسستها ليلة مليئة بالحزن».

أعرف. يطلب إلى البوّاب تحديد وقت.

«الآن، هذا الصباح، أم بعد الظهر عندما يكون بإمكانكما أن تريا انعكاس المغيب على الثلج المحيط بنا؟».

أجيب الآن.

«إذًا، شخصٌ أم اثنان؟».

اثنان، هذا إن قمنا بذلك الآن؛ إن كنت لا أملك فرصة للتفكير في ما أفعله. إن كنت لا أملك الوقت لفتح الصندوق وإطلاق الشياطين- الخوف من المرتفعات، من المجهول، من الموت، من الحياة، من المشاعر القصوى. الآن أو مطلقًا.

«لديكما الخيار بالتحليق ثلث ساعة، أو نصف ساعة أو ساعة».

هل من تحليق لمدة عشر دقائق؟

لا.

«أتودّان القفز من ارتفاع ألف وثلاثمئة وخمسين مترًا أم من ارتفاع ألف وثمانمئة متر؟».

أبدأ بالتراجع منذ الآن. لم أكن في حاجة إلى كلّ هذه المعلومات. أريد القفز من الارتفاع الأدنى طبعًا.

«حبيبتي، هذا ليس منطقيًا. أنا واثق بأن شيئًا لن يحدث، الخطر واحد. فالسقوط من ارتفاع عشرين مترًا، أو ما يعادل سبعة طوابق من بناية، ستكون له العواقب نفسها».

يضحك البوّاب. أضحك لأخفي مشاعري. كيف يمكن أن أكون بهذه السذاجة للتفكير في أنّ خمسمئة متر تافهة ستكون مؤثرة؟

يرفع البوّاب الهاتف ويتحدّث إلى أحدهم.

«لا مجال للقفز سوى من ارتفاع ألف وثلاثمئة وخمسين مترًا».

لا يُضاهي خوفي المسبق سخافةً إلاّ شعوري بالانفراج الآن.

آه، جيّد!

ستكون السيّارة عند مدخل الفندق في غضون عشر دقائق.

أقف أمام صدع الجبل مع زوجي وخمسة أشخاص أو ستّة آخرين، منتظرةً دوري. في طريق الصعود، فكّرتُ في ولديّ واحتمال أن يفقدا والديهما... ثمّ أدركتُ أنّنا لن نقفز معًا.

نرتدي لباسًا حراريًا خاصًا وخوذًا. لم الخوذة؟ لئلاّ تتأثر جمجمتي إذا اصطدمتُ بصخرة وسقطتُ مباشرة على الأرض من دون التحليق على علو ثلاثة آلاف قدم.

الخوذة إلزاميّة.

تمام. أعتمر خوذة كتلك التي يرتديها الدرّاجون في شوارع جنيف. إنّها قمّة الحماقة، لكنّني لن أجادل.

أنظر أمامي؛ بيننا وبين الصدع منحدر مكسو بالثلج. يُمكنني أن أكفّ عن التحليق في الثانية الأولى بأنّ أحطّ هناك وأعاود الصعود. لستُ مضطرّةً إلى قطع كلّ المسافة حتّى نهايتها.

لم أخف يومًا من الطيران. لطالما كان جزءًا من حياتي. لكن كل ما في الأمر أنّنا عندما نكون في طائرة، لا يخطر لنا أن الأمر مشابه تمامًا للقفز بالمظلاّت. الفرق الوحيد أنّ الشرنقة الحديديّة تبدو كدرع وتمنحنا شعورًا بأنّنا محميون. هذا كلّ ما في الأمر.

هذا كلّ ما في الأمر؟ أفترض ذلك، بحسب فهمي البسيط لقوانين الديناميكا الهوائيّة.

عليّ أن أقتنع. أحتاج إلى حجّة أفضل.

هذه حجّة أفضل، الطائرة مصنوعة من حديد. هي بالغة الثِقل. وهي تحمل الأمتعة، والناس، والمعدّات، وأطنانًا من الوقود المتفجّر. في المقابل، المظليّ خفيف، يهبط مع الريح، ويُطيع قوانين الطبيعة مثل ورقة تسقط من شجرة. في هذا منطق أكبر بكثير.

«أتريدين أن تقفزي أولاً؟».

نعم أريد. لأنك إذا حدث لي شيء، ستعرف، وسترعى ولدينا. وستشعر بالذنب بقية حياتك لأنّ هذه الفكرة المجنونة خطرت لك. ستتذكر أنني كنتُ رفيقة في الفصول كلّها، إنسانة وقفت إلى جانب زوجها على الدوام، في الأسى والفرح، في المغامرة والرتابة.

«سيّدتي، نحن مستعدّون».

أأنتَ المدرِّب؟ ألستَ صغيرًا على هذا؟ أفضّل القفز مع رئيسك. في النهاية، إنّها تجربتي الأولى.

«أنا أقفز منذ أن بلغت السادسة عشرة من العمر، وهو الحدّ الأدنى المسموح به. أنا أقفز منذ خمس سنوات، ليس هنا فقط، بل في أماكن كثيرة من العالم. لا تقلقي سيّدتي».

تزعجني نبرة صوته المتعالية. لا بُدّ من احترام المسنّين ومخاوفهم. إلى هذا، لا بدّ أنّه يقول الأمر نفسه للجميع.

«تذكّري التعليمات. وعندما نبدأ بالركض، لا تتوقّفي. ودعيني أهتمّ بالباقي».

التعليمات. كما لو أنّ الأمر بات مألوفًا لنا الآن، في حين أنّ ما تأنّوا في شرحه أكثر من سواه هو أنّ الخطر يكمن تحديدًا في الرغبة

في التوقّف منتصف الطريق. وأن علينا عند الوصول إلى الأرض أن نواصل السير إلى أن نشعر بأنّ أقدامنا ثبتت جيدًا.

هذا حلمي: أن أكون على الأرض. أتوجّه نحو زوجي وأطلب إليه أن يكون آخر القافزين، عندها سيكون لديه وقت لرؤية ما يحدث لي.

يسأل المدرّب: «أتريدين جلب آلة التصوير؟».

يُمكن تعليق آلة التصوير في قضيبٍ من الألومنيوم طوله نصف متر تقريبًا. لا، لا أريد. بدايةً، لا أفعل هذا لأُظهره للآخرين. حتّى وإن كنت أستطيع تخطّي ذعري، فسأكون أكثر انشغالاً بالتصوير بدلاً من الاستمتاع بالمنظر. تعلّمت هذا من والدي عندما كنت مراهِقة: تسلّقنا جبل «ماترهورن» وكنت أتوقّف كلّ دقيقة لالتقاط صور، إلى أن ثارت ثائرته: «أتعتقدين أن بإمكان هذا الجمال كلّه وهذه الهيبة كلّها أن يتّسعا في إطار صورة مربّعة صغيرة؟ صوّري الأمور في قلبك. هذا أهمّ من محاولة أن تظهري للآخرين ما تختبرينه».

يبدأ مرافقي في التحليق، بكلّ حكمته المكتسبة على مدى واحد وعشرين عامًا، يعلّق حبالاً بجسمي مُستعملاً مشابك كبيرة من الألومنيوم. الكرسي موصول بالمظلّة، سأكون في المقدّمة، وهو في الخلف. لا يزال باستطاعتي أن أتراجع، لكنّني لم أعد ما أنا عليه. فقدت كليًّا القدرة على الاستجابة.

يتبادل الشاب المخضرم ابن الواحد والعشرين عامًا ورئيس المجموعة الآراء حول الريح فيما نقف في الوضعيّة المطلوبة.

يربط نفسه هو أيضًا بالكرسي. أستطيع الإحساس بتنفّسه في

الجهّة الخلفيّة من رأسي. أنظر خلفي ولا يروقني ما أراه: صفٌ من قطع قماشيّة ملوّنة يـمتدّ على طول الأرض الثلجيّة، وشخص معلّق بكلٍّ منها. في نهاية الصف زوجي، يعتمر هو أيضًا خوذة ركوب الدرّاجات الهوائية. أعتقد أن لـيس في يده حيلة، وسيقفز من بعدي بدقيقتين أو ثلاث.

«نحن مستعدّان. ابدأي بالركض».

لا أتـحرّك.

«هيّا بنا. ابدأي بالركض».

أشرح أنّني لا أريد أن أدور في السماء. فلنهبط برويّة. خمس دقائق من التحليق تكفيني.

«يُمكنك أن تُعلميني بذلك ونحن نحلّق. لكن أرجوكِ، ثمّة صفّ. علينا أن نقفز الآن».

أطيع الأوامر، بـما أنّني فقدتُ الإرادة الحرّة. وأبدأ بالركض نحو العدم.

«بشكل أسرع».

أُسرِع، تقذف جزمتي الثلج في كلّ الاتجاهات. في الواقع، لستُ أنا من يركض، بل إنسانة آليّة تُطيع أوامر صوتيّة. أبدأ بالصراخ، لا بداعي الخوف أو الإثارة، بل بداعي الغريزة. رجعتُ إلى الكهف، امرأةً من العصر الحجري، كما قال الشامان الكوبي. نـحن نخشى العناكب والحشرات، ونصرخ في حالات مماثلة. لطالما صرخنا.

فجأة ترتفع قدماي عن الأرض، وأتشبّث بكلّ قوّتي بأحزمة الأمان التي تربطني بالكرسي. أتوقّف عن الصراخ. يواصل المدرّب

الجري بضع ثوانٍ أخرى، وعلى الفور ننحرف عن التحليق في خطّ مستقيم. تتحكّم الريح بحياتينا.

أُبقي عينيّ مغمضتين في تلك الدقيقة. لا أريد أن أستوعب مفهوم الارتفاع، والجبال، والخطر. أحاول أن أتخيّل أنّني في المنزل، في المطبخ، أخبر ولديّ قصّة عن شيء جرى في خلال رحلتنا؛ ربمّا عن البلدة، أو عن غرفة الفندق. لا يمكنني أن أخبرهما بأنّ والدهما أفرط في الشرب حتّى أنّه سقط أرضًا عندما كنّا عائدين إلى الفندق. لا يُمكنني أن أخبرهما بأنّني جازفتُ، ومارستُ التحليق، لأنّهما سيرغبان في فعله أيضًا. والأسوأ من ذلك، قد يحاولان التحليق بمفردهما ورمي أنفسهما من الطابق العلوي من منزلنا.

ثمّ أدرك أنّني أتصرّف بحماقة؛ ما الهدف من أن أكون هنا وعيناي مغمضتان؟ لم يجبرني أحد على القفز. قال البوّاب: «أنا أعمل هنا منذ عشر سنوات ولم أشهد مطلقًا حادثًا واحدًا».

أفتحُ عينيّ.

وما أراه، وما أشعر به، أمر لن أتمكّن أبدًا من وصفه بدقّة. في الأسفل، يربط الوادي بين البحيرتين، وتقع البلدة بينهما. أنا أحلّق، حرّة في الفضاء والسكون فيما نتبع الريح، ونُبحر في دوائر. لم تعد الجبال المحيطة بنا تبدو شاهقة الارتفاع جدًّا أو مُهدّدة، بل ودودة، ملتحفة البياض، والشمس تبرق حوالينا.

تسترخي يداي، أُرخي قبضتي عن الأربطة، وأفتح ذراعيّ مثل طير. لا بُدّ أنّ الرجل خلفي قد أدرك أنّني شخص مختلف. بدلاً من أن يُتابع الهبوط، يرتفع، في تيّارات لامرئيّة من الهواء الساخن التي بدت قبل قليل متجانسة.

أمامنا نسر، يُبحر في المحيط نفسه ويستعمل جناحيه بيُسر للتحكّم بتحليقه الغامض. إلى أين يريد الذهاب؟ هل يتسلّى، ويستمتع بالحياة والجمال من حوله؟

أشعر كأنّني أتواصل مع النسر بالتخاطر. يلحق المدرّب به، هو دليلنا. أَرِنا إلى أين علينا أن نرتفع أعلى في السماء، أن نطير إلى الأبد. ينتابني الشعور نفسه الذي خالجني ذاك اليوم في «نيون» عندما تخيّلتُ الجري إلى أن يعجز جسمي عن ذلك.

ويقول لي النسر: «هلمّي. أنتِ السموات والأرض، أنتِ الريح والسُحُب، الثلج والبحيرات».

أبدو وكأنّني في رحم أمّي، محميّة وفي أمان كلّي، وأختبر أمورًا للمرّة الأولى. قريبًا سأولَد، وسأرجع إلى مرحلة الإنسانة التي تمشي على وجه الأرض بقدمين. لكن في هذه اللحظة، كلّ ما أفعله موجود في هذا الرحم، لا أُقاوم، وأطلق العنان لنفسي كي تذهب أينما يُرتحل بها.

أنا حرّة.

نعم، أنا حرّة. والنسر على حقّ: أنا الجبال والبحيرات. لا ماضي لي، ولا حاضر، ولا مستقبل. أنا أتعرّف إلى ما يدعوه الناس «**الأبديّة**».

للحظة، أتساءل: هل يشعر كلّ قافز بهذا الشعور؟ لكن ما الهمّ؟ لا أريد التفكير في الآخرين. أنا أطوف في الأبديّة. الطبيعة تكلّمني كما لو كنت ابنتها الحبيبة. تقول لي الجبال: «لكِ قوّتي». تقول لي البحيرات: «لكِ سلامي وسكوني». تقول لي الشمس: «اسطعي مثلي، جاوزي حدودك. أصغي».

أبدأ بسماع الأصوات المكتومة منذ زمنٍ في داخلي، هي التي

كتمتها الأفكار المُتواترة، والوحدة، ورُعب الليل، والخوف من التغيير، والخوف من أن يبقى كلّ شيء على حاله. كلّما ارتفعنا، كلّما أبعدتُ نفسي عن نفسي.

أنا في عالم آخر حيث الأمور تُناسِبُ قالبها تماماً. بعيداً عن تلك الحياة الطافحة بالمهام، والرغبات المستحيلة، والمعاناة، واللذة. لا أملك شيئاً، وأنا كلُّ شيء.

يشرع النسر في الالتفاف نحو الوادي. أُحاكي حركة جناحيه بذراعين مفتوحتين. لو أمكن لأحدٍ أن يراني الآن، لما عرفني، لأنّني النور والمكان والزمان. أنا في عالمٍ آخر.

ويقول لي النسر: «هذه الأبديّة».

في الأبديّة، لا وجود لنا، نحن مجرّد أداة في اليد، التي خلقت الجبال، والثلج، والبحيرات، والشمس. أرجع في الزمان والمكان، إلى لحظة تكوين كلّ شيء، لحظة سير النجوم عكسيًّا. أريد أن أكون في خدمة هذه اليد.

تخطر لي أفكار عدّة وتتبدّد من دون أن تبدّل ما أشعر به. ترك عقلي جسدي وامتزج مع الطبيعة. يا للأسف، عليّ أنا والنسر أن نحطّ في المتنزّه المقابل للفندق في الأسفل. لكن ما همّ ما سيحدث مستقبَلاً؟ أنا هنا، في هذا الرحم المكوّن من عدمٍ ومن كُلّ.

يملأ قلبي كلّ زاوية من الكون. أحاول أن أشرح ذلك لنفسي بالكلمات، أحاول أن أجد طريقة أتذكّر بها ما يُخالجني الآن بالذات، لكن ما تلبث أن تتبدّد هذه الأفكار ويعود الفراغ ليملأ كلّ شيء من جديد.

قلبي!

من قبل، كنت أرى كونًا هائلاً من حولي؛ والآن يبدو الكون نقطة صغيرة في قلبي الذي توسّع بلا حدود، مثل الفضاء. مثل أداة. مثل بَرَكة. يُكافح عقلي ليُبقي الأمور تحت سيطرته ويفسّر لي ولو شيئًا مـمّا أشعر به، لكنّ القوّة أقوى.

القوّة. يـمدّني شعور الأبديّة بشعور غامض من القوّة. بوسعي أن أفعل أيّ شيء، حتّى إنهاء عذابات العالـم. أنا أحلّق، وأُحدّثُ الملائكة، وأسمعُ أصواتًا ووَحيًا سرعان ما ستُنسى، لكنّها في هذه اللحظة واقعيّة كالنسر الذي أمامي. لن أقدر يومًا أن أفسر شعوري، ولا حتّى لنفسي. لكن أيهمّ؟ إنّه المستقبل، وأنا لـم أبلغه بعد. أنا في الحاضر.

يتوارى العقل المنطقي. أنا مـمتنّة لذلك. أنـحني أمام قلبي الجبّار الـمُشبَع نورًا وقوّة، الذي بوسعه أن يكتنف كلّ ما حدث، وما سيحدث، من الآن وحتّى انقضاء الدهر.

أسمع شيئًا للمرّة الأولى: كلاب تنبح. نحن نقترب من الأرض، الواقع يهم بالعودة. في غضون لحظة، سأطأ الكوكب الذي أحيا عليه، لكن في قلبي، اختبرتُ الكواكب والنجوم بأسرها، وكانت أعظم من أيّ شيء.

أريد أن ألازم هذه الحالة، غير أنّ أفكاري تعاودني. أرى فندقنا إلى اليمين. وتحتجب البحيرتان خلف الغابات والهضاب الصغيرة.

إلهي، ألا يسعني أن أبقى على هذه الحال إلى الأبد؟

«لا يسعك ذلك»، يقولها النسر الذي قادنا إلى المتنزّه حيث سنهبط قريبًا، والذي يودّعنا الآن لأنّه وجد تيّارًا جديدًا من الهواء الساخن.

يرتفع بيُسرٍ من جديد، من دون أن يخبط جناحيه، ويتحكّم بالريح بأرياشه. يقول: «إذا بقيتِ على هذه الحال إلى الأبد، فلن تتمكّني من العيش في هذا العالم».

وإن يكن. أشرع في مجادلة النسر، لكنّني أرى أنّني أجادله بالمنطق، مُحاوِلةً التفكير. كيف لي أن أعيش في هذا العالم بعد أن مررتُ بما اختبرته في الأبديّة؟

يُجيب النسر، بصوتٍ هامِسٍ: «جدي سبيلاً». ثمّ يرحل إلى الأبد من حياتي.

يقول المدرب شيئاً وهو يهمس- يُذكّرني بأن عليّ الركض عندما تطأ قدماي الأرض.

أرى العشب أمامي. ما تُقتُ إليه جدًّا من قبل، أي أن أكون على الأرض الصلبة، تحوّل الآن إلى نهاية شيء ما.

نهاية ماذا بالضبط؟

تطأ قدماي الأرض. أجري قليلاً، ويتحكّم المدرّب بالمظلّة. ثم يستدير نحوي ويُرخي السلاسل. ينظر إليّ. أُحدّق إلى السماء. كلّ ما يمكنني رؤيته هو مظلّيون ملوّنون آخرون، يقتربون منّي.

أُدرك أنّني أبكي.

«هل أنتِ بخير؟».

أومِىء إيجابًا. لا أدري إن كان يفهم ما اختبرته فوق.

نعم، هو يفهم. يقول إنّه يحلّق مرّة في السنة مع شخصٍ يكون لديه ردّ الفعل نفسه.

«عندما أسأل عن الأمر، يعجزون عن تفسيره. يحدث الأمر نفسه

مع أصدقائي؛ يدخل بعض الناس في حالة صدمة ولا يخرجون منها إلاّ عندما تلامس أقدامهم الأرض».

إنّه العكس تمامًا. لكنّني لا أرغب في تفسير أيّ شيء.

أشكره على كلماته المواسية. أرغب في شرح أنّني لم أُرد مطلقًا أن ينتهي ما اختبرته في الأعلى. لكنّه انتهى، ولا يتوجّب عليّ المكوث هنا وتفسير أيّ شيء لأيٍّ يكن. أسيرُ مبتعدة لأجلس على أحد مقاعد المتنزّه وأنتظر زوجي.

لا أستطيع الكفّ عن البكاء. يحطّ، ويدنو منّي بابتسامة عريضة، ويقول إنّها كانت تجربة مذهلة. أواصل البكاء. يعانقني، يقول: الأمر انتهى الآن، وما كان عليه أن يُرغمني على فعل أمر لم أُرِد فعله.

أقول إنّ الأمر ليس كذلك أبدًا. أرجوك دعني وشأني. سأكون بخير بعد قليل.

يأتي شخصٌ من فريق الدعم ليأخذ لباسينا والحذاءين الخاصّين ويعطينا معطفينا. أنجز كل شيء آليًا، غير أنّ كلّ حركة آتي بها تحملني إلى عالم مختلف، العالم الذي ندعوه «عالم الواقع»، العالم الذي لا أريد أن أكون فيه البتّة.

لكن ليس بيدي حيلة. الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو الطلب إلى زوجي أن يدعني وشأني قليلاً. يسأل إن كان حريًا بنا العودة إلى الفندق لأنّ الطقس بارد. لا، أنا بخير الآن.

أجلس هناك نصف ساعة، أبكي. دموع نعيم تغسل روحي. أخيرًا، أدركُ أنّ الوقت حان للعودة نهائيًا إلى العالم.

أنهض. نذهب إلى الفندق، نأتي بسيّارتنا، ويقود زوجي عائدَين

إلى جنيف. الراديو مشغَّل لذا لا يُضطرّ أيّ منّا إلى التكلّم. أشعر تدريجاً بصداع رهيب، لكنّني أعرف ما يجري، يجري دمي مجدّدًا في الأجزاء التي سدّتها العواطف فتنحلّ أخيرًا. الألم مُلازِمٌ للحظة التحرّر، لكن لطالما جرت الأمور على هذا النحو.

ما قاله أمس لا يحتاج إلى تفسير. ولا أحتاج إلى تفسير ما اختلج بي اليوم.

العالم مثالي.

في غضون ساعة فقط، ستحلّ نهاية السنة. قرّرت المدينة أن تخفّض الإنفاق على احتفالات عشيّة رأس السنة التقليديّة تخفيضًا ملحوظًا، لذا سنرى مفرقعات أقلّ. لا بأس بذلك، رأيتُ المفرقعات طوال حياتي ولم تعد تبعث بي التشويق ذاته الذي كنت أشعر به في صغري.

لا يسعني القول إنّني سأشتاق إلى الأيام الثلاثمئة والخمسة والستين الماضية. هبّت الريح، ولمع البرق، وكاد البحر يقلب مركبي، لكنّني تمكّنتُ في النهاية من عبور المحيط والرسو على برّ الأمان.

برّ الأمان؟ لا يجدر بأيّ علاقة أن تسعى إليه. ما يقتل العلاقة بين شخصين هو بالضبط الافتقار إلى التحدّي، والشعور بأنّ كلّ جديد لم يعد يستجدّ. على كلّ منا الاستمرار في مفاجأة الآخر.

يبدأ كلّ شيء بحفلة كبيرة. يخرج الأصدقاء، يقول الكاهن أمورًا ردّدها في مئات الأعراس، كتلك الفكرة عن بناء منزل على صخر، وليس على رمال. يرمي الضيوف الأرزّ، ونرمي الباقة. تحسدنا العازبات في سرّهن، وتعرف المتزوّجات أننا نستهلّ دربًا لا يقرب البتّة ممّا قرأناه في الحكايات.

ثمّ يبدأ الواقع بالظهور تدريجًا، لكنّنا نرفض تقبّله. نريد لشريكنا أن يظلّ الشخص الذي التقيناه عند المذبح والذي بادلناه الخاتم. وكأنّ باستطاعتنا إيقاف الزمن.

لا يمكننا. لا يجدر بنا. لا تُغيّر الحكمة والخبرة الإنسان. لا يُغيّر الزمن الإنسان. الأمر الوحيد الذي يتغيّر هو الحبّ. فيما كنتُ في الفضاء، فهمتُ أنّ حبّي للحياة، للكون، كان أقوى من أيّ شيء.

أتذكّر عِظَةً كتبها كاهن فتيّ مجهول الهويَة من القرن التاسع عشر، يُحلّل فيها رسالة بولس الرسول إلى أهل كورينثوس وشتّى الأوجه التي يُظهرها الحبّ وهو ينمو. يُخبرنا أنّ كثيرًا من النصوص الروحانيّة التي نراها اليوم تُعنى بجزء واحد فقط من الإنسان.

هي تتحدث عن السلام، لكنّها لا تتحدّث عن الحياة.

هي تناقش في الإيمان، لكنّها تغفل الحبّ.

هي تتحدث عن العدالة، ولا تذكر الوحي، كذاك الذي اختبرتُه عندما قفزتُ من الجُرف في «إنترلاكن»، والذي أخرجني من الثقب الأسود الذي حفرته في روحي.

ليكن واضحًا مدى الدّهر أنّ الحبّ الحقيقي وحده قادر على مضاهاة أيّ حبّ آخر في هذا العالم. عندما نُعطي كلّ شيء، لا يعود لدينا ما نخسره. فينجلي الخوف، والغيرة، والضجر، والرتابة، وكلّ ما يبقى هو النور في فراغ غير مخيف، بل يقرّب واحدنا من الآخر. النور المتغيّر أبدًا. التغيُّر يسبغ عليه جمالاً ويملأه مفاجآت. لا تلك التي نأملها على الدوام، بل تلك التي يُمكننا التعايش معها.

أنْ نُحِبَّ بفيضٍ يعني أنْ نحيا بفيض.

أنْ نُحِبَّ إلى الأبد يعني أنْ نحيا إلى الأبد. الحياة الأبديّة والحبّ متلازمان.

لـمَ نريد أن نـحيا إلى الأبد؟ لأنّنا نريد أن نعيش يومًا آخر مع الشخص إلى جانبنا. لأنّنا نريد أن نتابع الـمسير مع شخص يستحقّ حبّنا، ويعرف كيف يـحبّنا لاعتقادنا بأنّنا نستحقّ أن نـُحَبّ.

فأنْ نعيش يعني أنْ نُـحِبّ.

حتّى حبّ حيوان أليف، مثل كلب يمكن أن يبرّر حياة إنسان. متى زال وثاق الحبّ من حياته، زال أيضًا أيّ سبب لمواصلة العيش.

فلنَنشُدِ الحبّ أولاً، ونُضِفْ أيّ أمر آخر لاحقًا.

في خلال سنوات الزواج العشر تلك، استمتعتُ بكل ملذّة تقريبًا يُمكن لامرأة الحصول عليها، وكان عليّ أن أتحمّل أمورًا لم أستحقّها. مع ذلك، عندما أسترجع الماضي، أرى أنّ لحظات قليلة فقط تخلّلته- قصيرة جدًا في العادة- تمكّنتُ أن أرى فيها ولو محاكاة بسيطة لما أتصوّر أنّه الحبّ الحقيقي: ولادة ولديّ، أو عندما جلستُ إلى جانب زوجي وأخذنا ننظر إلى جبال الألـپ، أو نافورة الماء الضخمة في بحيرة جنيـف. لكنّ هذه اللحظات القصيرة هي علّة وجودي، لأنّها تمنحني القوّة لأواصل السّير وأمدّ أيامي بالفرح، مهما حاولت أن أمدّها بالتعاسة.

أتوجّه إلى النافذة وأنظر منها إلى المدينة. الثلج الذي وُعدنا به لم يتساقط. مع هذا، أعتقد أنّها إحدى أكثر عشيّات رأس السنة رومنسيّة من كلّ تلك التي عرفتها، لأنّني كنت أموت، والحبّ أحياني. الحبّ، الوحيد الذي سيبقى بعد زوال الجنس البشري.

الحبّ. تغرورق عيناي بدموع الفرح. لا يستطيع أحد أن يُجبر نفسه على أن يُحِبّ، ولا أن يُجبر شخصًا آخر عليه. كلّ ما تستطيعه هو النظر إلى الحبّ، والوقوع في حبّ الحبّ، والتشبّه به.

لا سبيل آخر لنيل الحبّ، ولا لغز فيه. نحبّ آخرين، نحبّ ذواتنا، نحبّ أعداءنا، فلا نرغب بعدها في أيّ شيء آخر في حياتنا. أستطيع أن أشغّل التلفاز وأشاهد ما يجري في العالم، وما دام هناك ذرّة من الحبّ في هذه المآسي، فنحن متوجّهون نحو الخلاص. فالحبّ يولّد مزيدًا من الحبّ.

أولئك الذين يعرفون كيف يحبّون، يحبّون الحقّ، يبتهجون بالحقّ، ولا يخشونه، لأنّه عاجلاً أو آجلاً، سوف يُبرِىء كلّ شيء. هم ينشدون الحقّ بعقلٍ متواضعٍ، صافٍ، لا أحكام مسبقة أو تحجّر فيه، ويُسَرّون في النهاية بما يجدونه.

لعلّ كلمة «الصدق» ليست الفضلى لتفسير خاصّية الحبّ هذه، لكنّني أعجز عن إيجاد كلمة أخرى. ولا أقصد الصدق الذي يستهين بالمقرّبين إليك؛ فالحبّ الحقيقي لا يكون بكشف مواطن ضعفك أمام الآخرين، بل بالجرأة في الإفصاح عن حاجتك إلى العون، والتهلّل في اكتشاف أنّ الأمور أفضل ممّا قاله آخرون.

أفكّر بعطفٍ في جاكوب وماريان. هما أعاداني، من دون قصد، إلى زوجي وأُسرتي. آمل أن يكونا سعيدين في هذه الليلة الأخيرة من السنة، وأن يكون كلّ هذا قد قرّب أحدهما من الآخر.

أَأحاول أن أبرّر ارتكابي الزنى؟ لا. نشدت الحقّ ووجدته. آمل أن يكون الأمر على هذا النحو لكلّ من مرّ بهذه التجربة.

تعلّموا أن تحبّوا بشكل أفضل.

حريّ بذلك أن يكون هدفنا في العالم: أن نتعلّم أن نحبّ. تقدّم إلينا الحياة آلاف الفرص للتعلّم. يملك كلّ رجل وكلّ

امرأة، في كلّ يوم من حياتنا، فرصة مؤاتية دومًا للاستسلام للحبّ. ليست الحياة إجازةً طويلة، بل مسيرة تعلُّم متواصل.

والدرس الأهمّ هو أن نتعلّم أن نحبّ.

أن نحبّ بشكل أفضل دائماً. لأنّ اللغات، والبلدان، والاتّحاد السويسري، وجنيف، والشارع حيث أقطن بمصابيحه، ومنزلنا، وأثاث غرفة المعيشة، كلّها ستندثر...وسيندثر جسمي أيضًا.

لكنّ أمرًا واحدًا سيُحفَر في روح الكون أبدًا، وهو حبّي. على الرغم من من أخطائي، وقراراتي التي سبّبت الأذى للآخرين، واللحظات التي خِلتُ فيها أنّ الحبّ غير موجود.

أبتعدُ عن النافذة وأنادي ولديّ وزوجي. أقول إنّه - بحسب التقاليد- علينا أن نقف على الأريكة قبالة المدفأة، وعند منتصف الليل تمامًا، نطأ الأرض بقدمنا اليمنى.

«حبيبتي، الثلج يتساقط!».

أهرعُ إلى النافذة من جديد، وأنظر إلى نور أحد المصابيح في الشارع. نعم، الثلج يتساقط! كيف حدث أنني لم ألاحظه من قبل؟

يسأل أحد الولدين: «هل يمكننا الخروج؟».

ليس الآن. أولاً، سوف نقف على الأريكة، ونتناول اثنتي عشرة حبّة من العنب، ونحتفظ بالبذور لكي تعمّ البركة طوال السنة. سنفعل كلّ ما تعلّمناه من أسلافنا.

ثم سنخرج للاحتفاء بالحياة. أنا متأكّدة من أنّ السنةَ الجديدةَ ستكون ممتازة.

جنيف، ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣

تعي ليندا تمامًا أن حياتها مثالية. تشغل وظيفة رائعة. ولها زوجٌ وسيمٌ متيّمٌ بها وطفلان جميلان. تثير رغبة الرجال وحسد النساء. لكن على الرغم من هذا، يلفّها ضجرٌ لا يوصف. وتشعر أنها على شفير الهاوية.

فجأةً، ووسطَ كل هذا الضياع والضجيج، يعترض حياتها حبيبها السابق. وقد أصبح سياسياً مرموقاً. فتخوض معه تجربةً حميمةً وغريبةً، مُجسِّدةً ما كانت تحرّمه حتى مع زوجها: تجربة تقلب المعادلات المألوفة، وتقودها إلى عالمٍ آخر، وبلمسة ساحرٍ تعيد الأمور إلى موقعها الصحيح.

تنتفض، وبشجاعة فائقة تواجه ما ارتكبته، لتكتشف في النهاية أن «الحب يجترح المعجزات، ويغيّر معالم الأرض والروح».

فما هو الحبّ الحقيقي؟ وما هي السعادة؟ وهل يتحوَّل الضمير جلّاداً؟ أسئلة كثيرة تطرحها ليندا بطلة رواية پاولو كويلو الجديدة «الزانية»، تاركةً لنا عناء اكتشاف أجوبتها.


ISBN 978-9953-88-839-2

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب: ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠١٠٨ ٠٩٦١١ فاكس: ٨٣٠١٠٩ ٠٩٦١١

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر